موسوعة

الحوزة العلميّة والمرجعيّة

الجزء الثالث

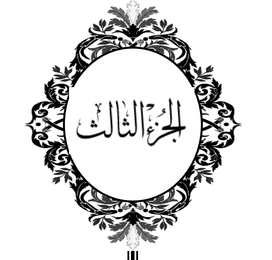
الإمام الحكيم

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم

الإمام الحكيم قُدِّسَ سِرُّهُ

موسوعة الحوزة والمرجعيّة

الإمام الحكـــيم قدس سره



قراءة تحليلية في السيرة الذاتية

شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره



هوية الكتاب

أسم الكتاب: الامام الحكيم .

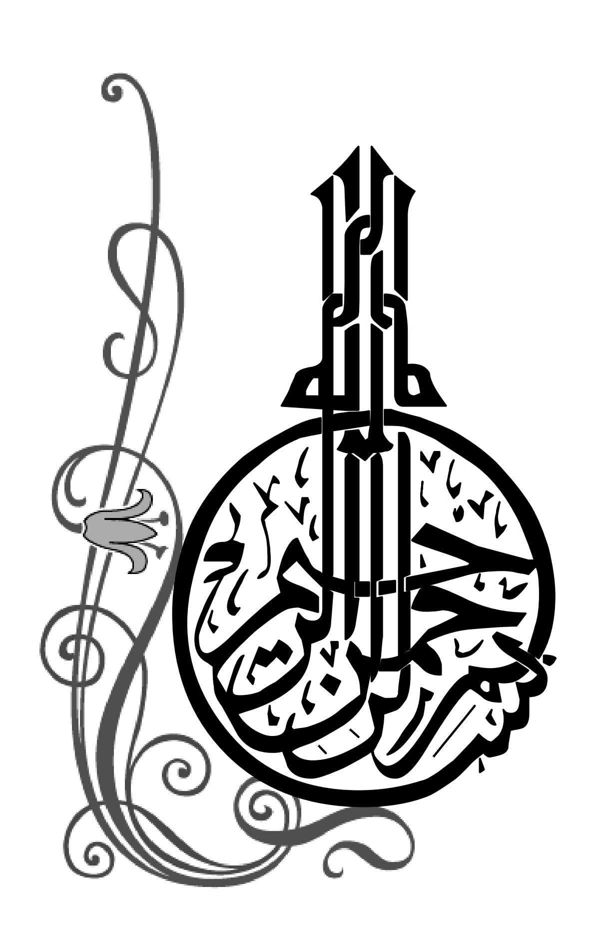
الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره .

المطبعة: الزيتون

الطبعة الأولى: ٥٠٠٠ نسخة

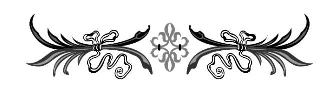
النجف الأشرف

صيف سنة ٢٠٠٥ م


بسم الله الرحمن الرحيم

((...لا زلت أتذكر أن الإمام الخميني عندما يتحدث عن الإمام الحكيم كان ينعته بأنه (**مرجع العصر**). وعندما يتحدث الإمام الخميني عن المرجعية فإنه لا يتحدث عنها بمفهومها الضيّق، وإنما يفهم دورها، وما يمكن أن يكون لها من أثر في أوساط الأمة...))

شهيد المحراب
السيد محمد باقر الحكيم



المقدمة

الحديث عن الإمام الحكيم حديث واسع الأطراف، متعدد الجوانب؛ لأن الإمام الحكيم بالإضافة إلى شخصيته العلمية، كان أحد المراجع العاملين النادرين في القرن الهجري الماضي.

وقد اقترن عصره بأحداث فريدة في التاريخ الإسلامي، والعالمي، وهي أحداث سقوط الدولة الإسلامية الكبرى، والحرب العالمية الأولى، والثانية، والغزو الثقافي والفكري الواسع للعالم الإسلامي، وظهور التيارات الفكرية السياسية في العالم الإسلامي، مضافاً إلى ظاهرة الأحزاب والجمعيات الإسلامية، وكذلك الاحتلال العسكري للعالم الإسلامي بشكل عام، ووقوعه في قبضة الكفر العالمي سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً.

وقد عاش حياته في النجف الأشرف، التي كانت تعتبر إلى وقت قريب أهم حاضرة علمية دينية لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام، سواء على المستوى العلمي، أم المعنوي، أم الروحي، أم الكثافة والنشاط الديني والسياسي، منذ حركة الإصلاح الإسلامي في عصر الميرزا الشيرازي قدس سره، إلى حركة المشروطة التي قادها الشيخ محمد كاظم الاخوند الخراساني قدس سره، والمطالبة بتقييد السلطات المطلقة للحاكم بالدستور، وكذلك التحولات السياسية نحو القومية، والوطنية، ثم حركة التحرر والانعتاق من الهيمنة الأجنبية بكل أشكالها، والتي قادها الميرزا محمد تقي الشيرازي قدس سره، وطلابه، وأتباعه.

والعراق كان يمثل من الناحية الجغرافية، والديموغرافية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية موقعاً متميزاً، لانكاد نجد له نظيراً في العالم الإسلامي.

فهو على الحدود الشرقية للعالم العربي، ومنتهى الخليج، ويتكون

سكانه من أغلبية شيعية مضطهدة عبر التاريخ الإسلامي، مجاور لإيران الشيعية، إلى جانب أقلية عربية سنية، لها عمق تاريخي وبشري، يتمثل تاريخياً بالحكم العثماني الحنفي السنّي، وبالعالم العربي ذي الأغلبية السنّية، والى جانب الشعب العربي في العراق، توجد قوميات تمثل القوميات الرئيسية في العالم الإسلامي، الكرد، والترك، والفرس، مع أقليات دينية يهودية، ومسيحية، وصابئة.

بالإضافة إلى الرافدين العظيمين (دجلة والفرات)، ومعادن النفط الأولى في المنطقة العربية، ومعادن الكبريت...وغيرها من الثروات الطبيعية.

والى جانب ذلك الأماكن والعتبات المقدسة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، في الكوفة والنجف الأشرف، وكربلاء، والكاظمين، وسامراء، وغيرهم من أئمة ورجال علماء المسلمين، والشخصيات التي تحظى باحترام وتقدير خاصين، كمسلم بن عقيل، وأبي الفضل العباس، وهاني بن عروة، وميثم التمار، وزيد بن علي بن الحسين، والسيد محمد بن الإمام الهادي.

وكذلك الذين يحضون باحترام وتقديس خاص لدى عامة المسلمين، كأبي حنيفة، وأبي يوسف، والكيلاني، والسيد الرفاعي، والنواب الأربعة، والسيدين المرتضى والرضي، وشيخهما الشيخ المفيد، وكذلك الشيخ الطوسي، وغيره من كبار علماء شيعة أهل البيت عليهم السلام، حيث كان العراق عاصمة الدولة العباسية، وقبلها مركز خلافة الإمام علي عليه السلام، ومدرسته.

انَّ كل هذه الأبعاد والجوانب والآفاق، يمكن أن تلقي بظلالها على شخصية الإمام الحكيم، عندما يكون له هذا الموقع السياسي، والاجتماعي، والعلمي، والديني الهام، وهو موقع المرجع الأعلى لأتباع أهل البيت عليهم السلام،

وفي مثل هذه الظروف الخاصة.

وعندما نتحدث عن الإمام الحكيم فإننا نريد أن نقدم نموذجاً من نماذج الإمامة والمرجعية بمستوى السير في طريق الإمامة المعصومة للأئمة الأطهار عليهم السلام، ولا يمكن أن يرقى لدرجة الإمامة - للأئمة الإثني عشر - شخصٌ آخر.

إننا نريد أن نقدم نموذجاً لمراجعنا العظام، وهم على اختلاف مستوياتهم وأدوارهم وأساليبهم يمثلون هذا المنهج، وليس هناك اختصاص بالمعنى الكلي عن بقية المراجع، فإمامة الإمام الحكيم هي ذاتها للإمام الخميني، والإمام الگلپايگاني، والإمام الشاهرودي، والإمام الخوئي. وهؤلاء المراجع الذين عاصرناهم، مع اختلاف في خصوصياتهم إلّا أنهم منهج ومسير واحد، وهذا المنهج لابد أن نفهمه ونعرفه.

والسيرة الذاتية للإنسان تعتبر القاعدة والأساس للبناء الفوقي في الشخصية، وبالإضافة إليها تتمثل الأبعاد البارزة في شخصية الإمام الحكيم بالبعد العلمي، والبعد المرجعي، والبعد الجهادي السياسي.

وبالتالي فإننا سنتناول هذه الأبعاد ضمن كتابنا هذا وعلى فصول.

المؤلف

الفصل الأول

السيرة الذاتية

ومعالم الشخصية

في هذا الجانب نحاول أن نرسم معالم الشخصية[1] من خلال السيرة الذاتية، حيث تمثل السيرة الذاتية والسلوك العالي الرفيع للإمام الحكيم ﷺ، القاعدة والإطار لتبين معالم الشخصية، والنتائج، والآثار لها.

المنشأ والمولد

ولد الإمام الحكيم في أوساط عائلية علمية[2]، حيث كان والده آية

---

(1) في البداية لابد أن أشير إلى أن فاصل العمر بيني وبين الإمام الحكيم كان كبيـراً، بالرغم من أني أحد أولاده الصلبيين المباشرين، حيث كانت ولادتي في عام ١٣٥٨ هـ أي: بعد اثنتين وخمسين عاماً من ولادته، وبعد أن أصبح الإمام الحكيم مرجعاً في نطاق محدود، وأخذت أدرك الأمور بعد أن أصبح مرجعاً للمسلمين، ويعيش أكثر وقته من خلال الحركة العامة الاجتماعية، لا الحركة الخاصة الذاتية الفردية، التي تمثل البنية التحتية للحركة العامة، ومع ذلك كنت ألمس وأشاهد أحياناً، واسمع عن قرب أحيانا أخرى، ما يؤشر لتلك السيرة، ولكن في زحمة الصور الكبيرة، والأضواء الساطعة التي كانت تقترن بها حياته الواسعة والمزدحمة..(**المؤلف**).

(2) تنتمي أسرة آل الحكيم إلى السلالة الطباطبائية المعروفة الواسعة الانتشار في العالم الإسلامي، حيث توجد لها فروع وعوائل في كل من إيران، واليمن، والعراق، والمغرب. ويعرف منها في إيران السادة المشهورون بالقاضي، والسادة القميّون، والمدرسيون منهم في مدينة يزد، وغيرهم من الأسر العلمية المعروفة. أما في العراق، فيعرف منهم السادة آل الحكيم، والسادة آل بحر العلوم، وهم جميعاً يلتقون في جد واحد بعد ثمانية أظهر، وهو السيد مراد الذي يلتقي عنده كذلك السادة المعروفون بالسادة الحجة صاحب البرهان، وهم من السادة الطباطبائية. هذه العائلة – على ما يذكر في تأريخها – كانت تسكن سابقاً في إيران في الوقت الذي لم تكن هناك حدود⬅

➡بين العالم الإسلامي، ثم انتقلت إلى العراق قبل أربعمائة سنة، أوائل القرن الحادي عشر الهجري، فاستقرت في العراق، وكانت تقوم بعملين مهمين هما:

الأول: خدمة مرقد الإمام علي عليه السلام.

الثاني: الأعمال العلمية الحوزوية، فمن علمائها البارزين آية الله العظمى السيد مهدي الحكيم، وهو والد الإمام السيد محسن الحكيم ومن المعاصرين للمرحوم السيد محمد سعيد الحبوبي، ولآية الله العظمى الشيخ موسى شرارة، من العلماء اللبنانيين، ومن طلاب المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي المعروف.

هاجر السيد مهدي الحكيم إلى لبنان بطلب من أبناء الشعب اللبناني، ليكون خليفة لزميله وصديقه آية الله العظمى الشيخ موسى شرارة.

وبعد هجرته إلى لبنان بثلاث سنوات توفاه الله تعالى، ودفن هناك، وبقي ولده السيد محسن الحكيم، وأخوه الأكبر السيد محمود الحكيم في العراق.

وفي عهد الإمام الحكيم تحولت هذه العائلة إلى عائلة علمية كبيرة، فكانت أكثر الأسر عدداً من العلماء والمجتهدين، ممّا أوجد تحولا كبيراً في وضع الحوزة العلمية العراقية العربية؛ إذ كانت تضم هذه الأسرة – على الأقل – عشرة من المجتهدين الكبار في زمن واحد. فكان جدي السيد مهدي الحكيم من كبار العلماء في النجف الأشرف، ومن طلاب المرحوم الفقيه المعروف الشيخ محمد حسين الكاظمي، وفي الوقت نفسه من طلاب العالم المعروف الشيخ حسين قلي الهمداني، وتربى على مدرسته في العرفان. وكانت له عدة مؤلفات فقهية، منها كتاب مختصر في (الإقبال) للسيد ابن طاوس، مضافاً إلى مجموعة كتب فقهية لازالت مخطوطة لم تطبع. وقد أشار إلى بعض أحواله، وترجمته، المرحوم الشيخ محمد حرز الدين الذي ألف كتاب (معارف الرجال)، وكان زميلاً وقريناً له في البحث، وهاجر إلى لبنان، وهناك اقترن بزوجة لبنانية هي أخت جدي لأمي المرحوم الحاج حسن بزي، ابن المرحوم الحاج سليمان بزي من العلماء والوجهاء المعروفين في منطقة (بنت جبيل) التي تعتبر المركز الرئيس في جنوب لبنان، وهي مجاورة لفلسطين. وقد توفي فيها السيد مهدي الحكيم، ودفن فيها، ومرقده معروف هناك إلى جوار المسجد الرئيس في منطقة (بنت جبيل)، ويزار من⬅

➡قبل المؤمنين. ورزق من الزوجة الثانية بولد وبنت، الولد هو عمي المرحوم السيد هاشم الحكيم، وله أولاد في لبنان وفي العراق وأما البنت فهي جدة العلامة السيد محمد حسين فضل الله، فأمه بنت عمتي، وفي الوقت نفسه هي خالتي؛ لأن والدي الإمام الحكيم لما تعرض لمرض في المعدة نصحه الأطباء بالسفر إلى لبنان، وهناك تزوج من والدتي، فكان هذا زواج والدي الإمام الحكيم الثاني بهذه المناسبة.

ولرفع الالتباس، فإن والدتي هي من بنت أخرى غير بنت عمتي. أما عن المرحوم عمي السيد محمود الحكيم، فهو يكبر والدي بعشرة سنوات، وعندما توفي والده السيد مهدي، كان عمره ست عشرة سنة، وكان عمر والدي آنذاك ست سنوات، فقام بتربية والدي ورعاية والدته، وهي من أحفاد المرحوم العلامة الشيخ عبد النبي الكاظمي، من علماء الكاظمية الكبار، وهو مؤلف كتاب «تكملة الرجال» الذي طبع من قبل مكتب آية الله العظمى الإمام الحكيم في النجف الأشرف.

كان السيد محمود الحكيم من المجتهدين في النجف، ومن المعروفين أيام مرجعية المرحوم السيد أبي الحسن الإصفهاني، الذي كان له دور كبير في إحياء البلاد التي كانت قد بعدت عن الثقافة والمعرفة الإسلامية، من قبيل ما حصل في بعض المناطق الكردية أو التركية في العراق؛ إذ كانت هذه المناطق بعيدة عن تردد العلماء والمجتهدين، والحوزة العلمية بشكل عام.

لقد كلّف السيد أبو الحسن الإصفهاني عمي السيد محمود الحكيم أن يذهب إلى خانقين، ويستقر هناك؛ لأجل إحياء هذه المنطقة من الناحيتين العلمية والدينية، وبالفعل قام السيد محمود الحكيم بهذه المهمة، ونجح في التأسيس من الناحيتين فيها.

بعد ذلك انتقل إلى منطقة (الجلعة) المعروفة، وهي: منطقة عشائرية مركزية ومهمة، وفيها مركز عشائر الفرات الأوسط. وبعدها عاد إلى مدينة النجف الأشرف؛ ليمارس دراسته العلمية فيها.

للسيد محمود الحكيم مجموعة من الأولاد، ومن لبس العمامة منهم ونشط بالدراسات العلمية هو آية الله السيد مجيد الحكيم، الذي كان من المجتهدين والمدرسين البارزين في النجف الأشرف، وقد تخرج على يديه حوالي ٣٠٠٠ طالب. واختتمت حياة السيد⬅

➡مجيد الحكيم بالاستشهاد على يد النظام البعثي الكافر في العراق، في الحوادث الأخيرة التي جرت على عائلة الإمام الحكيم.

أما المرحوم عمي السيد هاشم الحكيم، فقد استقر مع بعض أولاده في لبنان وولده الأكبر السيد علي الحكيم هو أحد الخطباء الأجلاء المعروفين هناك، ويدير الشؤون الدينية في منطقة (بنت جبيل)، أما بقية أفراد الأسرة، فمن الطبقة المتقدمة على الإمام الحكيم كان المرحوم السيد أحمد الحكيم – وهو زوج الأخت الكبرى للإمام الحكيم – من العلماء المعروفين والمقدسين، وله مريدون كثيرون في مدينة بغداد.

وكذلك المرحوم السيد باقر الحكيم من طبقة السيد مهدي الحكيم، كان من العلماء المبلغين في منطقة الكوت بالعراق.

المرحوم السيد أحمد الحكيم له ولد، هو السيد محمد علي الحكيم وهو من المجتهدين، ويبلغ الآن من العمر (٨٨) عاماً، ويقيم حتى الآن صلاة الجماعة في مسجد الهندي، الذي كان الإمام الحكيم يقيم فيه صلاة الجماعة. والسيد محمد علي الحكيم هو صهر السيد الإمام الحكيم، حيث تزوج من البنت الوسطى لزوجة والدي الأولى، وأولدها خمسة من الأولاد، كلهم من العلماء، أبرزهم آية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم الذي هو الآن من المراجع في مدينة النجف الأشرف. وله رسالة عملية، ودورة كاملة في الأصول، وله بعض الكتب في الفقه قيد الطبع.

لقد تعرض السيد محمد سعيد الحكيم للاعتقال، والتعذيب لاكثرمن سبع سنوات، ثم أطلق سراحه وبدأ مسيرته، وهكذا فإن إخوته كانوا قد سجنوا معه جميعا، السيد محمد حسن الحكيم استشهد في السجن، وحجة الإسلام السيد عبد الرزاق الحكيم توفاه الله تعالى بعد خروجه من السجن، وكان للسيد عبد الرزاق الحكيم مؤلفات قيمة، منها كتاب في علم الهيئة. ومن علماء الأسرة المعروفين بالفضل والاجتهاد، العلامة السيد محمد تقي الحكيم الذي طبع له الكتاب المشهور في كل أنحاء العالم الإسلامي تحت عنوان «أصول الفقه المقارن» وقد تعرض للسجن والاعتقال لفترة محدودة.

أما العلامة السيد محمد حسين الحكيم، فقد كان من المجتهدين، وتعرض للسجن والنفي إلى خارج العراق، وجاء إلى إيران حيث أرسله النظام العفلقي، وهو يحمل رسالة⬅

الله السيد مهدي الحكيم ﭬ، أحد الأعلام في الحوزة العلمية العربية في النجف الاشرف.

كما كان زوج أخته العلامة السيد أحمد الحكيم ﭬاحد الأعلام العلمية في الأوساط الاجتماعية العراقية، خصوصاً في أوساط الشيعة المؤمنين في بغداد (الكرخ).

واشتراك أسرته - الحكيم - مع عدد الأسر العلمية المعروفة، بالآباء

➡لي، ومكث في إيران حتى توفاه الله تعالى، ودفن في مرقد السيدة المعصومة بمدينة قم المقدسة.

أما أولاده، فقد قام النظام المجرم في بغداد بقتل ثلاثة منهم، استشهدوا في السجن تحت التعذيب انتقاماً وحقداً، منهم السيد محمد رضا الحكيم، الأديب الفاضل والمدرِّس في كلية الفقه في النجف.

ومن أولاد الإمام الحكيم المعروفين، بعد اية الله العظمى السيد يوسف الحكيم، آية الله السيد عبد الصاحب الحكيم، وهو من كبار المجتهدين، ومدرس الخارج في مدينة النجف الأشرف، وله مؤلفات في الأصول والفقه، استشهد في الأحداث الأخيرة في العراق. ثم الدكتور العلامة السيد عبد الهادي الحكيم، الذي جمع بين الدراسات الحوزوية والأكاديمية الجامعية، له عدة مؤلفات، واستشهد مع بقية الشهداء.

السيد محمد صادق الحكيم، له اهتمامات في قضايا الأنساب، وبحوث لم تطبع، توفي وله ذرية من الفضلاء والعلماء، منهم السيد محمد حسين الحكيم والسيد محمد جعفر الحكيم والسيد محمد باقر الحكيم، وهم من المدرسين في مدينة النجف، ويقومون بالأعمال العلمية. ومن طبقة العلماء المتقدمة نسبياً العلامة السيد محمد سعيد الحكيم، وهو غير آية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم، وهو والد آية الله المرحوم السيد محمد حسين الحكيم، ووالد آية الله السيد محمد تقي الحكيم، وهو من الوجهاء وصاحب ديوان، (برّاني) – حسب الاصطلاح – وله مركز كبير في العشائر العراقية، ويقوم بأعمال الإصلاح في حلّ نزاعات العشائر..(**المؤلف**).

القريبين الذين لا يتجاوزون عن الخمسة، كآل بحر العلوم، وآل الحجة، وآل البروجردي، وغيرهم.

وقد اهتمت وعرفت بعد عميدها وجدها الأول السيد أمير علي الطباطبائي الحكيم، بسدانة الروضة الحيدرية المطهرة، بخلاف الأُسر العلمية السابقة، التي اهتمت بالدراسات العلمية الدينية، ولعل بداية هذا الاهتمام العلمي الواضح في هذه الأسرة الشريفة، هو تصدي عميدها المجتهد الكبير المقدس العارف السيد مهدي الطباطبائي الحكيم والد سيدنا الإمام الحكيم قدس سره، حيث يمكن أن يكون لأخواله الأفاضل من آل الأعسم، ومصاهرته للشيخ جعفر الكاظمي أثر مهم في هذا التوجه[1].

لقد ولد الإمام في شوال عام ١٣٠٦ هـ، ولكنه بدأ حياته يتيماً، حيث فارقه والده وهو في السنتين الأوليتين من عمره، وتوفي عنه والده في بلاد الهجرة، بل في(جبل عامل) سنة ١٣١٢ هـ، وعمره ست سنوات، وتركه مع والدته وأخيه الأكبر آية الله السيد محمود الحكيم قدس سره الذي كان يكبره بعشرة سنوات، لتتولى الأم والأخ الكبير تربيته ورعايته، في ظروف معاشية وعائلية صعبة؛ ولذا بدأ حياته إنسانا مجاهداً لنفسه، وفي مجتمعه، وكان عليه أن يختار نهجه، ويشق طريقه معتمداً على الله تعالى، وعلى النفس، والإرادة، وحسن الاختيار.

ويبدو أن الأجواء الروحية والمعنوية التي خلفها والده وراءه، وكذلك

---

(1) معارف الرجال: ٢ : ٢٧

أصحابه، كان لهم دور في هذه الرؤية، والتصميم، والاختيار، إذا لاحظنا بدقة طبيعة المنهج العلمي والسلوك الأخلاقي والعلاقات الاجتماعية التي كانت تحيط الإمام الحكيم قدس سره في بداية شبابه.

فوالده أول مبادر للتفرغ للعلم في العائلة بعد فترة من الزمن؛ ولذا أصبح أولاده الثلاثة الصغار الذين تركهم من أهل العلم، والتقوى، والصلاح، وكانوا في الوقت نفسه يتميزون بالسلوك الأخلاقي الرفيع، والدرجة العالية من الطهارة والنقاء والتقوى، وكذلك نلاحظ أن أصحاب أبيه - أمثال آية الله السيد محمد سعيد الحبوبي، والتقي الورع الفاضل الشيخ محمد باقر القاموسي قدس سره - كان لهم دور مؤثر في شخصيته (في رعايته أو العلاقة معهم) خصوصاً في الجانب المتأثر بمدرسه الأخلاقي آية الله الشيخ ملا حسين علي قلي الهمداني قدس سره.

وسوف نلاحظ بوضوح - إنشاء الله - الأثر الأخلاقي والعرفاني لهذا المنهج على شخصية الإمام الحكيم قدس سره ومجموعة من أسرته التي تطورت في عهده علمياً وأخلاقيا واجتماعياً بشكل واسع، وأصبحت تضم عدداً كبيراً نسبياً من المجتهدين والفضلاء والطلبة.

لقد كان لليتم، والفقر، والمعرفة الأخلاقية، أثرها العميق في شخصية الإمام الحكيم طيلة حياته، من التوكل على الله تعالى، والثقة بالنفس، والاعتماد عليها، والاستقلال في التفكير والتربية، وبناء الأجهزة والمؤسسات، والممارسة الشخصية للأعمال.

وكذلك في العيش البسيط المتواضع المهذب من التشريفات، والاقتصاد في الانفاق الشخصي والعام، والاهتمام بالفقراء والضعفاء في خططه

وممارساته الشخصية، سواء في الاوساط العامة أم الاوساط العلمية، وكذلك في مجمل الحركة الاجتماعية، والثقافية.

و- أيضاً - في المنهج والسلوك الاخلاقي، الذي كان يلتزم في جميع أحواله، وأقواله، وافعاله، وتصرفاته، وآثاره.

لقد كان رضوان الله عليه أحد مصاديق سورة (الضحى) المباركة[1] التي تحدد المعالم الرئيسية لشخصية الرسول الأعظم ﷺ في منشئها، ومولدها، والنعم الالهية التي تفضل الله سبحانه وتعالى حينما تتحدث السورة ﴿**...أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى...**﴾[2] إنها اليتم والمعرفة بالله تعالى، والفقر، يرسم بها القرآن الكريم معالم التحول في شخصية الإنسان الكامل.

ونجد معالم ذلك - أيضاً - وبشكل متناسب في شخصية هذا الفرد

---

(1) لم يكن يخطر ببالي عندما ذكرت المعالم الثلاثة في المنشأ والمولد هذه السورة المباركة، ولكن عندما بدأت محاولة التأمل في شخصية الإمام الحكيم على أساس هذه المعالم وأهمية هذه الأمور في تحديد معالم الشخصية، ومن خلال ربط المشاهدات والمحسوسات لسلوكه بهذه النقاط جاءت هذه السورة الشريفة إلى ذهني، فوراً واعترتني حالة وجدانية خاصة مع إحساس بأن هذه نفحة إلهية في فهم هذه الشخصية؛ فقمت وصليت وحمدت الله ودعوته وطلبت منه الخيرة والعافية لي والمغفرة لجميع هؤلاء الصالحين، والتوسل بالله تعالى والقسم عليه بمحمد ﷺ وأهل بيته الطاهرين أن يلهمني الصواب والحق فيما أكتب، وأقول، وان ينفع بما أكتب من يقرأ، ويستمع الحديث فيتبع أحسنه..(**المؤلف**).

(2) الضحى: ٦-٨

من الذرية الصالحة لرسول الله ﷺ وفي عالم عارف من علماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام وأمة محمد بن عبد الله ﷺ.

أثر اليتم في شخصية الإمام الحكيم

قد لايكون من الصدفة والاتفاق، ان الأنبياء من أولي العزم كانوا يتصفون باليتم، كما نلاحظ ذلك في إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد[1] (صلى الله عليهم أجمعين).

بل قد يكون اليتم سراً من الأسرار الإلهية، التي تمنح شخصية النبي عنصراً نفسياً تكاملياً، تجعله قادراً على الاعتماد على النفس، وتحمّل المسؤوليات الضخمة التي لابد له من القيام بها.

والإمام الحكيم يبدو أن اليتم كان له دور مهم في تكوين الجانب النفسي والذاتي في شخصيته، حيث فقد أباه واقعياً في أول عمره؛ بسبب هجرته البعيدة، ثم وفاته بعد ذلك وعمره ست سنوات، ولم يرَ أباه إلا في اشهر قليلة، كانت هي اشهر رجوعه إلى العراق أثناء هجرته.

ويمكن أن نلاحظ المعالم التالية في شخصية هذا اليتيم، وسلوكه

---

(1) بالنسبة إلى محمد ﷺ والى عيسى القضية واحدة، أما بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام فالظاهر من القرآن الكريم بعد الجمع بين الآيات القرآنية أن أباه المذكور في القران كان عمه ومربيه؛ لأنه قد فقد والده في بداية حياته، وأما موسى عليه السلام فلا يشير القران إلى وجود أبيه، وعلى أي حال فهو عاش في كفالة فرعون بعيداً، وهذا الأمر محتمل بالنسبة إلى نوح عليه السلام، وان لم يصرح به القران الكريم..**(المؤلف)**.

والتي تعبر عن الاعتماد على النفس بعد الله تعالى:

الأول: الحرص على القيام بأعماله بنفسه

كان الإمام الحكيم يحرص على القيام بأعماله بنفسه إلى أقصى حد ممكن، وحتى في التفاصيل الصغيرة، حيث كان هذا الاتجاه الروحي ملازماً لشخصيته إلى آخر أيام حياته.

فقد كان يقوم بالبحث، والتدريس، والمراجعة، والكتابة، والتصحيح لكتاباته، دون أن يكلف أحداً من طلابه، أو ذويه حتى في أيام شيخوخته ومرجعيته.

وقد كتب كل هذه المؤلفات الكثيرة، دون أن يكلف أحداً باستنساخها أو بمساعدته.

وعندما اتسعت دائرة الأعمال؛ بسبب المرجعية، كان يقوم بعض مساعديه في إنجاز بعض الأعمال ذات العلاقة بمرجعيته، ولكن كان يقوم هو بنفسه - أيضاً - ببعضها، بالقدر الذي يتسع له وقته، وفي جميع هذه المجالات دون أن يتخلى عن بعضها.

كما كان - أيضا - يحاول أن يعتمد على نفسه في قضاء حاجاته الخاصة، ويتجنب إلى أقصى حد تكليف الآخرين، أو الطلب منهم في قضاء هذه الحاجات، وحتى في زمن الشيخوخة، لم يتخل عن هذا الاتجاه النفسي، حيث كنت ألاحظ - مثلاً - انه كان يعد بنفسه كأس الليمون الحامض، الذي وصفه الأطباء له، كشراب مفيد.

كما انه كان يبادر بنفسه لشرب الماء، ونحن جالسون حوله، دون أن يطلب منا تحضير الماء، وهو شيخ تجاوز السبعين.

وكان يعد بنفسه فراشه، وأدوات الكتابة، وأقلام القصب، أو ملء القلم بالحبر، او غير ذلك من الأمور البسيطة والدقيقة، دون أن يكلف أحدا بذلك، حتى خدمه، أو أولاده.

وفي هذا الاتجاه كنت ألاحظ حرصه - والى أواخر أيامه - على أن يباشر بنفسه دفع بعض مساعدات الفقراء والمحتاجين.

وكذلك المساعدات المنظمة التي كان يقدمها بنفسه للطلبة الضعفاء، وعلى شكل رواتب، أو في مقاطع زمنية، أو عن طريق مساعديه، وقد كان يقوم بهذه الأعمال بنفسه - أيضا - تجاه عامة الفقراء، حيث كان يحتفظ في جيوبه المتعددة بكمية من المال دائماً مقسمة عليها، ويقدم منها المساعدات.

كما كان - أيضا - يباشر بنفسه الاستفسار، والسؤال عن الشؤون الشخصية للأشخاص الذين يلتقون به، من طلاب العلوم الدينية، أو الشخصيات، أو الكسبة.

كما كان يعطي وقتاً مهماً للقاء، والاتصال بالناس بشكل مباشر، حيث كانت له أوقات ثلاثة تمتد لعدة ساعات في الصباح، والعصر، والليل، بالإضافة إلى التزامه بصلاة الجماعة، والحضور في المجالس العامة، كالمجالس الحسينية، ومجالس الفاتحة، وغيرها من المناسبات، ثم تقلص هذا الوقت مع كثرة الأعمال والمسؤوليات، وعندما تقدم به السن بقي ملتزماً بوقتين إلى أواخر أيام حياته، وحتى في فترة احتجابه في منزله بالكوفة[1].

---

(1) لقد أحتجب الإمام الحكيم قدس سره بمنزله في الكوفة في السنة الأخيرة من حياته، بسبب الاعتداء التي قامت به السلطة العفلقية الظالمة عليه، وعلى الحوزة العلمية، والمؤمنين، والإسلام بشكل عام..**(المؤلف)**.

كما كان يحرص على هذا الاتصال عن طريق الإجابة المباشرة على الرسائل الشخصية، أو رسائل التهنئة في الأعياد الإسلامية، أو إرسال المساعدات المباشرة للمرضى الراقدين لمدة طويلة في المستشفيات، أو السجناء.

بالإضافة إلى ذلك كله، كان يقوم بشكل مباشر بتصفية حسابات الذمم في الحقوق الشرعية، أو تصفية وصايا الأموات، والاستماع المطول لمشكلات الورثة والأحياء، ومحاولة معالجتها اجتماعياً وشرعياً، حيث استمر على هذه الطريقة إلى أواخر عمره وحياته، بالقدر الذي يستوعبه وقته الشريف، وكان يحيل ما تبقى منها على أولاده الصلبيين، أمثال آية الله السيد يوسف الحكيم قدس سره وحجج الإسلام السيد محمد رضا، والسيد محمد مهدي، والسيد محمد كاظم الحكيم (رحمهم الله)،. وكنت أباشر جانباً من ذلك، كل هذا كان تعبيراً عن اهتمامه الخاص بهذا الجانب من حياة الناس.

وهذا النوع من التعامل مع الناس، بالإضافة إلى ما يعبر عنه من اتجاه نفسي، يرتبط بقضية الاعتماد على النفس كان له - أيضاً - تأثير روحي ونفسي عميق في نفوس الأوساط التي كانت تتفاعل معه، أو الأشخاص الذين يرتبطون به، حيث يحسون بالارتباط المباشر، والعواطف الحارة اللطيفة التي كان يعبر عنها هذا السلوك، ويتحول في نفوسهم إلى حب عميق له، وتأثر، وتلقي تربوي ومعنوي.

الثاني: قوة الإرادة

لقد كان الإمام الحكيم يتصف بقوة الإرادة، والقدرة الفائقة في السيطرة على عواطفه، وأحاسيسه، وأعصابه، ما يجسد في جانب من

هذه الصفة: الاعتماد على النفس، وفي جانب آخر: الدرجة العالية من جهد النفس، وعنصر التقوى.

وقوة الإرادة عندما تكون في السيطرة والضبط للنفس، واتجاهاتهم أمام ما هو محرم وممنوع شرعاً، تكاد أن تكون أمراً طبيعياً في الإنسان الصالح المتقي، فضلاً عن الصالحين من المستوى الخاص، كالإمام الحكيم قدس سره ولكن عندما تكون قوة الإرادة في السيطرة على النفس في الأمور المباحة، من أجل الوصول إلى المستوى الأكمل في حركة النفس الإنسانية، وكتعبير عن المعاني، والمثل، والكمالات الإلهية، تصبح قوة الإرادة ذات مضمون آخر في شخصية الإنسان.

وبهذا الصدد أشير إلى بعض الأمثلة والنماذج ذات الأبعاد المختلفة، التي يمكن بمجموعها التعبير عن هذه الحقيقة والصفة في شخصيته[١].

١. كان الإمام الحكيم قد أبتلاه الله بمجموعة من الأمراض المزمنة كأمراض المعدة، والمجاري البولية، والقلب، وسرعة الإصابة بالزكام والبرد، والتعرق الشديد؛ لأدنى جهد بدني، وقد لازمه فترة طويلة من الزمن ومتفاوتة، الأمر الذي كان يفرض عليه الالتزام بتناول بعض الأدوية، والنظام الخاص في تناول الطعام والشراب أو الرياضة البدنية كالمشي.

وقد كان هذا الأمر ميداناً لامتحان إرادته، حيث كان يتناول - أحياناً - بعض الأدوية والطعام، لعدة سنوات بشكل منظم ودقيق من حيث

---

(1) هذه النماذج، هي مشاهدات قريبة عشتها شخصياً، وأتذكرها، والى جانبها العشرات من الأمثلة في سلوكه، وشخصيته مما عرفه الآخرون طيلة حياته الصعبة، أو عرفتها مما لا أذكره، أو لا مجال لذكره وتفصيله..(**المؤلف**).

الوقت والكم.

كما كان يلتزم تناول بعض الأطعمة بشكل خاص لعدة سنوات، وبشكل مكرر، وغير محبب لنفسه، حتى أنه في بعض الحالات النادرة له في الحديث عن هذا الأمر قال: انه يتناول الطعام دون أي رغبة فيه، كما يستعمل الدواء، كما كان يلتزم بالشيء في أوقات محددة، لمدة سنوات عديدة دون أن يتخلف عن ذلك إلا لأغراض مرضية قاهرة، وبشكل يثير الدهشة والغرابة، بالرغم من كثرة أشغاله البدنية والفكرية، وضعف مزاجه بسب المرض، وتقدم السن.

كل ذلك فضلاً عن التزامه الدائم منذ صغره ببعض المستحبات الشرعية، والتي لايكاد يتخلف عنها، كالتزامه بصلاة الليل، والتعقيب بعد الصلاة، والصلاة تحية للمساجد، كلما دخله للدرس أو للعبادة، واحترام المؤمنين، خصوصاً كبار السن، وأولاد الرسولﷺ، وطلبة العلوم الدينية، بالقيام لهم وتحيتهم..الخ.

٢. لقد كان الإمام الحكيم يشرب السكائر والشاي منذ بداية عمره، ثم ابتلي بنوبة قلبية - في سن السبعين - أثناء سفره إلى كربلاء لزيارة سيد الشهداءعليه السلام، وطلب منه الأطباء ترك شرب السكائر والشاي، فتركهما فوراً دون تردد أو تعليق، واستمر بذلك إلى نهاية عمره الشريف، حسب نصيحة الأطباء[1].

وكان يبدو هذا الأمر طبيعياً، حيث لم يكن يظهر من الإمام الحكيم قدس سره اثر

---

(1) لقد رخصه الأطباء فيما بعد بشرب الماء الحار الملوَّن بالشاي، فكان يشربه بشكل محدود..**(المؤلف)**.

لهذا الترك على وضعه النفسي، او تعامله مع هذا الأمر، فلا يتحدث عنه، ولايمنع شرب السكائر إلى جانبه، أو يظهر شيئاً من عدم الارتياح، وكأن هذا الترك أمر عادي، مع أنه كان يشتهي ذلك كما تركه لأول مرة، كما حدث عن ذلك بنفسه[1].

وكان هذا الأمر مثيراً للدهشة حقاً، لم يكن يبدو عليه طلية هذه الفترة شيئاً من ذلك.

٣. لقد اعتدى البعثيون المجرمون في العراق عندما جاءوا إلى السلطة، على الإمام الحكيم في عام (١٣٨٩ هـ المصادف ١٩٦٩م) أثناء زيارته لبغداد، حيث داهموا بيته بعد منتصف الليل بادعاء التفتيش، ومحاولة إلقاء القبض على ولده الحجة الشهيد محمد مهدي الحكيم (رحمه الله) وفتشوا البيت حتى غرفة الإمام الحكيم ﭬ، ومنذ ذلك الحين لم يرَ ولده، ولم يسمع بخبره، ومضت عدة شهور على هذه الحالة والإمام الحكيم محتجب بداره في الكوفة، احتجاجاً على هذا العدوان، وغيره من الأعمال الإجرامية بحق الإسلام، والحوزة العلمية والمؤمنين بشكل عام.

والشيء المدهش والعجيب أن الإمام ﭬلم يسال عن ولده ومصيره، حتى من أولاده وزوجته.

وكنا نظن في البداية: أن الإمام الحكيم على علم بخبره، حيث كان قد حفظه الله، وأنجاه من أيديهم بأعجوبة، وعناية ربانية خاصة، حتى تهيأت

---

(1) وذلك عندما سأله آية الله السيد جعفر المرعشي – وهو من محبي الإمام الحكــيم، السيد المرعشي يشرب السيكار إلى جانبه – فأجابه السيد الحكيم إني أشتهي ذلــك مثل الوقت الذي تركت فيه ذلك..(**المؤلف**).

للشهيد السيد محمد مهدي فرصة الخروج من العراق، فأخبر الإمام الحكيم بذلك، طلباً للدعاء له بالنجاة، وعندئذٍ تبين لنا أن الإمام الحكيم لم يكن يعلم شيئاً عن مصير ولده الحبيب، ومع ذلك كان قد احتسب الأمر عند الله تعالى، وسكت على البلاء احتساباً[1].

---

(1) في تلك الحادثة التي حصلت للسيد مهدي، اختفى السيد مهدي بعد الحادثة بلا فاصل، وقامت أجهزة النظام المجرم بتفتيش بيت السيد الحكيم للقبض على السيد مهدي؛ لأنهم كانوا يتصورون وجوده في البيت، بل كانوا متيقنين من ذلك. بقي السيد مهدي متخفياً مدة ثلاثة أشهر، وبعدها خرج من العراق، وطيلة هذه الفترة كنتُ ملازماً للسيد الحكيم في داره في الكوفة، ومع حبه للسيد مهدي، واعتقاده بأنه مظلوم في هذه القضية، إلاّ أنه لم يسأل عنه ولو مرة واحدة، حتى أنه لم يعرف هل أنه قُبض عليه أم لا؟ وما هي ظروفه؟. وفي بعض المرات سألتُ الوالدة: هل سألها عن السيد مهدي – لأنه قد يخجل منّا –؟ فتبين أنه حتى الوالدة لم يسألها، كان يتعامل معنا كما يتعامل مع الأجانب، ويحتفظ بشخصيته، وأما في قلبه فلا أعلم ما يدور.وفي الليلة التي كان من المفروض أن يخرج فيها السيد مهدي من العراق، قلت له: في هذه الليلة سوف يخرج من العراق – لأجل أن يدعو له بالسلامة والنجاة – فقال: سأدعو له إن شاء الله...واكتفى بذلك.كنت أعتبر أن هذا شيء عجيب من إنسان متعلق بأولاده من ناحية، ويعلم أن القضية مهمة من ناحية أخرى، ومع ذلك لم يتحدث معنا بهذا الموضوع. ولعله كان يرى أنَّ عدم التحدث معنا بهذا الموضوع أفضل، أو أنه يوجد سبب آخر فإني لا أعلم. وهذا شيء مهم جداً أريد أن أقوله لكل العاملين في الحقل الإسلامي، خصوصاً الذين يُبتلون بقضايا متعددة: وهو أن يأخذوا ذلك قدوة في حياتهم، ولا ينبغي أن يكون عندهم حب إطلاع، فالقضايا التي تهمهم عملياً يحاولون أن يفتشوا عنها، ويعرفوا أسبابها، وأمّا التي لا علاقة لهم بها – من الناحية العملية – فليس من الضروري التفتيش عنها؛ لأنه قد يؤدي إلى كوارث – أحيانا –، ولعل هذه الطريقة هي التي مكنت السيد مهدي من الخروج، ومكنتني من ذلك فيما بعد..(**المؤلف**).

وقد اقترن هذا الحادث بأمر آخر يشبهه من حيث الدلالة على هذه الإرادة، وهو أني لازمت الإمام الحكيم ﴿قدس سره﴾ في احتجابه أربعة أشهر تقريباً، دون أن أخرج من البيت؛ وذلك لأقوم بدور الرعاية له والتسلية، وإنجاز ما يمكنني إنجازه من عمل بالقرب منه، ثم بعد هذه المدة عرض لي عمل لي مهم في بغداد[1]، رأيت من الواجب السفر إليها لإنجازه فاستأذنته، فأذن لي بذلك.

ثم أخبرتني السيدة الوالدة رحمها الله تعالى، بما أثار إعجابي بإرادته وصبره، وهو أن الإمام الحكيم ﴿قدس سره﴾ أظهر استغرابه من قضية السفر المفاجئ، حيث كان يظن ملازمتي له بسبب احترازي من التعرض للاعتقال، حيث كنت أشارك الشهيد السيد محمد مهدي، وجماعته من أصحاب الإمام الحكيم بالفعاليات السياسية المهمة ذات العلاقة بالمرجعية، ولكنه انكشف له من خلال سفري المفاجئ بأني لست خائفاً من هذا الأمر.

والعجيب في الأمر أن الإمام الحكيم لم يصدر منه طيلة الفترة السابقة، ولا بعدها، أي سؤال أو حديث عن الأخطار المحتملة، التي يمكن أن أتعرض إليها، مع أنها كانت تهمة إلى درجة كبيرة بشكل خاص.

---

(1) كان العمل يرتبط بترتيب الوضع الدراسي لكلية أصول الدين، التي كان قد تركها عميدها العلامة السيد مرتضى العسكري فجأة – بعد إحساسه بالخطر –؛ بسبب الهجوم العدواني على الإمام الحكيم، دون أن تكون له فرصة لترتيب أوضاع الكلية، وكانت الكلية في خطر المصادرة؛ لأنها تعتبر من المؤسسات الإسلامية المهمة في ذلك الوقت، وقد صادرها البعثيون بعد ذلك بست سنوات..(**المؤلف**).

ولعل هذا الضبط للمشاعر في هذا المورد وغيره من الموارد الكثيرة التي استمرت لمدة سنة؛ كان سبباً لإصابته بالداء الذي توفاه الله فيه، وهي حالة تشبه القتل والاستشهاد في سبيل الله.

٤. لقد أبتلي الإمام الحكيم في آخر أيامه بمرض عجز الكلية عن أداء دورها في تصفية الدم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع نسبة (اليوريا) في الدم بصورة حادة، وهو يؤدي عادة إلى فقدان المريض للتشخيص الدقيق - كما يذكر الأطباء - وقد حدثني الدكتور أحمد ثامر، الذي كان رئيس صحة محافظة كربلاء لفترة طويلة، وكان صديقاً للعائلة، ويتردد على الإمام الحكيم عند زيارته لكربلاء: أنه عندما سمع بمرض الإمام الحكيم لم يحس بضرورة زيارته؛ لأنه كان يعرف آثار المرض، وبالتالي فسوف لايتمكن الإمام الحكيم من تشخيصه عند زيارته، ولكنه عندما سمع بأن الإمام الحكيم سوف يسافر إلى لندن، وكان يظن بأن هذا السفر سوف يكون نهاية عمره الشريف، عزم على زيارته مودعاً له، يقول: وعندما دخلت عليه ﭭ بادرني بالعتاب على عدم الزيارة إلى ذلك الوقت، واخذ يتحدث بكل وعي وإدراك، فأصبت بالدهشة من ذلك، وعرفت أن هناك سراً في شخصيته، يتجاوز فيه هذه الأعراض الطبيعية للمرض.

وكان هذا الأمر - أيضاً - يثير دهشة الأطباء الحاذقين، أمثال الدكتور الأخصائي محمود ثامر[1] والدكتور الجراح كاظم شبر، وغيرهما ممن كان

(1) الدكتور محمود ثامر هو أخ الدكتور أحمد ثامر سالف الذكر.

يتردد على الإمام الحكيم، حيث كانوا يندهشون من قوة الإرادة، والسيطرة على المشاعر، والعواطف، حتى أن كاظم شبر، ومحمود ثامر، ذكرا بأنهما لم يريا الإمام الحكيم يفقد شيئاً من إرادته، حتى على مستوى الآداب العامة، والمجاملة الراقية، مع أن محمود ثامر كان يقول: إن نسبتنا إليه نسبة أولاده، ونحن نشاهد من بعض المرضى الذين يصابون بمثل أعراضه التي تسبب آلاماً هائلة[١]، مختلف الانفعالات، والكلام القاسي أحياناً، مع أن الإمام الحكيم يعاملنا بأدب رفيع، وقد أندهش الدكتور شبر في الثواني الأخيرة من حياة الإمام الحكيم، عندما دخل عليه يحتضر، فواجهه الإمام الحكيم بالشكر، وقال له: ((زاحمناك يا دكتور))[٢].

---

(1) كان ذلك بعد تفشي داء السرطان إلى الجهاز الهضمي، حيث تبين أن العجز في الكلية كان بسبب سرطان المثانة..**(المؤلف)**.

(2) كان الدكتور محمود ثامر يباشر معالجة السيد بنفسه، فكان يقول لي: في أكثر من مرة كنت أعطي للسيد الدواء، وكان السيد لا يرتاح لبعض الأدوية، فكان يطلب تبديلها. فقلت له: إن كنت ترى أن هذه الأدوية مهمة لعلاجه، فنحن نتكلم معه بشأن أخذها.فقال: لا. أنا أرى أن السيد غير طبيعي في إحساسه، ولعله يعرف الأمور أكثر منّا. ثم ذكر تفسيراً لهذا، فقال: نحن ندخل المستشفيات، وفيها مرضى يعانون من نفس المرض المبتلى به السيد، وفي كثير من الأحيان نواجه حالة السب والشتم منهم، بالرغم من أننا ليس لنا علاقة بهم، وتجد عندهم حالة التأفف والضجر. وأمّا السيد فما دخلت عليه – بالرغم من الآلام التي كان يعانيها – إلا ويسألني عن أحوالي، ويعاملني بأدب، فإنسان مسيطر على وضعه النفسي والروحي لهذه الدرجة، لابد أن نأخذ بنظر الاعتبار – من الناحية الطبية – أحاسيسه وأوضاعه. ومن ناحية أخرى كان السيد يتميز – وأنا لاحظته طيلة حياته – بالمواظبة والمثابرة على التقيد بالتعليمات التي تعطى له، فعندما يقال له: لا تأكل الشيء الدسم – مثلا – يلتزم بذلك ويبقى⬅

لقد كنا نلاحظ هذا الصبر والإرادة القوية بوضوح، ولكن لم نكن ندرك عمقه مثل الأطباء الذين كانوا يعرفون طبيعة المرض، وآثاره، وآلامه، كما صرحوا بذلك.

وبهذا الصدد اذكر بعض الحوادث التي لها مدلولها الروحي والأخلاقي:

الأولى: إن بعض العلماء الموجهين من مدينة أصفهان، كان يسكن النجف، وكان قد سمع الآثار الطبيعية لمرض الإمام الحكيم، فزاره الوجيه التقي المعروف: الحاج ميرزا كلاه دوزان، وكان من كبار تجار أصفهان، ومن مقلدي الإمام الحكيم، ومن الأصدقاء المقربين، فحدثه عن هذه الأعراض، بطريقة دخل فيها الشك والريب في نفس الشخص

➥سنة أو أكثر لا يأكله، ولو قيل له: استمر على هذا الدواء، يستمر عليه ثلاث أو أربع سنوات وبالوقت المحدد. ويمكن أن نقدر الصعوبة في استمرار الإنسان على نمط واحد من الغذاء دون تغيير.يقول الدكتور محمود ثامر: إنه ربما كان السيد يرى في الدواء شيئاً، ولذلك يرفضه. ولاحظت في ساعة الاحتضار أنه أصيب بمرض القلب، وأستدعي له الدكتور كاظم شبر – وكان قريباً منّا – فأدركه قبل أن يتوفاه الله سبحانه، فدخل عليه وهو يحتضر، وهنا التفت السيد للدكتور وقال له: (زاحمناك) في هذه الساعة، وعندها دُهش الدكتور لهذه الحالة، وقام بواجبه إلا أن السيد الحكيم توفي. لقد كان السيد مسيطراً على أعصابه، وأذكر أنه لما كان في المستشفى في لندن – وكنت أحياناً بين يوم وآخر ملتزماً بخدمته في الليل، وبعدها يأتي أحد الأخوة الآخرين – كان–رضوان الله عليه– يسأل كثيراً عن وقت صلاة الصبح، وكان مسيطراً على وضعه، بحيث إنه كان يريد أن يصليها في أول وقتها، أو أنه يخاف أن يحين وقت الصلاة ويتوفاه الله سبحانه، وتكون عليه مسؤولية.

وعلى كل حال فقد كان مسيطراً على أعصابه ووضعه بحيث إنه كان يتابع حتى هذه الأمور، وكان يقول لنا: **كونوا حذرين ونبهين؛ لأن البعثيين معروفون بعدائهم لي، وقد يستفيدون من حالة المرض ويقتلونني بطريقة ما..(المؤلف).**

المذكور حول الاستمرار في التقليد للإمام الحكيم قدس سره.

فطلب الوجيه المذكور - بما له من صلة ودالة ومودة - عيادة الإمام الحكيم، ولم يكن يسمح بعيادته إلا للخاصة، وعدد محدود؛ لشدة مرضه، فأذن له، وعندئذٍ اخذ الحاج المذكور يسأل الإمام الحكيم عن مسائل فقهية، الأمر الذي أثار استغراب المرافقين، فأجابه الإمام الحكيم عن أسئلته، ولم يكتف بذلك حتى ذكر له أنه قد استفسر عن بعضها قبل سنتين في زيارته السابقة في منزله الكوفة، الأمر الذي جعل الحاج المذكور يتحامل بشدة على ذلك الشخص الذي حدثه بذلك الحديث، وأثار عنده الشكوك.

الثانية: ان مجموعة من التجار الأفريقيين من الخوجة الاثني عشرية، طلبوا الدخول على الإمام قبل وفاته بأقل من ساعة، وقد كان وضعه الصحي قد تدهور في ذلك اليوم، بحيث تم إبلاغي بالأمر - وكنت في النجف - فبادرت للذهاب إلى بغداد، وعند دخولهم عليه، تذكرهم الإمام الحكيم، وعرفهم بخصوصياتهم، الأمر الذي أثار دهشتهم، ودهشة الحاضرين.

الثالثة: إن الإمام الحكيم أجريت له عملية جراحية في لندن، استخدم فيها مادة (البنج) المخدر - بطبيعة الحال - وكان يحتاط من الناحية الفقهية في استمرار نفوذ الوكالات التي كان قد أعطاها لوكلائه الشرعيين، وغيرهم، عند غياب الوعي لدى الإنسان بالإغماء أو المخدر.

فكان من الإمام الحكيم قدس سره عند أول إستيقاضه من تأثير المخدر، أن

أعلن عن توكيله مرة أخرى لكل وكلائه المنصوبين من قبله، مع شدة الحال التي كان عليها.

لقد كان من العنايات الإلهية القدسية الخاصة بالإمام الحكيم، أن بقي مالكاً لوعيه وإدراكه ومشاعره، حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وهذا شيء نادر في الأشخاص الذين يتعرضون إلى مرض طويل، له هذه المضاعفات الجسيمة.

الثالث: تربية الأولاد والأبناء

لقد أنعم الله تعالى على الإمام الحكيم، فرزقه عشرة أولاد ذكور، وأربع إناث من زوجتيه، حيث ولدت زوجته الأولى التي كانت من أرحامه، ولدين ذكرين، هما آية الله السيد يوسف الحكيم ﵀، وحجة الإسلام السيد محمد رضا الحكيم، وثلاث إناث من العلويات الفاضلات: فاطمة، وزهراء، وبتول، وولدت له زوجته الثانية بنت التقي الزكي الحاج حسن بزي ثمانية أولاد ذكور، هم حجج الإسلام السيد محمد مهدي، والسيد محمد كاظم، و(كاتب المقال) محمد باقر، والسيد عبد الهادي، والسيد عبد الصاحب، والسيد علاء الدين، والسيد محمد حسين، والسيد عبد العزيز، وبنت واحدة: هي العلوية شريفة.

وقد أعطى الإمام الحكيم الكثير من وقته واهتمامه؛ لتربية ذريته وأهل بيته، في محاولة لتجسيد المسؤولية تجاه الأهل والأولاد في هذا العمل، بالرغم من أن ابتلاءه بتربية أكثر ذرته كان بعدما أشرف ﵀على سن الشيخوخة، وأصبح من مراجع الإسلام، الأمر الذي يجعله تحت ضغط

الاهتمامات بالقضايا العامة.

وكان هذا الموضوع من القضايا ذات الأهمية الخاصة في السيرة الذاتية للإمام الحكيم من ناحية، وفي عمله المرجعي العام من ناحية أخرى.

ولكن سوف نتناول هذا الموضوع من البعد الأول، حيث كان من الأبعاد الملفتة للنظر في الحوزة العلمية، ومما يغبط عليه الإمام الحكيم.

وبطبيعة الحال لا نريد - هنا - الترجمة أو الحديث عن شخصية هذه الذرية، فأن الحديث عنها مستقل، خصوصاً بعد الأحداث التي اقترنت باستشهاد أكثرهم، والمقامات العالية الروحية والاجتماعية، التي وصل إليها جلهم، أو بعضهم على الأقل.

وإنما نحاول الحديث عن القدر المرتبط بموضوع النفس وأثره في تربيته للذرية والأولاد، وفي الوقت نفسه يمكن أن نفهم نظرية التربية بشكل عام، ومنهجها عند الإمام الحكيم قدس سره.

معالم التربية عند الإمام الحكيم

لقد كان قدس سره في موضوع التربية يستهدف بشكل عام وإجمالي بناء الشخصية الإسلامية بأبعادها المختلفة، بحيث يكون نتاج هذه التربية ومحصلتها الإنسان الصالح، الذي يسير في طريق الكمالات الإلهية ذاتياً، ويتحمل مسؤولياته تجاه المجتمع الإنساني، ويكون قادراً عل الانسجام والحركة والتأثير، ضمن هذه الجماعة، سواء في دائرة الأسرة أم دائرة المجتمع الكبير.

ومع قطع النظر عن مدى استقبال موضوع التربية (الإنسان)، لهذه الأهداف فان مسؤولية المربي أن يهتم بهذه الأبعاد في هذا الموضوع،

ويبذل جهده من خلال المنهج الصحيح لتحقيقها.

وفي هذا المجال نلاحظ الأبعاد التالية، التي كانت تمثل رؤية الإمام الحكيم قدس سره في تربية أولاده.

أولاً: الاهتمام بشكل خاص بتربية أولاده على روح التقوى الحقيقية، من خلال التأكيد على عناصر (الصدق) و(الأمانة) و(الورع) عن محارم الله، والالتزام بالوظيفة الشرعية والحكم الإلهي، و(تحمل المسؤولية) تجاه الأمة، وقضاياها المصيرية، وتجاه الحوزة العلمية والطلبة، وقضايا الناس وحاجاتهم الحياتية.

وكان الإمام الحكيم يؤكد بشكل أساسي على ثلاث نقاط رئيسية في هذا المجال:

١. الإخلاص لله تعالى في العمل، وتوخي رضاه.

٢. المصلحة الإسلامية، وما يهدي إليه العقل والحكمة، وكان يقول بهذا الصدد: إذا عرضت عليك قضية، ورأى عقلك فيها المصلحة والفائدة، فاعرضها على دينك فإذا رضي بها فافعلها وإلا فاتركها. فهو يرى: أن أساس حركة سلوك الإنسان هو العقل والمصلحة. ولكن في أطار الشرع، والحدود الإلهية.

٣. رضا الناس وموقفهم من العمل ومراعاة مشاعرهم وعواطفهم، فالمباح قد يتحول الى محظور ومحرم عندما يكون في نظر الناس مرفوضاً أو منكراً.

٤. وقد كان لهذا الاهتمام الخاص بهذا البعد، أثره البالغ في الأوضاع الروحية، والاجتماعية، والممارسات العامة، والخاصة لأولاده، حيث كان هذا البعد معروفاً بشكل عام في الأوساط الدينية، العامة، والخاصة، التي

كانت ترتبط بمرجعية الإمام الحكيم، وحركته السياسية والاجتماعية، وتشهد به عامة هذه الأوساط، ويذكر كأحد الامتيازات، التي تفضل بها الله تعالى على هذا المرجع الكبير.

كما أن أكثر أولاد الإمام الحكيم، كانوا يتولون مختلف المسؤوليات العلمية، والدينية، والاجتماعية في مرجعيته، ويتصدون لأعمالها، وتحملوا الكثير من الآلام والمحن من أجل ذلك، وكانوا جميعاً في معرض الأخطار والآلام، بل تعرض أكثرهم للسجن والاعتقال والتعذيب والشهادة في سبيل الله تعالى.

وفي مجال التقوى والورع، أشير إلى بعض الأمثلة الجزئية في تربية الإمام الحكيم، ولكن لها دلالتها الكبيرة من خلال ملاحظتي الاجتماعية العامة:

١. كان ﷺ يحتفظ بالنقود، والأموال الجزئية، التي نحصل عليها في الأعياد والمناسبات، وهي وأن كانت جزئية ومحدودة جداً، ولكنه كان ملتزماً عندما تمضي عليها سنة، كان يخرج خمسها، وأحيانا يعوض هذا الخمس بعد إخراجه، احتياطاً للأطفال، ولتربيتهم على هذا الواجب الإسلامي المهم، وهو الخمس، وزرع وازع التقوى في هذا المجال في نفوسهم.

٢. عندما يبلغ أحدنا سن التكليف، كان يأمره بالتوبة، وإخراج رد المظالم عن الأموال التي كان قد أتلفها في صغره، أو تجاوز عليها.

٣. الأمر بالالتزام بالحجاب التام، والدقيق في المنزل بين نساء الأسرة، كزوجات الإخوة، وبنات الأعمام، والأخوال، والأقارب، الذين يسكنون في دار واحد، أو يترددون عليها، بصورة كانت تتميز به هذه العائلة من بين العوائل المتدينة، فضلاً عن غيرها.

٤. كان يحتاط في مزاحمة الزوار في العتبات المقدسة أو كفهم عن طريقه؛ لأنه كان يتورع عن إيذائهم شرعاً، ومن ناحية معنوية.

٥. كان يحذر من إحداث أي ضوضاء أو صوت عند القيام لصلاة الليل؛ لأنه كان يتورع عن إيقاظ النائمين، وهم أهله وأولاده.

٦. عندما تأتيه الأموال كان يضع كل نوع في ظرف خاص به؛ لئلا يختلط المال مع غيره، ويصنفها، حذراً من الاشتباه والالتباس، وهنا أنا لا اتكلم عن مسألة العبادات، وصلاة الليل، والدعاء؛ لأن هذه المسائل معروفة ومن شأن علمائنا العظام، لكنه كان على درجة عالية جداً من الاحتياط[١] في كل المسائل، حتى في القضايا المرتبطة في البيت.

ثانياً: التأكيد على طلب العلوم الدينية[٢]، والقيام بالوظائف الشرعية

---

(1) هذا النوع من الاحتياط يمثل بعداً مهماً جداً في شخصية العالم الرباني والمرجع، وإذا لم يكن الإنسان على درجة عالية من الاحتياط لا يمكن أن توكل إليه أعراض الناس، وأموالهم، ودماؤهم، وهمومهم، إذ ان العالم قائدٌ للناس، ليستودعونه أسرارهم، فإذا لم يكن على درجة عالية من الاحتياط، والأمانة، والتدين لا يمكن أن يكون موضع أسرارهم، ولا تكون مسؤولية الدماء في رقبته، وكذلك الأعراض والأموال..**(المؤلف)**.

(2) بالرغم من الظروف المعاشية الصعبة التي كانت تعانيها عائلة الإمام الحكيم، نجد أنه كان يرى: قضية الحوزة العلمية وخط المرجعية هي القضية الأصلية في وجوده وفي حياته، وهذا التصور انعكس على أولاده أيضاً، فبالرغم من أن الله أعطاه عشر أولاد، وكانت الظروف ميهّئة لهم أن يدخلوا الحياة الاجتماعية الواسعة العامة، خصوصاً بعد التطورات الحديثة التي حصلت في المجتمع، لكنهم سلكوا ذات المنهج الذي سلكه الإمام الحكيم. لقد كانت الثقافة في عهد ما قبل الإمام الحكيم تتمثل بالعلماء والخط المرجعي، ولم تكن هناك جامعات وكليات ومدارس، بل كانت المدارس عبارة عن مكاتب في المساجد، ويتخرج الشخص منها إلى الحوزة أو يتوجه إلى الكسب، ولم تكن هذه⬅

➡التنظيمات الحديثة موجودة في المجتمع العراقي، خصوصاً أتباع أهل البيت عليهم السلام لم يفكروا في يوم من الأيام – في أوائل عهد الإمام الحكيم وما قبله في العهد العثماني بسبب الاضطهاد الذي كانوا يعانونه – في الوظائف، بل حتى غيرهم، لم يفكروا في الحكم إلاّ بشكل نادر؛ لأنه كان محصوراً في طبقة معينة من الناس، بل كانوا يفكرون إما في العمل، أو الكسب – مثلا –، أو أن يكونوا من العلماء – حسب أوضاعهم الخاصة –.

وباعتبار أن الإمام الحكيم أيضاً من أسرة عراقية، كانت هناك ظروف بالنسبة إلى أولاده، بحيث يمكن لهم أن يدخلوا في هذا الباب الواسع المفتوح في المجتمع، سواء على مستوى الوظائف، أم الثقافة، كالجامعات مثلاً، أم على مستوى الكسب والتجارة، فكان يمكنهم طرق أي باب من هذه الأبواب. ويعرف الكثير ممن عاصروا الإمام الحكيم، أن الكثير من العوائل العلمية العريقة التي كانت في النجف، بعضها اختفى، وبعضها كاد ينقرض؛ بسبب ظروف الفقر والظروف السياسية، وانفتاح الأبواب المختلفة لهذه العوائل، بحيث أصبحت تختفي تدريجياً، ولم يبق منها إلا اسمها أو رجل أو رجلان. هذه الحقيقة كانت قائمة في النجف بالنسبة للعوائل العلمية العراقية.وأما العوائل العلمية غير العراقية فقد يتحول أبناؤها إلى طلبة، باعتبار أن الأبواب لم تكن مفتوحة لهم؛ بسبب القيود التي فرضتها قوى الاستكبار العالمي والاستعمار في بلادنا – بعد التجزئة – على أولئك الذين لا يحملون الجنسية، سواء في الوظيفة أم في الكسب أم في غير ذلك، وحتى هؤلاء تأثروا بالأوضاع الاجتماعية.

لكن مع ذلك نجد أنه من معالم التوجه للإمام الحكيم لجانب الحوزة العلمية والمرجعية، هو أنه حوّل كل أولاده إلى طلبة، وليس أولاده المتأخرين فقط حتى يقال: إن هذا حصل؛ لأنه أصبح مرفهاً، بل حتى أولاده المتقدمون، كالسيد يوسف – مثلاً – حوّله – أيضاً – إلى طالب، في وقت كان الإمام الحكيم يعيش تلك الظروف التي ذكرتها. وبعث كذلك ابنه الآخر إلى الحوزة، ثم الثالث والرابع...إلى آخر أولاده، ولم يكتف بذلك حتى توسع هذا الشيء في الأسرة كلها، بحيث إنه عندما اعتقلت أسرة الإمام الحكيم، كان يقال: إنه يوجد في هذه الأسرة خمسون⬅

في مجال التدريس، والتعليم والتبليغ الإسلامي، حيث نلاحظ أن جميع أولاده قدس سره قد تفرغوا لطلب العلوم الدينية ومارسوا التدريس والتبليغ، وبلغ بعضهم درجة الاجتهاد وأعلى مراتب التدريس في الحوزة العلمية.

كما أن هذا الاتجاه والاهتمام بتحصيل العلوم الدينية، تحول إلى طابع عام للأسرة كلها في زمن الإمام الحكيم، وبعده - بشهادة كل من عرف أبناءها - حتى أصبحت أسرة آل الحكيم من أكثر الأسر العلمية عدداً، وأبرزها علماً، وعليها كان يعتمد مدار التدريس إلى حدٍ كبير في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وقد شهدت فيه البيوت والأسر العلمية المعروفة، ضموراً ملحوظاً في هذا المجال، كاد أن يهدد وجود بعضها بالانقراض.

بل أن هذا الاتجاه في هذه الأسر، كانت له انعكاسات ايجابية على الأسر العلمية الأخرى المعروفة، حيث نشط فها هذا التوجه، وأخذت تنمو بهذا الاتجاه من خلال علاقتها، وارتباطها، بالإمام الحكيم، ومرجعيته الدينية، كما يلاحظ ذلك في الأسرتين العربيتين المباركتين

➡عالماً، مثلاً. كان سبب هذا التحول، هو التصور الذي يحمله الإمام الحكيم عن قضية الحوزة العلمية والمرجعية، وأنها الأصل في التحرك الإسلامي. وأثر ذلك أيضاً، حتى على بعض العوائل العلمية الموجودة في النجف الأشرف، التي كما قلت عنها: إنها كادت تنقرض، فتوجهت هذه العوائل إلى هذا الاتجاه، وأخذ أبناؤها يتحولون إلى طلبة. فهذا التوجه إنما خُلق نتيجة للأوضاع الاجتماعية، والسياسية، والدينية التي خلقتها مرجعية الإمام الحكيم. ولا أقصد من ذلك شخصه فحسب، وإنما كل الأوضاع التي خلقت في هذه المرحلة..**(المؤلف)**.

آل بحر العلوم، وآل الجواهري.

ثالثاً: بناء المكونات الأساسية للشخصية التي كان يراها في حرية التفكير، والاستقلال في الإرادة، والتوكل على الله تعالى، والاعتماد على النفس، وحسن الخلق في المعاشرة، والأدب الرفيع في التعامل مع الآخرين، والتواضع في العلاقات والنظرة الواقعية للأشياء، والاستعداد للتضحية، والفداء في أداء الواجب، أو خدمة الناس والمسلمين.

إن هذه العناصر هي أمور، وان كانت مشهورة إلى حدٍ كبير في أولاد وذرية الإمام الحكيم[1]، وأمكن أن نراها بوضوح، من خلال النقاط

---

(1) ومن الصفات التي كان يغذينا بها ويهتم بتربيتنا عليها في هذا المجال ما يلي:

أ) الصدق في الحديث والمعاملة

ففي كل مناسبة كان يؤكد على هذه القضية، حتى أني أتذكر أن هناك ظاهرة في بيتنا ألا وهي ظاهرة الصدق، ولم يكن معروف بيننا – ونحن أطفال – وجود أحد يكذب. والصدق بالنسبة له قضية مهمة، وعندما يرتكب الطفل مخالفة يعفو عنه؛ لأنه صدق في حديثه، وعندما يكون هناك من يكذب، فالعقاب على الكذب يكون أكبر من العقاب على الخطأ الذي ارتكبه. هكذا كان يربينا، وكنت أشعر أنه يصعب الكذب عليه أو على الأم، وإن كنا أطفالا. فكانت مسألة الكذب صعبة جداً، وتكاد ألا تكون موجودة بيننا.

ب) الأمانة

لقد كان السيد الحكيم فقيراً، ولكن في دور من أدوار حياته أصبح مرجعاً تأتيه الأموال الكثيرة. وهذه الأموال كلها كانت مرتبطة بوضع المسلمين حسب الحكم الشرعي، ولم تكن أموالا شخصية. ولم تكن للسيد الحكيم صناديق من حديد ولا أقفال، ولا شيء من ذلك القبيل، بل كانت البيوت في ذلك الوقت بيوتاً عادية، والأبواب والمخازن كذلك، وهذا يعني أن الطفل يتمكن أن يتناول كل شيء في⬅

➡ذلك البيت. وإني أتذكر في الأيام الأخيرة من حياة السيد الحكيم أن جيء له بصندوق من حديد، وكان يستثقلها، مع أن هذا كان متعارفاً، إلاّ أنه كان يراه غير مناسب، في السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته صنع هذا الصندوق، وأما سابقاً فلا توجد مثل هذه الأشياء، فالأموال توضع في درج ميز أو ما شابه ذلك. وبالتالي ففي عائلة فقيرة، وأطفال لديهم رغبات، لم يكونوا يتناولون حتى المقدار اليومي المعروف، فليست لدينا رواتب يومية – مثلا عشر أو خمسة فلوس – نحن أدركنا فيما بعد أن الأطفال يحصلون على رواتب يومية مقدارها فلسان، ونحن حتى هذين الفلسين لم نكن نحصل عليها. لقد كان لديه عائلة وأطفال، ومتطلبات يحس بها الطفل، وكان كل شيء في متناول يده، إلاّ أن السيد الحكيم كان يغذي فينا هذا الجانب، بحيث إن هذه المسألة كانت مهمة وأساسية، وكان السيد يضع الثقة فينا، وكانت في محلها إلى حد كبير، وبشكل عام، وكأن الذين يعيشون في هذا البيت كلهم عدول، ولا يقعون تحت أي تأثير؛ ولذلك لم تلحظ أي حادثة من هذا القبيل، والفضل في ذلك يرجع للتوفيق الإلهي أولا، وللسيد ثانياً.

ج) الشعور بالمسؤولية

الشيء الآخر الذي كان ينميه فينا هو الشعور بالمسؤولية والرقابة، لقد كان السيد الحكيم في سلوكه الشخصي، وتربيته لأولاده، يحاول أن ينمي في نفوسهم أن يؤدوا الأعمال بروح المسؤولية دائماً، فعندما كان يتصرف في الأموال يبين لنا هذا التصرف، ولماذا يكون بهذا النوع؟ وما هي خلفية هذا التصرف؟. وعندما يكلِّفُ بعمل يبين الهدف، ويعطي المبرر، محاولا تنمية الشعور بالمسؤولية، وكان يلقي في أذهاننا – نحن الأبناء بشكل خاص – أننا لسنا أناساً عاديين، بل إن أبانا له وضع خاص، فهو مرجع، وكل تصرف منّا يجب أن يكون مناسباً –؛ لأنه مراقَب من قبل الله، والناس – وله انعكاساته السلبية على وضع العلماء. كان هذا الموضوع كثيراً ما يغذيه في نفوسنا في مناسبات مختلفة، بحيث إنه بالتدريج يصبح الإنسان يعيش ولا يشعر بنفسه كإنسان عادي، وإنما يعيش كشخص عنده مركز معين، حسب حجمه، وخصوصياته، ويتحمل مسؤوليات معينة، وبالتالي يجب أن يتعامل من خلال المسؤولية، وهذا من المميزات التي امتاز بها السيد الحكيم..**(المؤلف)**.

المشتركة في هؤلاء الأبناء، والخيارات المتعددة للسلوك، أو الاهتمامات، أو المسؤوليات، التي كانوا يتحملونها، أو العلاقات الاجتماعية أو الأسرية العائلية، التي كانوا يلتزمون بها، أو الآلام والعذاب والمصير الذي انتهوا إليه، إلا أن المهم فيها هو اهتمامه﴿قدس سره﴾ في إيجاد هذه العناصر والمكونات في الشخصية، ورؤيته لها، والذي سوف نتعرف عليه من خلال المنهج الذي اتبعه لهذه التربية.

ومن النماذج والأمثلة لهذه الرؤية في تربيته لاولاده، هو إيكال المسؤوليات لهم في سن متقدم، فقد تسلمت مسؤولية بعثة الحج الدينية – وهي من الأعمال التأسيسية – في سن الواحد والعشرين عاماً، وأرسل ولده حجة الإسلام السيد محمد مهدي للتبليغ في قلعة سكر، بصحبة آية الله الشيخ محمد تقي الفقيه، في سن اقل من ذلك، وهكذا ولده حجة الإسلام السيد محمد كاظم تولى الشؤون المالية في سن مبكر، فضلاً عن أولاده الكبار.

كما انه يحث على الاستقلال في السكن والبيت، عند توفر الظروف المالية، ولو بالحد الأدنى، كاستئجار البيوت الصغيرة، سعياً منه في التربية على تحمل المسؤولية والاستقلال، تجنباً للسلبيات التي تنشأ في الأسر، من خلال السكن الواحد.

وعندما يتزاحم الجد في طلب العلم، مع المسؤوليات الاجتماعية والدينية، كان يترك الخيار للشخص نفسه في اختيار التركيز على أحد المنهجين؛ لأهميتهما بنظره، فأن العلم بنظره كان للعمل وخدمة الإسلام والمسلمين.

كما أنه لم يكن يتدخل في الشؤون الداخلية لأولاده، وكان يغض

الطرف عن بعضها، بحيث يتصور الإنسان عدم إطلاعه عليها تجنباً للحرج.

كما كان يطلب من أولاده حسن المعاشرة مع الناس، وينصح بها دائماً ويؤكدها في التعامل الشخصي أو العام، بالإضافة إلى حسن المعاشرة مع الأزواج، ويؤكد على مفهوم المعاشرة بالمعروف – حيث كان يطلب منا الذهاب إلى البيت عندما نتأخر أحيانا في خدمته – ويقول (وعاشروهن بالمعروف)، في الوقت نفسه ينبه على عدم الانسياق مع الهوى، ورغبات النساء.

كما كان يؤكد على تقديم المصالح العامة على الراحة الشخصية، أو المبالغة في الاهتمام الخاص بالبيت والأزواج والأولاد، حيث كان يبدي هذه الملاحظة، عندما يرى ترجيح بعض شباب الأسرة لهذه الأوضاع الخاصة، على الاهتمامات العامة، والاكتفاء في سلوكه الديني بالالتزامات العبادية، أو الشخصية، وطلب العلم، ويفسر ذلك بضعف الشخصية والطموح، أو عدم الفهم للإسلام ومتطلبات الشريعة.

منهج التربية

يمكن أن نشير باختصار إلى عدة خطوط، يكوِّن مجموعها منهج التربية لدى الإمام الحكيم:

١. السلوك الشخصي للإمام الحكيم، ودوره في التربية، والذي يعتمد بالأساس على نظرية القدوة في التربية.

فقد لاحظ الإمام الحكيمقدس سره ظاهرة في بعض الأوساط الدينية، والحوزوية، وهي تنكر بعض الأبناء لمسلك ومنهج آبائهم؛ بل ارتداد بعض هؤلاء الأبناء على هذا المسلك، في بعض الأحيان مع بقاء حالة تبادل العلاقات والاحترام بين هؤلاء الأبناء والآباء.

وكان ﵀ يوعز ذلك إلى نقطة فيها شيء من الخفاء، وهي أن هؤلاء الأبناء كانوا يشاهدون في سلوك آبائهم بعض الظواهر التي لا تنسجم مع مجمل الادعاءات والالتزامات التي يتبناها المنهج الحوزوي فيكونوا بنظر أبنائهم أنهم ممن يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون ما لا يقولون.

فعندما كان ﵀ يريد أن يربي على الورع عن محارم الله، كان يضرب أروع الأمثلة في سلوكه لذلك، وعندما كان يريد أن يوجد عنصر الإخلاص وقصد القربة، كان يتوخى في جميع سلوكه توفير هذا الإخلاص، بحيث يبدو ذلك واضحاً لكل من يتصل به، ويتحدث عنه، وعن دوره في تحقيق الأهداف، وتحصيل النتائج والآثار المطلوبة، وعندما كان يريد أن يعلِّم أولاده الأمانة والصدق، كان يتعامل مع الأموال بمنتهى الأمانة والدقة، فيضع المال القليل في ظرف خاص، يكتب عليه أسم صاحبه ووجه مصرفه، ثم يتعامل معه بدقة، ولا يتصرف فيه إلا بعد أن يعرف من صاحبه خصوصيات المال ووجهه، وعندما يدفع إليه أحدهم المال، كان يسأل عن وجهه، فإذا لم يعرف وجهه كان يعلّمه أفضل الوجوه، وأنجحها في براءة ذمته، وتسهيل مهمته.

ولعل من أروع الأمثلة المحافظة في على الأمانة هذه القصة: وهي أن الإمام الحكيم ﵀ كلف ولده الشهيد السيد محمد مهدي أن يكتب رسالة مهمة إلى أحد الأشخاص، وكان ينتظر الإمام الحكيم الجواب عنها، وكان من عادة الإمام الحكيم السفر إلى زيارة سيد الشهداء ﵇ - في الزيارات المخصوصة المهمة - مثل: زيارة النصف من شعبان، ويوم عرفة، وعندما يذهب إلى كربلاء، كان يرسل إليه البريد من النجف

كل يوم بيد المسافرين، وصادف أن جاء جواب الرسالة المذكورة مع البريد - في هذه الأيام - فأُرسلت إلى كربلاء، دون علم السيد محمد مهدي، وهو في النجف، وكان الإمام يفتح الرسائل بنفسه، ثم يحولها لمن يريد، وعندما وجد هذه الرسالة لم يوافق على فتحها، مع علمه وعلم أصحابه بشأنها ومصدرها، وطلب إذن السيد محمد مهدي بفتحها، ولم تكن الاتصالات في ذلك الوقت متيسرة تلفونياً إلا بشكل محدود، حيث لم يكن للإمام تلفون في منزله في كربلاء، ولا في النجف، وتم الاتصال بالواسطة بعد فترة من الزمن بالسيد محمد مهدي لاستئذانه بفتح الرسالة، وكان أصحاب الإمام الحكيم يلحون عليه بفتحها، خصوصاً بعد معرفتهم بغرضها الإجمالي، ولكن الإمام الحكيم رفض ذلك، حرصاً منه للمحافظة على الأمانة والحقوق.

ولذلك اهتم قدس سره بالتربية من خلال السلوك، وضرب الأمثال من خلال العمل والالتزام، فكنا نلاحظ التطابق التام بين ما يرشدنا إليه، وبين سلوكه في مختلف جوانبه.

لقد كان مجمل سلوكه قدس سره من أروع أساليب التربية على هذا المضمون، حيث كنا نلمس الإخلاص، وروح التقوى، والطهارة والنقاء في هذا السلوك[1].

---

(1) يقول أحد العلماء البارزين (آية الله السيد عبد الكريم الاردبيلي) ولم يكن من أصحاب الإمام الحكيم: إني حضرت على الإمام درسه حوالي السنة بعد وفاة آية الله العظمى السيد الأصفهاني، وكنت ألاحظ في سلوكه في الدرس ما يوحي بالتربية على الأخلاق العالية بحيث كان ذلك درساً لكل من يشاهده..(**المؤلف**).

٢. الإشراف المباشر على التربية، واستخدام مختلف وسائل التربية، والتأديب من النصيحة والإرشاد، والمحاسبة، وإلفات النظر، والعتاب، وحتى الشديد منه، والتهديد باتخاذ الإجراءات المناسبة، والضرب أحياناً، وحتى الشديد منه.

وعندما يراجع الإنسان هذه المراتب من الممارسة، يرى أمامه منهج الإسلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمهم هنا أنه قدس سره كان يباشر ذلك بنفسه، باستمرار دون كلل أو ملل، بل من خلال الشعور بالمسؤولية، وبطريقة توحي بالهدف لا مجرد التعبير عن الانفعال.

وفي هذا المجال، كنت المس بأن لهذا الدور، أثر مهم في ما أنعم الله تعالى عليّ من هداية، كان واسطتها الإمام الحكيم قدس سره، حيث كنا نتعرض لمختلف المخاطر الأخلاقية والروحية والنفسية، خصوصاً بعد أن أصبحت أسرة الإمام الحكيم واسعة الأطراف والمتعلقين.

كان يتابع أدق الأمور في هذا المجال، تصرفات الأبناء، والبنات، والزوجات، وماذا يلبس الإنسان، وما هو هندامه، وطريقة تصرفه في بيته، وسلوكه مع زوجته، وأولاده وأرحامه، وكيف تتصرف النساء في المجالس العامة والخاصة إلى غير ذلك من التفاصيل الدقيقة، ويتدخل فيها بحكمة ولطف، يحفظ فيها الاستقلال في الإرادة والاختيار، ويبعد فيه الأضرار والأخطار، ويقف بحزم أمام المحرمات أو المحظورات الشرعية أو العرفية.

ويرى في كل ذلك: ان للمرجعية مقاماً إلهيا يفرض التزامات استثنائية على أصحابها، كما هو مدلول قوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ**

عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ❖ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾[1].

٣. التحصين واتخاذ الإجراءات المختلفة؛ للصيانة والمحافظة والاحتياط من الوقوع في المحرمات أو المحرفات انطلاقاً من النظرية الإسلامية التي جاءت على لسان أهل البيت(عليهم السلام): ((**من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه**))[2]، أو الحمية أفضل من الدواء، والمناعة خير من العلاج.

فقد كان الإمام الحكيم، مثلاً: يهتم غاية الاهتمام، باختيار الأصحاب، والرفقاء، فيمنع من خلطاء السوء، أو العب في الأزقة، ومعاشرة السفهاء، أو السفلة أو ذوي السمعة السيئة. ويختار لأولاده، او يظهر قبوله ورضاه بالاصحاب من ذوي العقل، أو متقدمي السن، وأهل الفضل المعروفين بالأمانة والثقة. فالإخوان على قسمين، إخوان المعاشرة، وإخوان الثقة فلابد للإنسان من اختيار أخ الثقة.

وكذلك كان يهتم بالزواج المبكر، فان أكثر أولاده، تزوجوا بين السادسة عشر، والعشرين؛ لأنه كان ير ى أن ذلك بالإضافة إلى انه مستحب شرعاً، فهو أفضل طريقة لتحصين الإنسان ((**من تزوج فقد احرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الباقي**))[3].

كما كان يحث على بعض الالتزامات الشرعية، منذ الصغر وقبل سن العاشرة، كصلاة الجماعة وزيارة أئمة أهل البيت(عليهم السلام)، وكذلك حضور

---

(1) الأحزاب: ٣٠-٣١

(2) شرح الازهار: ١: ١٥٧

(3) امالي الشيخ الطوسي: المجلس الثامن عشر:٤٤: ٣٥

المجالس الحسينية، والاجتماعية العامة النزيهة، حيث كان يرى ذلك مما يحقق مناعة ذاتية، وينمي روح التقوى والمعرفة.

وكذلك كان يحث في مجال المعرفة على قراءة القرآن، وحفظه، وقراءة بعض النصوص الدينية، وحفظها، بصورة خاصة النصوص الأربعة التالية:

١) دعاء كميل.

٢) وصية الإمام علي لولده الحسن عليهما السلام.

٣) ورسالة الإمام علي عليه السلام إلى واليه على البصرة، عثمان بن حنيف.

٤) والخطبة الشقشقية.

٤. التأكيد على الاعتبار بالأوضاع التي كان يعيشها المراجع الماضين، والمرجعيات السابقة، والآثار السلبية والايجابية، التي كانت تقترن بها، وما انتهت إليه أوضاع أبناء بعض الأسر العلمية من انحرافات؛ بسبب غفلة الآباء عن التربية، والانشغال بحب الدنيا، أو المظاهر الزائفة للزعامات، وسلوك بعض الحواشي والمستشارين، الذي كان له انعكاسات سلبية على أوضاع المراجع والمرجعيات نفسها.

وأهمية الانطلاق في العلاقات مع مقام المرجعية - سواء في حركة الإنسان الذاتية، أم المجتمع - من الإحساس بالمسؤولية تجاه هذا المقام الديني الإلهي، وتقديم الخدمة للإسلام والناس، لا من منطلق الاستفادة الشخصية، أو الشعور بالفخر، والغرور، أو الامتياز.

وكان ينبّه باستمرار في هذا المجال، إن هذه الإمكانات المعنوية والمادية المتوفرة، إنما هي ملك الإسلام والأمة، لا الشخص، وعندما

يمنع من الاستفادة منها، أو يحرص عليها ليس بخلاً بالمال[1]، أو ظناً بالجاه، وإنما هو حرص على الدين، والوظيفة الشرعية، وفي هذا المجال كان يؤكد على أهمية مواساة الناس الآخرين، بالقدر الممكن أو المتوسط، بحيث كان يراقب أن لا يكون مستوى معيشة أولاده أعلى مستوى معيشة أمثالهم في الفضل أو الوضع الاجتماعي، من عموم أبناء الحوزة العلمية.

الرابع: الاستقلال في التفكير والقرار والحركة الاجتماعية

لقد كان احد المعالم الواضحة في شخصية الإمام الحكيم، هو جانب الاستقلال في هذه الشخصية، سواء في التفكير العلمي - كما سوف نعرفه في محله - أم التفكير الاجتماعي، واتخاذ القرارات المصيرية، حيث كان يحاول دائماً أن يدرس القضايا، ويسمع الاستشارات المختلفة فيها، ولكنه يتحمل بشكل مستقل مسؤولية القرار ومستلزماته.

وكذلك كان هذا الاستقلال صفة واضحة في تربيته الذاتية لنفسه وأولاده وفي عموم سلوكه الاجتماعي، فمثلاً: لم يرتبط الإمام الحكيم ﷺ بعلاقاته الحوزوية والاجتماعية العامة، بما يصنفه أو يحدده في مجمل حركته العامة، فلم يرتبط بمرجعية خاصة، مع علاقات ايجابية مع

---

(1) كان الإمام الحكيم يحتفظ بميزانيته والأموال في بيته، ولم يكن يتعامل مع البنوك؛ لأنها لم تكن موجودة، وكان لا يراها شرعية، بالإضافة إلى بعض المحاذير السلبية في ذلك، وكنا نرى هذه الأموال بين أيدينا، وقد يخطر في باله أنها تكون سبباً في إغرائنا فكان يقول: إني لا أمنع هذا المال عنكم بخلاً به، وإنما المال عرض الدنيا، وهو زائل، ولا أريد لكم إلا عيش الكفاف، فهو أصلح لدينكم..**(المؤلف)**.

مختلف المرجعيات، كما لم يرتبط بوسط اجتماعي خاص، بل كانت له علاقات بأوساط التجار، والكسبة، والوجهاء، والبسطاء من الناس، ولاسيما الفقراء منهم.

كما لم يرتبط بأستاذ معين، أو بمدرسة خاصة، حيث كان يدرس على الشيخ النائيني، والشيخ العراقي في آن واحد، كما انه استفاد من المدرسة الأصولية للآخوند الخراساني، والفقهية للسيد الطباطبائي اليزدي، ومن المنهج التحليلي العقلي في الاستنباط لمدرسة الأصوليين المتأثرين بالفلسفة غير الناطقين باللغة العربية، بالخصوص الإيرانيين، ومن المنهج العرفي الذوقي في فهم النصوص والقواعد لمدرسة صاحب الجواهر.

كما يمكن أن نلاحظ هذا الاستقلال في بنائه لأجهزة، والمؤسسات التي اعتمدت عليها مرجعيته الدينية.

إن هذا الاستقلال سوف نلاحظه بوضوح من مجموعة الأحداث التي عاشها الإمام الحكيم، وسوف نلاحظها في الحديث عن الجانبين الآتيين المرجعي، والعلمي.

أثر الفقر في شخصية الإمام الحكيم

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[1].

عندما تحدثنا عن نشأة الإمام الحكيم عرفنا انه عاش فقيراً، وكان يتحدث الإمام الحكيم عن فقره هذا، ويفتخر به أحياناً، حيث كان يصف حاله وحال أهل بيته، بأنه في بداية حياته، كان أكثر طعامهم الخبز واللبن، وهما

---

(1) فاطر: ١٥

أكثر الأشياء توفراً وأرخصها ثمنا حينذاك[1]، وكان التمر احد المكونات الأساسية للمؤنة السنوية، وهو رخيص في العراق أيضاً.

وقد يكون الفقر في ذلك الزمان هو الطابع العام لطلاب العلوم الدينية، وقد يتفاوتون فيما بينهم في هذا الجانب، ولكن الظروف الاقتصادية الصعبة

---

(1) لقد توفي أبو الإمام الحكيم في المهجر في لبنان، وعمر الإمام الحكيم ست سنوات، وكان أبوه قد غاب عنه وعمره ثلاث سنوات، ولعل الكثير لايعرف أن الإمام الحكيم كان يعيش في أسرة فقيرة غاية الفقر. كان يحدّث في بعض الأحيان، فيقول: كنا في كثير من الأحيان تمر علينا عدة أيام غذاؤنا الوحيد فيها هو الخبز واللبن، ونكتفي به. فكان يعيش في أسرة من هذا القبيل، والفقر ليس عيباً في الإنسان إنما هو كرامة له، إذا تحمَّل ظروفه وأوضاعه. والأسرة العامة للإمام الحكيم – وهي أسرة كبيرة – لم تكن بشكل عام أسرة علمية، نعم، يوجد في تأريخها الكثير من العلماء، لكنها كانت بشكل عام تتعاهد خدمة الحرم الحيدري، وكان من جملة علمائها: أبو السيد الحكيم، وجده بالخصوص وبعض أرحامه، لعلهم لا يتجاوزون الواحد أو الاثنين. وكان باقي أفراد الأسرة يعيشون ظروف الفقر... وبقيت هذه الظروف – والتي كانت تؤثر على أوضاع الإمام الحكيم – مستمرة، حتى اليوم الذي نشأتُ وعرفت الحياة فيه، فكنا نعيش هذا الوضع الفقير... أتذكر أنه في بداية أيامنا، بعد الحرب العالمية الثانية بعدة سنوات، كنا مثلا: في الصباح نتناول الخبز البائت من الليل بعد أن يبلل بالشاي والسكر الأحمر، حيث كان السكر الأحمر رخيصاً جداً. لقد كان عمدة طعامه في تلك الفترة – وهو الطعام الرئيسي الذي كنا نعيش عليه – الخبز واللبن، فإذا أضيف إليه التمر فهذا هو الفاكهة، وكان التمر في ذلك الزمن رخيصاً ومبذولا، وكان يذكر لنا أن التمر لايدخل بيتنا لعدة أيام، وكذلك اللحم. هكذا كان غذاؤنا الطبيعي في الصباح، ولم يكن هناك غذاء غيره. وبقي الإمام الحكيم على هذا الوضع، بالرغم من توسع مرجعيته ووجود الأموال الطائلة تحت يده، والتي يتمكن أن يضع الأشياء الكثيرة من خلالها، وهذا كان من الجوانب السلوكية البارزة في شخصيته..(**المؤلف**).

العامة التي عاشها الإمام الحكيم في بداية حياته كانت أشد ضغطاً عليه، وعلى أسرته من غيره، حيث أن علاقاته الاجتماعية العامة والخاصة لأسرته، بالأصل لم تكن قائمة على أساس هذا المسلك الديني العلمي، بخلاف بعض أهل العلم ممن كان ينتسب إلى بعض البلاد الإسلامية، حيث يمدها أهلها بالمعونة - كما هو المتعارف في المهاجرين الإيرانيين وغيرهم - أو يرتبط ببعض الأوساط الاجتماعية، كالعلماء الذين يترددون على بعض المزارعين أو شيوخ العشائر، أو يوجد لدى أسرهم ارتباط بالأوساط التجارية تاريخياً، أو غير ذلك من الأسباب والعوامل المؤثرة، في شؤون الحياة للعلماء وطلاب العلوم الدينية التي اعتادت عليها جماعة أهل البيت عليهم السلام، ولكن لم يكن شيء منها موجوداً في بداية حياة الإمام الحكيم قدس سره.

والمهم في هذا البعد، هو نظرته قدس سره إلى هذا الفقر وتقييمه له، وكذلك آثاره الروحية والاجتماعية على شخصيته؛ لأن الفقر في حياة الإنسان له مدلولان مختلفان، ايجابي وسلبي:

أحدهما: الشعور بالحاجة إلى الله تعالى، والفقر الذاتي إليه الأمر، في كل الأمور المادية والمعنوية الذي يدفعه نحو السعي للتكامل والارتباط به تعالى، واللجوء إليه في سد هذا الفقر، وفيض الرزق، والكمالات المعنوية، والكدح من أجل ذلك؛ لأنه بدون هذا الشعور، لا يمكن للإنسان أن يتحرك نحو الكمال، وصعود مدارج التقدم ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**﴾[1].

---

(1) الانشقاق: ٦

وكذلك من مداليل الفقر الإحساس بالآلام، والمعاناة التي يشعر بها الفقراء، والصعوبات التي يواجهونها في حياتهم والمواساة لهم، كما يشعر الصائم بذلك، وكيفية الصمود والصبر على هذه الآلام والمعاناة، والاستفادة من هذه التجارب.

وهذا المدلول هو ما نراه في الأنبياء، والأولياء، والصالحين، ممن عرفوا الفقر في حياتهم، كما هو واضح في حياة الأنبياء من أولي العزم[1].

ثانيهما: هو ما يمكن أن نصفه بالشعور بالحاجة إلى الناس، والإحساس بالنقص، ومحاولة الهروب من هذا الواقع الأليم، والخروج من هذا الوسط الممتحن، من خلال طلب الكمال بكل الوسائل، والحرص على جمعه الاستزادة منه، والبخل في الإنفاق على النفس والآخرين.

ويمكن أن نلمس في شخصية الإمام الحكيم المدلول الأول بشكل واضح من خلال ما عرفناه في الجانب الأول من سيرته الذاتية في الاعتماد على الله والنفس، ولكن بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نشير إلى المظاهر التالية في سلوكه، التي تؤشر على هذا المدلول.

---

(1) مثل إبراهيم عليه السلام الذي خرج مهاجراً إلى ربه لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، بعد أن اعتزل قومه، وتبرأ منهم، وقطع صلته مع كل أقاربه، حتى أبيه آزر، ولم يبقَ معه إلا زوجه ولوط.

وموسى عليه السلام الذي قال في هجرته إلى مدين بعد الانقطاع الكامل وهو يشعر بالجوع والغربة ﴿**فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ (القصص: ٢٤).

وعيسى عليه السلام الذي عاش في كنف أمه اليتيمة المطاردة، التي فقدت كفيلها زكريا، وانقطعت عن المجتمع الإنساني العام.

ومحمد صلى الله عليه وآله الذي فقد أباه وأمه وعاش في كفالة عمه أبي طالب الفقير المحتاج، حتى منَّ الله عليه بالزواج من خديجة بنت خويلد..(**المؤلف**).

ا ل ز ه د

الأول: الزهد والالتزام بالمستوى المعيشي البسيط والمتواضع، والمهذب من التشريفات والتزيينات إلى آخر عمره، سواء في سلوكه الشخصي في المأكل، والمسكن، والمركب، أم في سلوكه العائلي، أم في سلوكه الاجتماعي، فقد كان الفراش يمتد به العمر أكثر من ثلاثين إلى خمسين عاماً، ويكتفي به هو وزوجه أن يكون نظيفاً طاهراً.

وقد كان في الملابس سواء في شكلها، أم محتواها وأسلوب تقمصها، ملتزماً نفس المستوى والطريقة التي كان عليهما في شبابه دون تغيير.

وهكذا في مأكله ومسكنه، حتى أن البيت الذي بناه له في أواخر أيامه أحد المؤمنين في الكوفة، لم يكن يختلف في بساطته عن بيوت الطبقة العامة من الناس في كل شؤونه.

وفي ديوان الاستقبال كان يجلس للناس متواضعاً على البسط الخفيفة الأفغانية[1]، والفراش الرخيص، وفي الغرفة الضيقة ذات الجدران العادية، ومن دون طلاء، أو زينة، والأبواب متواضعة جداً، في طريقة استقبال الناس ولقائهم، والحديث إليهم ومجالستهم.

كل ذلك كان يعبر عن هذا المستوى المعيشي المتواضع، الذي يدنو

---

(1) أتذكر أنه عندما كان في الكوفة – وهي مقره الأخير الذي كان يستقر ويعيش حياته الطبيعية فيه؛ لأنه عندما كان يأتي إلى النجف فإنه يأتيها للعمل، وهي أشبه شيء بالمكتب – كان مقره مفروشاً بزولية (سجّادة)، هي ملك لوالدتي، وكانت هذه الزولية لايتمكن الإنسان أن يميزها، هل هي سجادة إيرانية في الأصل؟ أو أنها بساط؟ لشدة ما أصابها من التآكل..**(المؤلف)**.

في مجمل تفاصيله من الفقراء، ويبتعد عن الأبهة والفخامة والكبرياء.

لقد كنت أشعر أحياناً بأن الإمام الحكيم قدّس سرّه - بسبب هذا الزهد - تتولد بينه وبين الأشياء الصغيرة والبسيطة، التي تحيط به علاقة ومودة، فالقلم الذي يستخدمه، والساعة التي يستعملها، والخاتم، والعصا، والدواة، والصندوق المعدني المصنوع من (التنك)، الذي يضع فيه الرسائل، والسرير الحديدي، أو الخشبي الذي ينام عليه، والسجادة التي يصلي عليها، أو التي يجلس عليها، وغير ذلك والصندوق الذي يحفظ فيه أوراقه أو أمواله، كلها أشياء تبقى تلازمه لفترات طويلة، ما دامت قادرة على أداء الخدمة، بساطة متناهية، ولطافة في الصلة، وتعبير عن الرضا بما قسم الله في هذه الدنيا، والتجرد عن حبها أو الارتباط بها.

كل ذلك والأموال تجري بين يديه، والظروف مواتية، والمقام رفيع، والإنفاق على الآخرين واسع، وفرص الانتفاع أو الاستمتاع متوفرة دون حراجة، بل كان بعض حاشيته، أو متعلقيه، أو الطلبة الأفاضل، أو مؤسساته العامة، تحصل على مستوى أكثر بكثير من هذا المستوى من العيش.

لقد كان زاهداً دون تكلف، حتى تحس بأن الزهد تحول إلى طبع عادي له، يمارسه بين الناس وكأنه ليس منهم، ودون أن يشعروا بانفصاله عنهم في زهده، ويلتزم بدون أن يشعر الآخرون بالحرج من هذا الالتزام، ويربي عليه أهل بيته؛ لأنه خلق رفيع دون أي ضغط أو عنت.

وهذا هو الزهد الإسلامي، حيث يسير في حياة الإنسان ضمن

تفاصيل كثيرة، ودائرة شاملة، دون تكلف أو عناء، وذلك عندما يتخلق الإنسان به، ويصبح ملكة له.

فالزهد ليس مجرد عزلة وعزوف عن الدنيا والحياة الاجتماعية، وإنما هو إلى جانب ذلك خلق إنساني رفيع يتعامل به الإنسان ايجابياً مع الحياة الدنيا، فيحولها الى مزرعة مثمرة للآخرة ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ.....** ﴾[1].

الاقتصاد في الإنفاق

الثاني: الاقتصاد في الإنفاق مع استيفاء المنفعة، وتحقيق الغرض، والاحتفاظ بماء الوجه، والالتزام بالحدود الشرعية.

لقد كان هذا الاقتصاد يبدأ من نفسه في تفاصيل حركته وعلاقاته، ولكنه نراه - أيضا - يجسد في أشياء كثيرة معبرة عن المنهج، ماء الوضوء الذي يستخدمه، يقتصد فيه، فيكون دون إسراف أو تبذير، في جميع موارد الاستخدام للماء، سواء كان وضوءاً من إناء أم من شبكة الماء (الإسالة العامة) أم من ماء الأحواض، الذي كان يستخدم فيها أسلوب الوضوء الإرتماسي، هذا بالرغم من أنه كان يحتاط من ممارسته للعبادات، وحتى في الوضوء، ولكن بدون تكلف أو وسوسة أو إسراف، حتى في البسيط منها.

وكذلك الأوراق التي كان يستخدمها لايتلفها، حيث يقتطع باقي الرسائل المسودة، ليكتب عليه الوصولات المالية، أو بعض المذكرات،

---

(1) الحديد: ٢٣

ويستخدم ظروف الرسائل المستعملة لحفظ الأموال والكتابة عليها.

وعندما كنا نتردد على (المعلّم) كنا نستعمل ظهر الأوراق التجارية الباطلة، كان يشتريها بثمن رخيص، أو يحصل عليها مجاناً من بعض التجار، والملابس التي تضيق أو تقصر على الإخوة الكبار يستعملها الصغار، وهناك اقتصاد في استخدام الكهرباء، يراقبه شخصياً، ويبدأ فيه بنفسه، وفي أولاده، وفي إضاءة البيت العامة، وهكذا في جميع التفاصيل.

وفي الطعام سواء في تنظيمه أم الاستفادة من الزائد منه، خبزاً كان، أو مرقاً، أو رزاً بائتاً، أو تمراً، كان يساعده في هذا الأمر زوجتاه الصالحتان، أم السيد يوسف، وأم السيد محمد مهدي، اللتان كانتا تهتمان بهذا الجانب من الاقتصاد، في الإنفاق والترشيد له، مع نفوس طيبة وسمحة وتربية صالحة، جمعت فيها هذين الجانبين المختلفين.

إن مبدأ الاقتصاد في الإنفاق من المبادئ الإسلامية الأساسية المهمة المطبق في مجمل السياسة المالية للإمام الحكيمقدس سره كان يشمل جميع حركاته وأعماله، ويخضع لها جهازه الإداري، ونشاطاته الثقافية، والاجتماعية، بالإضافة إلى سلوكه الخاص.

ولذلك نشاهد في جهازه الإداري عدداً محدوداً من الأشخاص، متفرغاً للأعمال العامة، ويحاول أن يستفيد من الطاقات المختلفة والأوقات الزائدة، لهذا الشخص أو ذاك لإدارة العمل.

كما كان يتصف هذا الجهاز الإداري، بسبب هذه السياسة، بالإخلاص والاندفاع الذاتي، بعيداً عن الجمود والروتين، وبذلك

يمكن توفير العناصر الجيدة المخلصة، والاقتصاد في الإنفاق المالي، والبساطة في التشكيلات، أو الاختصار في المكان، أو الوسائل.

ونجد هذه السياسة تحكم المشاريع والأعمال، التي قام بها الإمام الحكيم، والمؤسسات التي بناها، حيث كان يرفض الإنفاق الزائد فيها على المظاهر والتزيينات، كما كان يحاول أن يستفيد من الاماكن العامة، كالمساجد، والحسنيات، والمدارس، وغيرها، أو ملء الفراغات، أو إعادة البناء وتجديده، أو تطوير الموجود منها، بحيث يكون كفوءاً في الإدارة.

فعلى سبيل المثال قام الإمام الحكيم بمشروع واسع ثقافي، وهو تأسيس المكتبات العامة الذي سوف نتحدث عنه في جانب آخر، وفي هذا المجال نجد الإمام الحكيم يضع هذه المكتبات إلى جانب المؤسسات الدينية القائمة، فالمركز الرئيسي للمشروع في النجف إلى جانب المسجد الهندي، وفي قطعة الأرض المتبقية من مشروع توسعة المسجد الكبير (الهندي) الذي قام بتنفيذه، والفروع في غرف، أو أجنحة للمساجد المختلفة، او الحسنيات، أو المراكز الدينية الأخرى، باستثناء بعض الموارد التي تهيأت لها فرصة مستقلة للبناء، او كانت ضرورية.

كما قام الإمام الحكيم بمشروع توسعة أماكن الطلبة في النجف، ولكن سياسته في هذا المجال كانت هو إعطاء الأولوية؛ لتجديد وتطوير الأماكن الموجودة، فقام بتحديد وتشجيع وتعمير بعض المدارس، كمدرسة اليزدي الثانية، ومدرسة القوام، ومدرسة الآخوند الكبرى، ومدرسة شريف العلماء في كربلاء، ومدرسة الهندي ومدرسة البادكوبية، ثم تشجيع البعثات غير العراقية، لبناء مدارس لها، وتتولى

إداراتها والإشراف والإنفاق عليها، بالإضافة إلى فوائد أخرى، ثم بعد ذلك قام ببناء مدرسة مستقلة هي: دار الحكمة[1].

لقد كان من الميسور للإمام الحكيم أن يقوم بتأسيس المدارس الخاصة به، أو تحت أسمه، ولكنه كان يريد حركة علمية شاملة للحوزة، ويستفيد من جميع الامكانات والطاقات الموجودة فيها، دون أن يولي قضية الاسم أهمية خاصة.

وحتى في طبع بعض كتبه الخاصة، كان يتبع هذه السياسة، كما هو الحال في الطبعة الثانية للمستمسك، وكتاب نهج الفقاهة، والطبعة الثانية لدليل الناسك وغيرها.

وهكذا الحال في سياسة التوزيع للحقوق والرواتب، فانه بالرغم من أنَّ مدخولات وموارد الإمام الحكيم كانت محدودة؛ بسبب الظروف الاقتصادية العامة في أيامه، إلا انه كان يقوم بتغطية واسعة وشاملة للمشاريع والمساحات الحوزوية المختلفة بدون مشاكل؛ لأن جهازه الإداري، أو أوضاعه الخاصة لم تكن تلقي بثقلها على هذه الموارد.

وإذا عرفنا بأن الإمام الحكيم لم يكن يصرف لنفسه ولأهل بيته ومتعلقيه أي شيء من سهم الإمام، الذي هو المصدر الأساس لميزانية الحوزة العلمية والمرجعية الدينية، كما انه قد أذن بشكل عام بصرف سهم السادة على الفقراء السادة، وكذلك الزكوات، ورد المظالم

---

(1) قام النظام المجرم الحكم في العراق بتفجيرها، وهدمها عن طريق استخدام الديناميت عقيب قمعه انتفاضة الشعب العراقي في عام ١٤١١هـ..(**المؤلف**).

وغيرها، كما نص على ذلك في رسالته العملية، يمكن أن يفهم أنه في مجمل حركته الخاصة لم يكن يكلف الميزانية العامة شيئاً يذكر؛ لأنه كان يقتصد ويدير أموره من خلال هذا الاقتصاد، وكان يغطي أولاده من الراتب ما يساوي مقدار ما يصل الى طلبة العلوم الدينية عادة من موارد في الحوزة.

الاهتمام بالفقراء والضعفاء

الثالث: الاهتمام بالفقراء والضعفاء، سواء على المستوى الاجتماعي العام، أم طلبة الحوزة العلمية.

إن هذا الاهتمام بالفقراء بلا شك له محتوى أخلاقي وشرعي، سوف نشير إليه في الجانب الثالث من السيرة الذاتية، ولكن معاناة الإمام الحكيم في هذا الجانب لها تأثير بالغ؛ لأن المشاهدة والتجربة هي أعمق فهماً وتأثيراً من النظرية والمفاهيم مهما كانت النظرية واضحة والمفهوم جلياً.

ومما يزيد في تأكيد هذا الاهتمام، هو أن الوسط الذي كان يقلد الإمام الحكيم، أو يرتبط به في بداية مرجعيته[1] هو وسط فقير، مثل: الأوساط الشعبية العامة العراقية، واللبنانية، والأفغانية، والباكستانية، والهندية، وبعض بلدان الخليج قبل تطورها الاقتصادي بظهور النفط.

ونلاحظ بعض معالم هذا الاهتمام في النقاط التالية:

١) كان الإمام الحكيم يهتم بصلة الفقراء، بشكل مباشر، حيث

---

(1) سوف نتعرف على هذا الجانب بوضوح في بحث المرجعية..(**المؤلف**).

يحمل الأموال بنفسه؛ ليقسمها عليهم في بداية الأمر، ثم بقي ملتزماً بهذه الحالة - جزئياً - إلى آخر أيامه، مع إيصال بعض المساعدات الأخرى إلى معاونيه؛ لسعة دائرة المساعدات.

٢) كان يرى بأن الفقراء المضطرين يمثلون أحد مصاريف السهم المبارك، ويأذن عادة لمقلديه بالانفاق عليهم، وعلى غيرهم من موارد الصرف من السهم المبارك، بمقدار ثلث سهم الإمام؛ لأنه كان يعتقد أن هذا مما يحرز رضا الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٣) كان يهتم بالتحقيق عن حال مدعي الفقر، ويظهر انزعاجه من الادعاءات الكاذبة لبعضهم، ويهتم غاية الاهتمام بسد حاجة من يتبين صدقه، وذلك حفاظاً على الصرف الصحيح للحقوق الشرعية من ناحية، حيث أن هذا المال ليس ملكاً له يتصرف به كيف يشاء، وعلى سمعة الفقراء وكرامتهم من ناحية أخرى.

٤)كان يهتم في التعامل الاجتماعي في الفقراء بمراعاة الجانب الروحي، والنفسي، والأدب الاجتماعي العالي معهم، ومن الاحترام والإكرام.

٥) على مستوى الحوزة العلمية، اهتم الإمام الحكيم قدس سره بشكل واسع بهذا الوسط الفقير العام، وخصوصاً البلدان الفقيرة لإيجاد موازنة بين حاجاتهم العلمية، والثقافية، والدينية، وبين نقص الموارد المالية لبلدانهم، أو قلة دافعي الحقوق فيها، وعدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها، تجاه الطلبة والعلماء المنتمين الى تلك البلاد.

٦) الاهتمام بنشر الثقافة والمعرفة، خصوصا في الأوساط الفقيرة نسبياً، وتطوير وضعها الديني، ودفعها لتحمل مسؤوليتها الاجتماعية

والمالية، وتنظيم عملية الدفع للحقوق، ولو كانت بكميات صغيرة جداً ومحدودة، وقد كان ذلك واضحاً في المنهج الذي اتبعه في الوسط العراقي العام، وكذلك إيجاد مراكز العبادة، والثقافة، والتوعية فيها، فكانت أكثر المؤسسات التي بناها أو رعاها في هذه الأوساط.

وهذا الأمر يمثل أحد المناهج والسياسات العامة التي كان يلتزم بها الإمام الحكيم قدس سره كما سوف تعرف ذلك.

اثر المعرفة الأخلاقية في شخصية الإمام الحكيم

لقد كانت إحدى الصفات البارزة في الإمام الحكيم، التي يكاد أن يلمسها كل إنسان يعاشره، هي الصفات الأخلاقية والسلوكية، التي تتجسد فيها الروحانية والمعنوية العالية، والتخلق بالكمالات الإلهية التي أراد لهذا الإنسان.

وقد ذكرنا في بداية الحديث عن السيرة الذاتية، أن الإمام الحكيم تأثر إلى حد كبير بمدرسة الأخلاق والعرفان، التي كان يتفاعل معها والده آية الله السيد مهدي الحكيم قدس سره، وبالرغم من انه لم يدرك أباه إلا قليلاً من الأيام، ولكن ترك له الأصدقاء، والمحيط الذي كان يرتبط بهذه المدرسة الأخلاقية.

ونحاول هنا في هذا البعد أن نوضح هذه الحقيقة من خلال توضيح مضمون هذه المدرسة بشكل إجمالي، وبيان معالم آثارها في شخصية الإمام الحكيم وسلوكه.

ولابد أن نشير الى أن بعض هذه المعالم، أصبحت واضحة في حديثنا عن البعدين السابقين (اليتم، والفقر)، حيث يتداخلان في

تاثيرهما مع هذا البعد، ويجسد سلوكه فيهما هذا الجانب الأخلاقي، فلا نحتاج أن نعيد أو نطيل، بل نقتصر في الحديث على ما تبقى من خصوصيات، وبشكل إجمالي:

المدارس الأخلاقية

إن المدارس الأخلاقية يمكن أن تقسم بشكل أساسي إلى مدارس ثلاثة، بكل طلابها، وروادها، والملتزمون بها وبمنهاجها.

الأولى: المدرسة الفلسفية، التي تحاول أن تستند في رؤيتها للحقائق الأخلاقية، والكمالات الإلهية، على طريق المعرفة المنطقية، والبراهين العلية، أو طريقة الكشف والرياضة النفسية الروحية، ذات السلوك الخاص، الذي يتجه إلى التمييز بين الخاص والعام، وبين أصحاب المعرفة والسلوك، وعامة الناس المؤمنين، وهو: منهج المشائين، أو منهج الاشراقيين.

والعلاقة الأخلاقية بين الإنسان والله تعالى، كما يفهمها هؤلاء الأخلاقيون، هي علاقة المكتشف مع الحقيقة الكاملة المطلقة، فكلما اقترب هذا الإنسان المكتشف من هذه الحقيقة الكاملة، كان أكثر سمواً وكمالاً، وأسمى أخلاقاً.

ويحاول أصحاب هذه المدرسة أن يتواصلوا إلى الكمالات الإلهية من خلال معرفة الحقائق الكونية، واكتشاف المزيد من الشهود أو الغيب، بالتفكر والتأمل، أو من خلال صفاء النفس وقوة الإرادة، بالرياضة النفسية المجهدة.

الثانية: المدرسة الصوفية، التي تحاول أن تصل إلى الكمالات الإلهية،

من خلال تثوير وتأجيج الأحاسيس والمشاعر والعواطف الخيرة، التي أودعها الله تعالى في الإنسان، والتي تعتمد بشكل أساسي على الحب والتقديس لله تعالى، والصفات الإلهية، والذكر المتواصل باللسان.

وتهتم هذه المدرسة بتطوير هذه المشاعر، وبالتعبير عنها باستمرار، حيث من خلالها يمكن أن يتوصلوا إلى هذه الكمالات الإلهية.

وهم يتصورون العلاقة الأخلاقية بين الإنسان والله تعالى، هي علاقة المحب بحبيبه، والعاشق بمعشوقه، فالخلوة بالمعشوق، وعدم الانشغال عنه بغيره، والانصراف إليه، كل ذلك من التعبيرات السلوكية عن التكامل الأخلاقي.

الثالثة: المدرسة الشرعية، التي يحاول أبناؤها أن يصلوا إلى الكمالات الإلهية، من خلال الطاعة والامتثال والالتزام بالحدود، والأحكام الشرعية، والورع والتقوى، واقتران الإيمان بالعمل، والقول، والفعل، وان الكمال الإلهي، لا يصل إليه العبد - بنظرهم - إلا من خلال الإيمان، والإيمان له مراتب لا يحصل عليها الانسان إلا من خلال العمل والتطبيق، والعمل لا يكون إلا من خلال الحكم الشرعي، والحدود الإلهية.

والعلاقة الأخلاقية، كما تتصورها هذه السياسة بين الإنسان والله تعالى، هي علاقة العبد بالمولى، والمطيع بالآمر، والمحكوم بالحاكم.

ولهذه المدارس - في منهاجها - آثار نفسية، وسلوكية، واجتماعية على ملتزميها، قد تتداخل، أو تختلف، أو تتكامل[1]، ويتوقف ذلك بشكل

---

(1) يمكن أن نجد حالة التكامل هذه واضحة في شخصيات الأنبياء والأوصياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام ولعل ما اثر عن شخصية الإمام علي عليه السلام ما يجسد هذا الأمر ولذا قيل عنه عليه السلام انه يجمع المتناقضات، بل في الحقيقة هو يجمع الكمالات..**(المؤلف)**.

إجمالي على حفظ الموازنة بين هذه الخلفيات الأخلاقية.

ولا نريد - هنا - أن نعرف الموازنة، ولا التميز والتفاضل والترجيح بين هذه المدارس، ولكن يبدو من الواضح - والله العالم - أن المدرسة الثالثة في توجهها ومنهجها وسلوكها، تشكل الأساس الذي لا يمكن العدول عنه، بل يمكن الإضافة إليه والتكامل فيه، فيتحول الإيمان إلى معرفة، وتتحول الطاعة إلى حب، ويتحول اللقاء والانصراف إلى المحبوب انشغالاً بالواجبات، وجهاداً في سبيل الله، ويتحول الذكر لله تعالى إلى حضور لذاته في كل أعمال الإنسان وتصرفاته.

هذا كله مع قطر النظر عن أصول هذه المدارس، والاستدلال الذي يستخدمه أصحابها لتأكيد صحتها، استناداً إلى الكتاب الكريم، أو الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية، أو سيرة الأئمة المعصومين.

ولعل أهم ما تختلف فيه المدرسة الأخيرة عن المدرستين الأوليتين عادة - وفي السيرة الخارجية لها - نقطتان مهمتان:

أحدهما: أن منهجها واضح من خلال الأحكام الشرعية، والحدود الإلهية، فهي تشخص المحتوى الأخلاقي ومضمونه، وفي الوقت نفسه تحدد الطريق للوصول إليه استناداً للحكم الشرعي، الذي بينه الله تعالى لعامة الناس، ووضعه في متناول أيديهم.

بخلاف المدرستين الأخريتين اللتين تحتاجان إلى استنباط منهج للوصول، أو مستوى معين من الإدراك والمعرفة.

ثانيهما: أنها تدعو إلى التعايش مع الناس، وتحمل المسؤولية تجاههم في هدايتهم وإرشادهم، أو في خدمتهم ومنفعتهم، أو في الإحسان

إليهم، والتآلف معهم، أو غير ذلك مما يرتبط بالجماعة وتكاملها كهدف أساس، حيث تقترن فيها مسيرة تكامل الإنسان في ذاته، مع مسيرة تكامل الجماعة ومساهمته في تكاملها، وتكامل الفرد مع تكامل الأمة.

ولذلك نجد أبناء هذه المدرسة يتحركون في الأمة وكأنهم احد أبنائها، ولكنهم في الوقت نفسه ليسوا منهم في تفاصيل حياتهم، وفي سلوكهم العام، بل يمثلون النور الهادي فيهم، والموقع القدوة في حركتهم، والمرتفع المتميز بين سطوحهم ومستوياتهم.

وقد كان الإمام الحكيم قُدِّسَ سِرُّهُ - كما يبدو - من أبناء المدرسة الأخيرة، ولذا لا يبدو في سلوكه الاجتماعي - كما هو شأن سلوك هذه المدرسة - أي شيء غير عادي، بالرغم من أنه يمتاز في سلوكه الشخصي والذاتي بشكل واضح.

ويمكن أن نرى ذلك واضحاً، عندما ننظر إلى جميع أبعاد النقاط التي ذكرناها سابقاً في البعدين السابقين، بالإضافة إلى النقاط التالية:

١) التقوى والورع

كان الإمام الحكيم يجسد في مجمل سلوكه الورع والتقوى، ولم يكن ذلك في السلوك الفردي فحسب، بل كانت هذه الصفة والملكة تتجسد في سلوكه العائلي، ومع أولاده وأهل بيته[1]، ثم مع ما يحيط به من أشياء

---

(1) كان السيد الحكيم يتمتع بالتقوى والورع في والالتزامات تجاه الأولاد والعائلة، وأنا أتذكر بعض المسائل فيما يتعلق بهذا الموضوع، فمثلا موضوع الأموال، فعندما كنا شباباً كانت لدينا تصورات عن الأموال وكيفية صرفها، وكان يرى ذلك، وكانت عنده القدرة أن يعطينا شيئاً منها، ولكن كانت لديه فلسفة خاصة، فهو لا يعطي إلا بالحد الذي يفترض أن هذا الإنسان يعيش حالة الطلاب المتوسطين⬅

➡في النجف الأشرف، لا كحال الطلاب الفقراء، ولا كحال الطلاب المترفين، وإنما كان التصور الموجود عنده أن هذا طالب والمفروض أن يعيش حال الطلاب المتوسطين، ولولا هذه الدقة في المحاسبة والرقابة والمتابعة لكان من الممكن أن يكون لنا شأن آخر – والعياذ بالله-.

والرقابة التي قام بها السيد الحكيم هي التي أدت بنا إلى أن نحفظ هذا المقدار من ماء الوجه، نسأل الله تعالى أن يبيض وجوهنا يوم الحساب.

وأما الرواتب التي كان يعطيها فكان يراعي فيها حالة الطلاب المتوسطين، من السيد يوسف، الذي كان في ذلك الوقت يدرس بحث الخارج، وله مقام ووضع خاص، إلى السيد عبد العزيز الذي هو أصغرنا، كان يتعامل معهم بهذا الشكل، ولا يفرق بينهم. لكن كيف يدفع السيد الحكيم التطلعات الموجودة؟ فكل إنسان في فترة الشباب له تطلعات وتوجهات. إنه كان يربي فينا هذا الجانب ويغذينا به، وكثيراً ما كان يقول: إنما لم أعطكم الأموال ليس بخلا – فالأموال موجودة – والنواحي الشرعية في صرفها متوفرة، ولكن يجب أن تعرفوا أن لكم وضعاً ومسؤوليات معينة، والإنسان كلما كان أقل صرفاً للأموال كلما كان عند الله أفضل. كان يربي فينا هذه الروح – روح الزهد والتقوى والورع – في حديثه، ثم يمارس هذا في الواقع خارجاً في ملبسه ومأكله. كانت تأتي له في بعض الأحيان رسالة، وتكون الورقة نصفها مكتوب به والنصف الآخر غير مستعمل، أو رسالة تتألف من ورقتين مثلا، فكان بعد أن يكمل قراءتها يقص النصف الثاني، غير المستعمل – وأحياناً يكون بمقدار ثلاثة أصابع – ويجعله على شكل مجموعات يكتب به – أحيانا – ملاحظات، أو جواباً لاستفتاء، أو وصلاً لحقوق شرعية. وكان يتقيد حتى في الأكل، فكان يأكل بمقدار لا يجعل شيئاً زائداً بعد مأكله، ويراقب هذا الجانب مراقبة شديدة، بحيث إنه من خلال هذا السلوك يجعل الإنسان أمام حالة من الاقتصاد في الجانب المالي، فلا توجد عنده حالة التبذير والإسراف. وكان – بسبب وضعه في العائلة – يتميز بالاحترام والحب، وقد يفسر باعتبار انه مرجع، والمرجع – عادة – يحترم في الأوساط العامة، وأمّا في الأوساط الداخلية فهذا➡

كثيرة، فهو ورع، ومتقي في التعامل مع اللباس، والطعام، والشراب، والسكن، والأموال، ومع الحديث، والكتابة[1]، والحوزة العلمية، والعلماء، ومع المرجعية وشؤونها، ومصالح الأمة وقضاياها، وفي المواقف من الخاصة والمواقف من الطغاة، ومع الناس من الأصدقاء والأعداء، ومع المريدين والمنافسين، ومع المحبين والحاسدين، ومع الأحداث السياسية والاجتماعية المختلفة، التي كان يواجهها.

والمهم في التقوى والورع هو هذه الشمولية، حيث تصبح التقوى في الأمور الاجتماعية السياسية من أشد الأمور تعقيداً؛ لأن مخالفة الورع والتقوى في هذا المجال تقترن - أحياناً - بمبرراتها المصطنعة والمغطاة بغطاء ادعاء المصالح الإسلامية العليا، أو تزاحم الأهم من المهم، أو حجم المنفعة الكبيرة، مع الأضرار الصغيرة، أو غير ذلك من المبررات التي يسهل

➡يحتاج إلى ممارسة ذات طبيعة خاصة. فالإنسان في حياته الخاصة يتحلل – عادة – من كثير من القيود، ويحاول في داخل بيته أن ينفس عن وضعه وخصوصياته، أمّا السيد فلا يكاد الإنسان يميز بين وضعه وسلوكه في بيته – من حيث الانضباط – وبين سلوكه ووضعه في خارج البيت، فالمزاح – مثلا – يكاد لا يعرف في شخصيته..**(المؤلف)**.

(1) يحدثني بعض كبار أرحامنا (حفظهم الله): أن الإمام الحكيم عندما عرض عليه بعض الناس أن يطبع (المستمسك) – وهو من أفضل الكتب العلمية المطروحة – كان يأبى ذلك. ولما سئل عن سبب رفضه قال: متى ما شعرت في نفسي عدم الحزازة في أن يطبع هذا الكتاب باسم شخص آخر سوف أتأكد من أنّ القصد لطباعته هو خدمة فقه أهل البيت عليهم السلام لا الشهرة لنفسي، وعندئذ سأقوم بطبعه. إننا نحتاج لمثل هذا الإحساس في حركاتنا وأعمالنا وتصرفاتنا وسلوكن؛ لنتمكن من تحقيق أهداف أهل البيت عليهم السلام..**(المؤلف)**.

تصورها وأدعائها، وتجد طريقها إلى نفس الإنسان، حيث يتحول الإنسان أحياناً إلى وهم، يصبح فيه وجوده هو الممثل الكامل للإسلام والمصالح الإسلامية العليا، فكل فائدة ومنفعة له هي منفعة للإسلام، وكل ضرر ينزل به، فهو ضرر للإسلام، وكل عدو له هو عدو للإسلام، وكل تجاوز لشخصيته هو تجاوز للإسلام.. إلى آخر التصورات.

إن قضية الورع والتقوى في الأمور السياسية، هي قضية امتحان وابتلاء الصالحين من عباد الله تعالى، حيث يتم اصطفاؤهم واختيارهم من خلال هذا الامتحان العسير الذي تتداخل فيه الصور، وتضطرب فيه الرؤى، وتتصاعد فيه الضغوط وتتحير فيه النفوس، وتضعف فيه الإرادة أو تتكامل وتقوى.

٢) العبادة

تمثل العبادة التعبير المباشر عن هذا المحتوى الأخلاقي لهذه المدرسة، خصوصاً إذا نظرنا للعبادة بمفهومها الواسع، الذي يعني إتيان العمل - في أي مجال كان - بقصد التقرب لله تعالى، وتعبيراً عن علاقة العبودية له سبحانه حيث كان الإمام الحكيم قدس سره في هذا المجال يؤكد على نقطتين:

الأولى: الإخلاص لله تعالى في العمل، كما عرفناه في معالم التربية، وكما كان ذلك من جملة وصاياه لمبعوثيه، وللمبلغين في المواسم الدينية، فيطلب منهم السعي لتوفير هذا العنصر في كل الأعمال والفعاليات والنشاطات، وكان يقول: بأن الإخلاص بالإضافة إلى ما يحققه من قرب لله تعالى، ومن الرضا الإلهي عن العمل الذي هو غاية ما ينشده الإنسان ويبتغيه في حياته، فانه - أيضاً - يمثل مفتاح النجاح والتوفيق للإنسان في أعماله، وهو سر التأثير في الآخرين.

كما كان قدس سره يتحدث عن هذا الإخلاص عند الممارسة للنشاطات المختلفة، التي قد يشوبها شيء من النوايا الأخرى، مثل المصالح والمنافع الخاصة، أو شيء من الجاه والسمعة، أو مراعاة للوضع الاجتماعي العام وما يقوله الناس، دون الانتباه إلى الهدف الأصلي لها، وهو رضا الله تعالى.

الثانية: أن قصد القربة يمكن توفيره وتحقيقه مقروناً بمختلف الأعمال التي يقوم الإنسان في حركاته وسكناته، وضرورة الاهتمام بتوفير هذا القصد، والسعي للإتيان بالأعمال والنشاطات التي ورد عن الشارع المقدس الحث عليها، أو طلب الإتيان بها، أو تمثل حاجة طبيعية في تفاصيل حياة الإنسان اليومية، أو العامة[1].

والشيء المهم في هذا المجال، هو أن الإمام الحكيم كان يلمس كل من يعاشره، انه يحاول أن يطبق جميع أعماله على هذا القصد، بحيث يتحول سلوكه إلى مدرسة للتربية في هذا المجال.

المنهج العبادي

لكن بالإضافة إلى ذلك كله كان الإمام الحكيم قدس سره يلتزم بمنهجه اليومي بالعبادات والمستحبات التي أكد عليها الشارع المقدس بشكل خاص، والتي

---

(1) من الطريف في هذا المجال ما يروي عن احد أعلام هذه المدرسة السيد الحبوبي: انه كان يحضر بعض مجالس إنشاء الشعر في المناسبات، وكان يتفاعل مع الشعر من خلال إظهار الاستحسان وطلب اعادة الشعر بشكل علني، فقيل له في ذلك أن هذا لا يتناسب عرفاً مع مقامكم الروحي والاجتماعي، فأجاب: باني اقصد القربة إلى الله تعالى بذلك لأني أدرك مقدار السرور الذي ادخله على الشاعر عند إظهاري الاستحسان، وهو إنسان مؤمن بذل جهداً في شعره ونظمه..(**المؤلف**).

يمكن أن نشير إلى بعضها في العناوين التالية:

- قراءة القران الكريم.
- الصلاة في أول الوقت.
- النوافل اليومية، ولاسيما نافلة الليل والصبح والمغرب والعشاء.
- التعقيب بعد الصلاة، ولاسيما صلاة الصبح حتى طلوع الشمس.
- الأذكار المستحبة اليومية.
- صلاة الجماعة.
- زيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام.
- الصدقة.
- صلة الأرحام.
- صلاة أول الشهر.
- صلاة جعفر.
- قراءة الأدعية الخاصة في الأيام والأسبوع، كدعاء كميل، وأدعية الصحيفة السجادية، وأدعية الأيام.
- صلاة تحية المسجد[1].

---

(1) لقد كان الإمام الحكيم قدس سره يعطي أهمية خاصة لهذه المستحبات بالخصوص، ويلتزم بها ويحث عليها، حتى انه كان يلتزم بصلاة الجماعة مأموماً، وهو في مستوى المراجع، وقلما يحصل ذلك في العلاقات الاجتماعية، وكما كان يحثنا عليها، وهكذا في قراءة القرآن والزيارة. كما أنه كان يلتزم بأداء العبادات المستحبة منذ بداية عمره، وحتى قبل البلوغ، فقد حدثني أحد كبار السن من أبناء الأسرة، قال: كنا في ليلة عرس ابن خالة المرحوم الإمام الحكيم، وأخ زوجة الإمام الحكيم الأولى، وكان السيد وقتها طفلاً، ونحن كذلك، وفي ليلة العرس⬅

٢) التواضع

لقد مر الحديث عن الإمام الحكيم انه كان في عموم حياته متواضعاً في المأكل، والمشرب، والملبس، والسلوك الاجتماعي العام.
ولكن مع كل ذلك لابد من الإشارة إلى أن الإمام الحكيم كان يتوخى

➡ترى الأطفال يلعبون – خصوصاً في تلك الأدوار التي يجتمع فيها الناس – وبينما كنا نلعب كان السيد يتفرج علينا– وكان الوقت صيفاً –، ثم أردف قائلاً: وفي منتصف الليل افتقدنا السيد (السيد الحكيم) من بيننا، فأخذنا نفتش عليه في السطوح، حيث كانت بيوت الوقف للأسرة في محلة العمارة متجاورة، حتى وجدناه واقفاً في زاوية من زوايا أحد السطوح يصلي صلاة الليل، فاندهشنا لذلك، وعرفنا أن له شأناً يختلف عنا فيه.

وقد مرض الإمام الحكيم قدس سره مرضا شديداً في أواخر أيام حياته، وذهب إلى لندن للمعالجة، وأجرى عملية صعبة، وكنت أتناوب في المبيت إلى جانبه مع الأخ الحجة السيد محمد رضا، وكنت ألاحظ فيه – مع شدة حاله في المرض والذي يكاد أن لا يستفيق منه – انه يسألني طول الليل عدة مرات، كلما أفاق عن دخول وقت الصبح، ليؤدي صلاتها في أول الوقت. لقد كان الإمام الحكيم ملتزماً بمساعدة أهل بيته واحترامهم، فهو بالرغم من اشتغاله بطلب العلم بدرجة عالية، كان ملتزماً بالذهاب بشكل رتيب لمساعدة أخته الكبيرة في بيتها، حيث كانت قد فقدت زوجها، ولديها أطفال صغار، فكان يصعد بالفراش قرب الغروب على عادة النجفيين وغيرهم، في المبيت (النوم) على السطح في الصيف، أيضاً كان يجمع أهل بيته في وليمة سنوية، في ليلة السابع من محرم (ليلة العباس عليه السلام)، وكان يتفقد الفقراء منهم مالياً واجتماعياً، ويحترم كبارهم، ويزورهم عندما تتهيأ له الفرصة لذلك.

لقد كان الإمام قدس سره يقوم بالتدريس في المساجد – عادة – ولكنه كان ملتزماً بصلاة تحية المسجد كلما دخل إليها للدرس، ولم أشاهد ذلك في احد من المدرسين الذين عاصرناهم..(**المؤلف**).

ويسعى أخلاقياً لأن يعبد الله بالتواضع في سلوكه، حيث يرى التواضع تعبيراً عن العبودية لله، والذلة أمام يديه، كما أنه يرى التواضع صفة مهمة في الإنسان المؤمن، يحبه الله تعالى ويميزه على غيره في عملية الاستبدال، كما وصفه الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[١].

فهو يحترم المؤمنين ويتواضع لهم، فيقوم للشيوخ، وكبار السن، وللفقراء، ولطلبة العلوم الدينية المستضعفين.

وكان يمنع من السير خلفه في الاماكن العامة إلا للضرورات، ولم يضع الحاجب على باب داره[٢]، بل وحتى على باب غرفته إلا في السنين الأخيرة

---

(1) المائدة: ٤٥

(2) كان الإمام الحكيم – ومن كان يسكن النجف يعرف هذا الشيء – مع أعماله الكبيرة، وأتعابه، وعجزه، وسنه، وشخصيته، يمارس علاقاته الاجتماعية. ومثال على ذلك: كان لا يدخل أحد من طلبة العلوم الدينية عليه إلّا ويقوم له حتى ابتلاه الله سبحانه بمرض القلب وهو في سن السبعين. وعندما يدخل عليه أحد الطلبة – صغيراً أو كبيراً – كان يقوم له احتراماً وتقديراً. ولم يكن قد مدّ يده في حالة توحي بقبوله لتقبيلها، وإنما كان يمدها للمصافحة فقط. وكان لا يكتب له أحد رسالة إلّا ويجيب عليها بنفسه، حتى وإنْ طالت ولم يتمكن من الإجابة عليها بنفسه يجيب عنها الآخرون وهو بدوره يصححها ويجيب. ويوقع على هذه الرسائل حتى في الأيام الأخيرة من مرجعيته، من أجل أنْ يبقي العلاقات بينه وبين الناس. وكذلك بالنسبة للتعزية أو التهنئة التي يُبعث بها إليه، أو مراسلات الجنود البسطاء، والمرضى، والسجناء، يجيب عن كل ذلك، من أجل أنْ يوجد علاقات مع المؤمنين.

كان يجلس كل يوم ثلاث مرات لاستقبال الناس بدون استئذان، بعد أنْ تفتح الباب لدخولهم صباحاً إلى الظهر، وعصراً إلى المغرب وبعد صلاتي المغرب والعشاء. وفي أيامه الأخيرة عندما كان ضعيف البنية يجلسُ مرتين – مرة بعد الظهر ←

من حياته عندما اتسعت مرجعيته؛ ولتنظيم عملية الدخول عليه في الغرفة والاستفادة من الوقت، وحفظ أسرار بعض الداخلين عليه، الذين لهم حديث خاص.

وكان يتجنب كل مظاهر العظمة أو الجاه أو الدعاية والإعلان، وكل مظاهر التشريفات.

وعندما يدخل المجالس العامة، كان يحاول أن يجلس حيث انتهى به الجلوس، ويكاد لا يشعر أحد في دخوله.

وهكذا كان أثناء زيارته للعتبات المقدسة، حيث كان يمنع من القيام

➡وأخرى بعد المغرب - فيدخل عليه الغني والفقير، من أجل أنْ يرتبط بهؤلاء الناس، ويعرف مشاكلهم وقضاياهم، فيخرج للصلاة في جامع الهندي، ويخرج معه من كان في مجلسه للصلاة، وعندما يحس بخفق النعال والأحذية خلفه، كان يلتفت إليهم في الطريق ويصرفهم بأدب، حيث يسألهم هل من حاجة ؟ وعندما يجيبون بالنفي، كان يطلب منهم الانصراف والتفرق، وهكذا كان يصنع عندما ينصرف من الدرس أو إلى الدرس، حيث يسايره بعض طلابه، وهكذا كانت زياراته للعلماء والمرضى والفواتح العامة.

والبعد الاجتماعي من الأبعاد الأساسية التي أوصى بها الأئمة(عليهم السلام)وصية كبيرة، وكذلك بالنسبة للأشخاص البعيدين عنا، وحتى أبناء العامة، ويقولون (عليهم السلام) (احضروا جنائزهم، زوروا مرضاهم)، وكان الإمام الحكيم يقول: أنتم تحتاجون الناس.

ومن جملة الأمور التي أذكرها بهذا الصدد أنه كان يوصي كل طلاب العلوم الدينية الذين يسافرون إلى الحج، ويقول: ابقوا على عمائمكم ولا تنزعوها حتى يعرفكم الناس من المؤمنين الشيعة، وذلك عند حاجتهم إلى مسألة من المسائل... ابقوا مع هؤلاء الناس وعاشروهم وارتبطوا معهم..(**المؤلف**).

ببعض الأعمال التي تلفت إلى وجوده أو احترامه، كما كان يمنع من مضايقة الزائرين، وفتح الطريق أمامه في زحامهم[١]، وكان يتفقد أحوال الضعفاء منهم بالسؤال والاستفسار.

ولقد كان هذا النوع من السلوك الذي يسايره في جميع تصرفاته وأعماله وأوضاعه، موضع إعجاب وتقدير ومودة وتمييز[٢].

١. حسن المعاشرة

كان من الصفات البارزة في شخصية الإمام الحكيم، حسن المعاشرة للناس بلطف، وأدب رفيع، ووقار، وهيبة.

فهو يبسم ويظهر البشاشة لمن يلتقي بهم، ولكن دون مزاح، ويحاول أن يبدأ بالحديث والسؤال لإزالة الكلفة من الزائر أو الذي يلتقي به، حتى لو كان إنسانا بسيطاً، وكان يبدأ بالسلام على المؤمنين، أو من يلتقي بهم في الطريق، حتى أن بعضهم يفاجأ بذلك، كان يحسن للمسيئين إليه، ويستغفر لهم. ولا يتحدث في مجلسه بما يسيء لأحد من الناس أو

---

(1) مثلا عندما يريد الدخول إلى حرم الإمام الحسين عليه السلام في أيام الزيارات وازدحام الناس فيها– وهو ضعيف البدن، وفي أيامه الأخيرة ومرضه – يجتمع الناس؛ ليقبلوا يديه كما هو متعارف، فيحاول الأشخاص المرتبطون بالسيد الحكيم أن يمنعوا الناس من التضييق عليه، فيمنعهم من ذلك، ويقول: إنه لا يجوز أن تدفعوا زائر الإمام الحسين عليه السلام، وإنّ حقي في حرمه كحقهم ليس أكثر..**(المؤلف)**.

(2) كان إلى جوار بيت الإمام الحكيم وفي طريقه (خباز)، وكانت تتناثر قطع الخبز الصغيرة من أيدي المشترين، وتسقط على الأرض، وعندما يمر الإمام الحكيم قدس سره عليها في طريقه، كان ينحني؛ ليلتقطها ويضعها في فمه تواضعاً لله واحتراماً للخبز، وهذه النعمة الإلهية، وهكذا كان يصنع الشيء نفسه مع ما يسقط على المائدة من طعام..**(المؤلف)**.

يجرحه.

لقد كان من الصعوبة بمكان، حتى لمقربيه أن يميزوا بين من يحبهم الإمام الحكيم و بين لا يحبهم من عموم الناس وأوساط الحوزة العلمية، حيث كان يتعامل معهم جميعاً بالاحترام والإكرام والبشاشة، ويميز بينهم بالعلم والفضل.

لقد كان أحد الأشخاص من أهل العلم يتحامل بقسوة على الإمام الحكيم في بعض الأدوار ومع ذلك يرسل إليهقدس سره المال فقيل له ذلك، فقال: إن فلاناً متدين في ما اعهد، وهو عندما يتكلم علي بفعل ذلك؛ لأنه يعتقد بما يقول، وان كان مخطئاً في الواقع؛ فلذا لابد من أن أرعى ذلك فيه.

لقد كان الأدب الاجتماعي الرفيع العالي الذي يتصف به الإمام الحكيم من مقومات حسن المعاشرة هذه، سواء على مستوى المجالات العرفية التي أمر الشارع المقدس بها، حيث لم يتخلَّ الإمام الحكيم عن ذلك حتى في أحرج الأوقات، كما أشرنا سابقاً.

كما لم نلاحظ - وذكر ذلك بعض مقربيه أيضا - الإمام الحكيم يقهقه في ضحكه، أو يمزح بشكل حاد، وإنما كان يبتسم، عندما يرى ما يثير الضحك ويتفاعل معه بأدب عالٍ، يجمع فيه بين حسن المعاشرة والمسايرة، ولطافة الذات، والمشاعر الإنسانية، والأدب الرفيع، وضبط النفس.

كما كان يتمثل هذا الأدب الرفيع في حسن المعاشرة في تعامله مع

أهل بيته وأولاده، فهو لم يكن يثقل عليهم بشيء ولا يكاد يكلفهم بشيء[١]يرتبط بشخصه إلا في حدود الضرورات، ولا يحملهم ما يضيق عليهم أو يصيبهم في العنت، ولا يتدخل في شؤونهم الخاصة إلا في حدود التربية الهادفة، وقد أشرت إلى بعض المعالم في هذا الجانب في تربيته لأولاده، ومن الأمثلة في هذا الباب، كان يعلم أولاده الأدب في التعامل وحسن المعاملة فيما بينهم، وبما يحفظ أخوتهم في لطف ومودة ووقار.

فعندما كنا نادي احدنا باسمه المجرد، كان يطلب منا إضافة كلمة (السيد) إلى اسمه[٢]، وهي تعني الانتساب إلى رسول الله ﷺ، كما كان يطلب احترام الصغير للكبير، فكان أحدنا يقبل يد الأكبر في الأعياد

---

(1) لقد كان السيد يتمتع بأدب عجيب في هذا المجال، وقد يستغرب الإنسان بعض المسائل، باعتبار أن الوضع الاجتماعي للناس تطور كثيراً، والذي يلاحظ تلك الفترة يعرف أهمية ذلك.لقد كان يحاول – على ما لمسته منه – أن لا يكلف أحد أولاده بأيعمل حتى الأعمال الجزئية، وكان يقوم بأعماله بالقدر الممكن، حتى أنه في أيامه الأخيرة عندما كان يريد أن يشرب الماء يقوم بهذا العمل بنفسه ولا يكلفنا بشيء، وكنا نقول له: إذا كنت تريد حاجة كلفنا بذلك، فنحن شباب وأنت شيخ كبير، فكان يقول: لا، مادام الله سبحانه منعماً عليّ بالصحة والعافية التي أتمكن بها من تناول الماء فلا أكلف أحداً. وكان يربينا بهذا الأدب الذي يمثل جانب الثقة بالنفس، والاعتماد على الله تعالى، وعلى النفس..**(المؤلف)**.

(2) عندما كنا صغاراً كان بعضنا يخاطب البعض الآخر باسمه الصريح، مثلا، أنا أقول لأخي: مهدي، وهو يناديني باسمي، وكان فارق العمر بيننا أربع سنوات –، فقال لي السيد: يا ولدي، هذا سيد ابن رسول الله وأنت تناديه: مهدي، تكلم معه بلغة مؤدبة، وقل له: يا سيد مهدي، لحفظ المودة بينكما..**(المؤلف)**.

الدينية، وفي مناسبات السفر الطويل، كالسفر لبيت الله الحرام وغيرها، والكبير يحنو على الصغير، ويعامله بحب، تعبيراً عن المعاشرة الحسنة.

وكانت هذه الآداب والالتزامات صفة متميزة في علاقات الأسرة.

حسن العشرة مع المراجع الآخرين

ومن جملة الخصوصيات ذات الأهمية في شخصية الإمام الحكيم، هي علاقاته بالمراجع، فكل الأخوان الذين عاشروه كانوا يرون هذا السيد العظيم يهتم كثيراً في أن تكون علاقته طيبة مع باقي المراجع، وأن لا تكون بينه وبينهم أية حزازة، وقد قدم كثيراً من التضحيات في سبيل ذلك.

وأذكر هنا ما شاهدته في حياتي، ففي بداية مرجعية الإمام الحكيم كان المرحوم الشيخ رضا آل ياسين أحد المراجع المعروفين - وهو أكبر سناً من الإمام الحكيم - قد ذاع صيته وانتشر في المنطقة الشرقية للجزيرة العربية - أي في الأحساء والقطيف- بينما ذاع صيت الإمام الحكيم في العراق، وكان الناس يرجعون إليه في المناسبات العامة كرؤية الهلال. وكان السيد يحافظ كثيراً على علاقته بالشيخ رضا آل ياسين.

ولقد حاول بعض الأشخاص التفرقة بين السيد والشيخ آل ياسين - وإن شاء الله لم يكن ذلك عن خبث، وإنما كان عن اجتهادات خاطئة - إلاّ أن الإمام الحكيم كان يهتم ببقاء العلاقة جيدة بينهما، فكانا يتزاوران - وإن كان هذا نادراً بين المراجع، بسبب أوضاعهم الخاصة، وانشغالهم، وكبر سنهم - وكذلك كان الشيخ آل ياسين يهتم

بهذا الجانب، وكان في أيامه الأخيرة يركب حماراً - لأنه عاجز - ويأتي لزيارة السيد المرحوم.

في مرة من المرات كان السيد الحكيم في كربلاء - وكان ذلك في شهر ذي الحجة - والشيخ آل ياسين في النجف، وعندما ثبت عنده رؤية الهلال أعلن ذلك للناس، فقال بعض الأشخاص للسيد الحكيم: إن هذا تجاوز على موقعيتك كمرجع؛ لأن الناس يلجأون إليك، ويأخذون الفتوى منك، فأعلن الإمام الحكيم تنفيذ حكم الشيخ آل ياسين بدون أي تردد، وبدون أي مراجعة، حتى أنه لم يسأل الشيخ آل ياسين عن كيفية ثبوت الهلال عنده.

وعندما توفي المرحوم السيد مهدي الشيرازي - وكان من المراجع المعروفين لكن مرجعيته كانت محدودة، ولا أقصد من ذلك التقليل من شأنه، فهذه قضية واقعية، وقد يكون عند الله أفضل الناس، ولكن أقصد أن مقلديه قليلون - ذهب الإمام الحكيم إلى كربلاء، لتشييع جنازته، لكي يعطي دعماً للأوضاع الدينية في كربلاء، حتى لايتضعضع الوضع الديني والروحي هناك، وهذه أول مرة أسمع بها في تاريخ المراجع.

وهكذا كان السيد الحكيم يهتم بزيارة المراجع، وكثيراً ما يهتم بزيارة المرحوم الشيخ عبد الهادي الشيرازي، خصوصاً حينما يسمع أن هناك فجوة بين المراجع، فكان يقوم بالزيارات، ليحافظ على الروح العامة، وهذا درس أخلاقي نتعلمه من مراجعنا، فإذا كان بين مراجعنا هذا النوع من الاحترام، فلابد أن نكون نحن أكثر احتراماً

فيما بيننا، ويجدر بنا كطلاب حوزة أن ننتبه إلى هذه الخصوصية، حتى وإنْ كانت لدينا ملاحظات على (س) أو (ج) من المراجع، وهذه الملاحظات يجب أن تبقى في صدورنا، وفي حدود النقد الموضوعي، ولا يصل الحد إلى التشهير والإهانة والتوهين، والتقليل من شأن هؤلاء المراجع الذين هم على خط أهل البيت عليهم السلام.

٤) الإتقان والنصيحة في العمل

لقد كان الاتفاق في إنجاز العمل، والمثابرة عليه، والنظم في الالتزام بالأوقات والاستفادة منها، من الصفات التي تميز شخصية الإمام الحكيم قدس سره، كما كان لهذه الصفة تأثيرها الواضح في نجاح الأعمال وصلاحها، وفي الأشخاص الذين يتفاعلون مع الإمام الحكيم أو يتعاملون معه.

حيث كنت ألاحظ في السلوك العام للإمام الحكيم حرصه على الوقت والمواعيد، وحرصه في أداء العمل عند استقبال الناس، وقضاء حوائجهم، على أن يتم ذلك بدقة يتوفر فيها رضا الله تعالى، ورضا هؤلاء الناس.

كما انه عندما كان ينجز الأعمال، كان يلاحظها بدقة، ويعيد النظر فيها، من أجل ضمان عنصر الإتقان والأحكام والنصيحة للمؤمنين، وأحيانا كان يبدو انه يدخل في التفاصيل من أجل الوصول إلى هذا الهدف، والأمثلة على هذا الجانب الأخلاقي فيه كثيرة، أشير إلى بعضها:

١. عندما كان يستقبل الإمام الحكيم بعض الشخصيات، خصوصاً الغريبة عن الأوساط الدينية، كنت ألاحظ أنه يبذل جهداً استثنائياً،

وأحياناً كان يظهر عليه التعب من ذلك؛ وذلك بسبب الحرص على إنجاز هذا اللقاء بقدر عال من الإتقان، بحيث يحقق أهدافه من التأثير في هؤلاء الأشخاص، والمحافظة على الموقع المعنوي والروحي للمرجعية الدينية، والسيطرة على مشاعر عدم الميل الطبيعي للقاء هؤلاء الأشخاص.

٢. كان الإمام الحكيم يباشر بنفسه أحياناً تصفية حسابات الحقوق والذمم الشرعية أو تركة الأموال لبعض المؤمنين، الذين يرجعون إليه من الأحياء أو الأموات من خلال أوصيائهم، وفي هذا المجال كان يبذل جهداً استثنائياً، ودقة بالغة في إفراغ الذمة من هذه الحقوق الشرعية، بحيث يتقصى فيها الاحتمالات والشبهات والإشكالات من ناحية، والسؤال عن مصدر الأموال وكيفية حصولها من ناحية أخرى، ثم العمل على توضيح الحكم وخلفياته، والاكتفاء بالحد الأقل الممكن من الحق من ناحية ثالثة، بحيث يجمع بين الاحتياط في فراغ الذمة، والتخفيف عن المؤمنين، وتسهيل عملية الدفع والحفاظ على حق الورثة، ولاسيما القاصرين، كل ذلك نصيحة للأموات والأحياء، مع أنه كان من الممكن الاكتفاء بالظاهر أو باظهارات الشخص. وهكذا الأمر عندما كان يدفع له بعض الأشخاص أموالاً كهدية، وهم لا يعرفون أحكام الحقوق الشرعية، فكان يسأل عن وجه المال، ثم يشرح له المسائل الشرعية المتعلقة به، ويطلب منه دفع المال من الحقوق؛ لتفرغ ذمته منها، ويعلمه كيفية النية والقصد للدفع، ويجمع بذلك بين إفراغ الذمة، وتعليم المؤمنين الأحكام الشرعية، وقد

كان يأخذ منه وقتاً طويلاً، ولكنه كان يشعر بالمسؤولية تجاه مثل هذه الأمور التي تبدو أنها صغيرة.

٣. عندما كان يكتب الإمام الحكيم قدس سره (كتاب المستمسك)، كان يعيد النظر في نص العبارة التي يدونها أكثر من مرة؛ ليتأكد من دلالتها على المقصود وحدود هذه الدلالة، مع الاهتمام باختصارها، ودقتها، وشمول مضمونها، نصيحة منه للعلماء والطلبة، ولذا نلاحظ هذه الصفة واضحة جلية في هذا الكتاب الجليل يتميز بها على الكتب الأخرى.

٤. كان الإمام الحكيم يجلس لإنجاز أعماله عدة ساعات متواصلة يومياً، ولا يكاد يؤجل عمل اليوم إلى غدٍ، حتى يذهب في الليل إلى القسم الأخير منه، وكان يقسم أعماله بين أوقاته بدقة، فقسم لاستقبال الناس، وقسم للكتابة، وقسم لأجوبة الاستفتاءات، وقسم لمناقشة الأمور المختلفة المرتبطة بأعمال المرجعية والحوزة العلمية، وقسم للتدريس والتأليف، وقسم للعبادة، وقسم آخر للراحة؛ لأنه يشعر بالمسؤولية تجاه هذه الأمور كلها.

٥) الشجاعة والتضحية

ومن المعالم الأخلاقية في شخصية الإمام الحكيم قدس سره، هي الشجاعة، والتضحية، والفداء، والبذل، والعطاء في سبيل الله، ويمكن أن نلمس هذا المعلَم بوضوح من خلال مجمل أعماله الجهادية، التي تحتاج إلى بحث واسع لاستيعابها، حيث نرى في الإمام الحكيم: شجاعته من خلال جهاده العلمي، وجرأته في فتاواه الاجتماعية التي تمس مصالح الناس وحياتهم.

كذلك الشجاعة في جهاد النفس والسيطرة على شهواتها في سبيل الله،

من خلال التزامه هذا المنهج الإسلامي في طلب العلم والتصدي للمسؤولية، الذي كان محفوفاً بالمخاطر والفقر والتنازل عن الدنيا وشهواتها.

ونرى شجاعته وهو يشارك في مقتبل عمره بالجهاد العسكري ضد الغزو الإنكليزي للعراق عام ١٣٣٢ - ١٣٣٣ للهجرة المصادف لعام ١٩١٤م، كما أنه بعد الغزو ساهم في المقاطعات السلبية، والرفض لمنهج الحكومات الجائرة والمنحرفة، التي تتالت على حكم العراق، وكذلك رفضه للنفوذ الاستعماري، وباستمرار دون مهادنة حتى سقوط الحكم الملكي.

ثم قاد المواجهة بعد ذلك مع هذه الحكومات، عندما تصدى للمرجعية الدينية، وتمكن أن يحقق إنجازات كبيرة في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية، وتعرض للأذى في سبيل الله، حتى مات ميتةً تشبه ميتة الشهداء والصديقين[1].

صحيح، أنه لم يُقتل كما قتل الشهيد الصدر، أو الشهيد المطهري، أو الشهيد بهشتي، أو الشهيد الأول، لكنه وقف موقفاً أشبه إلى حد كبير بموقف الشهداء. ويمكن أن أقول: إنه مات كمداً من أجل الإسلام. فقد خرج إلى بغداد وهو يقول: أشعر في خروجي هذا أني شهيد. وهذا قول الإمام الحسين عليه السلام عندما خرج إلى الكوفة.

وكان الإمام الحكيم ينتظر الموت والسجن والاعتقال لحظة بعد أخرى، حتى توفاه الله تعالى وهو في مثل هذه الظروف. كان ينتظر الشهادة على يد الملحدين المرتدين الظالمين الذين تنكروا للإسلام،

---

(1) موضوع الجهاد السياسي لمرجعية الإمام الحكيم قدس سره يحتاج إلى بحث واسع، نتناوله في الفصل الثالث من الكتاب ان شاء الله.

وخرج من الدنيا وهو يدافع عن الإسلام.

الفصل الثاني

الجانب العلمي

والمميـزات الخاصــة

يعتبر الجانب العلمي في الإمام الحكيم من أهم الأبعاد في شخصيته[١]، فبالإضافة إلى سيرته الذاتية التي تمثّل القاعدة والأساس للبناء الفوقي في الشخصية، تتمثل الأبعاد البارزة في شخصية الإمام الحكيم بالبعد العلمي، والبعد المرجعي، والبعد الجهادي السياسي،

---

(1) كان الإمام الحكيم منذ صغر سنه يهتم كثيراً بقضية الدرس والتحصيل، وبقي على هذا الحال إلى آخر أيام عمره، بالرغم من مرضه، وشدة ابتلاءاته، وكثرة أشغاله، حتى أنني – الشاب القوي البدن آنذاك – كنت أتعجب منه؛ لأنه مع ضعف بدنه كان عنده هذا الاهتمام بالعلم، حيث بقي يباحث ويدرس ويكتب أبحاثه بشكل مستمر حتى آخر أيام حياته، مع أن عمره كان أكثر من(٨٦) سنة عندما توفاه الله سبحانه وتعالى إلى جواره. وهذا النوع من الاهتمام بالعلم والتحصيل والمراجعة والمطالعة في الليل والنهار كنت أراه عن قرب – وأحيانا – كنت أنام معه في الكوفة بعض الليالي، وعندما أستيقظ نصف الليل وقبل صلاة الفجر أجده يطالع كتاباً، وهذا في الأيام الأخيرة من حياته، وفي أيام الشباب قد ينام الطلبة والشباب – كما هو معتاد – أما هو فقد بقي مجداً حتى في آخر أيامه، ولذلك تمكن أن يؤلف هذه المؤلفات الكثيرة التي تركها بعده، والتي تعتبر من نوادر المؤلفات الفقهية والأصولية ومختلف العلوم الإسلامية. وفي هذا الجانب أتذكر شهادة للمرحوم آية الله الشيخ حسين الحلي، وهو أحد العلماء الكبار والأساتذة في النجف الأشرف، إذ يقول: عندما أردت أن أكون أحد طلبة العلوم الدينية وأرتدي زي العلم في النجف، كنت أسمع عن وجود شخص باسم سيد محسن الحكيم – في ذلك الوقت لم يكن السيد الحكيم مرجعاً ولا عالماً معروفاً من العلماء – يمثّل طالب العلم الكامل، وكنت أقف على مفترق الطرق انتظر مجيء السيد الحكيم حتى أراه واعرف حاله، وكذلك يصفه بأنه كان يأتي بوقار واضعاً أحد كتبه الكبيرة تحت إبطه، ويسير بشكل خاص، بحيث إنه كان يعتبر – في شبابه – قدوة للطلبة في الدرس والتحصيل، وفي أيام شيخوخته كذلك. حيث كان يمثل احد المعالم الإسلامية في شخصية المرجع، وشخصية طلبة العلوم الدينية في هذه المسيرة..(**المؤلف**).

حيث أنَّ الأعمال العلمية للإمام الحكيم قد أخذت حيزاً واسعاً من حياته، ووقته، وشخصيته، فقد أحصى بعض المؤلفين في شخصية الإمام الحكيم مؤلفاته فبلغت (٢٤) مؤلفاً[١]، تتناول موضوعات مختلفة من العلوم الإسلامية، الأمر الذي يدلل على هذه الحقيقة خصوصاً إذا عرفنا أنه كتب بعض مؤلفاته مرتين كما هو في شأن بعض أجزاء (المستمسك) ولكن أهم مؤلفاته المطبوعة يمكن أن نحصيها في المؤلفات التالية:

١) **مستمسك العروة الوثقى:** وهو شرح استدلالي للقسم الأول من العروة الوثقى للسيد الطباطبائي اليزدي في أربعة عشر جزءاً[٢].

٢) **حقائق الأصول:** وهو شرح استدلالي لكفاية الأصول للمحقق الخراساني في مجلدين.

٣) **نهج الفقاهة:** وهو شرح استدلالي لكتاب البيع للشيخ الأنصاري في مجلد واحد.

٤) **منهاج الصالحين:** وهو رسالة عملية مفصلة، تتناول الفتاوى الفقهية في مجلدين، وقد أصبح موضع اهتمام خاص من قبل المراجع الدينيين المتأخرين عن الإمام الحكيم، في التعليق على مسائله، وفي تكملة بحوثه، وفي الشرح الاستدلالي لهذه المسائل.

٥) **دليل الناسك:** هو شرح استدلالي مختصر ومركز لرسالة الحج التي كتبها أستاذه المحقق النائيني، مجلد واحد.

---

(1) راجع معارف الرجال ٣: ١٢١–١٢٧، (الهامش).

(2) هناك شرح استدلالي على القسم الثاني للعروة، مدون في الهامش لازال مخطوطاً..(**المؤلف**).

ويحتاج تعريف هذه الكتب إلى حديث واسع، ولكن لابد أن نشير إلى أنَّ أهمَّ هذه الكتب والذي حضي باهتمام بالغ وواسع في الأوساط العلمية هو كتاب (المستمسك)، الذي يعتبر بحق أهم موسوعة مركزة فقهية كتبها عالم بقلمه بعد كتاب (الجواهر) المعروف[1]، للشيخ النجفي.

إلا أنّ هذا الكتاب - مع الأسف - يشكو من نقص واضح، وهو أنه لا يمثل دورة فقهية كاملة؛ لأن كتاب العروة الوثقى الذي يمتاز بكثرة الفروع الفقهية ودقّتها لا يتناول جميع أبواب الفقه.

وأحد جوانب النقص فيه هو كتاب الحج، حيث أن المؤلف يتناول فيه أبواب الحج إلى كيفية الإحرام فقط.

ولذا يعتبر (دليل الناسك) مكملاً في هذا الجانب لكتاب (المستمسك)، بالإضافة إلى خصوصية هامة فيه تمثل هدفاً للمؤلف، وهي: أن الإمام الحكيم تناول أبحاث الحج بطريقة استدلالية متينة ومختصرة، يركن إليها الباحثون، وقد جمعها في مجلد واحد، وهذا العمل يعتبر من الناحية العلمية والفنية في غاية الأهمية.

والمهم في هذا البحث هو التعرف على الخصائص العلمية - بصورة مختصرة- التي كان يمتاز بها الإمام الحكيم ونهجه في البحث والتدريس.

---

(1) أذكر أنني كنت ذات يوم في زيارة لآية الله العظمى الشيخ المنتظري، وكان يطالع الكتب كعادته فقال: يوجد عندي كثير من التعليقات، لكن هذا المستمسك جعلنا (بطّالين) فنحن نسعى لتحصيل القضايا، ولكن عندما نراجعه نجد تلك القضايا التي نريدها موجودة فيه..(**المؤلف**).

الفقه والأصول

يمكن أن نقول: بأن الفقه والأصول كانا محور الاهتمام العلمي للإمام الحكيم، وقد أخذ من غيرهما المقدار الذي يمثل مقدمة عامة للفقه سواء في علم الحديث، أم التفسير، أم الرجال، أم اللغة والنحو والصرف، فضلاً عن غيرها من العلوم الإسلامية، وذلك بالرغم من أننا نجد في عناوين بعض مؤلفاته ما يشير إلى اختصاصها ببعض هذه العلوم، ومن هنا نجد الإمام الحكيم قد أولى الفقه أهمية خاصة، وبرع به، وامتاز وعرف بين العلماء والمراجع بهذا الجانب، وكان موضع إعجاب وثناء وتقدير من قبل العلماء والباحثين، وتعتبر آراؤه في الفقه موضع بحث وتداول لدى كبار المجتهدين في بحوث درس الخارج.

والشيء المهم في هذا المجال أن آراءه أخذت طريقها إلى الأوساط العلمية بطريقة موضوعية، دون تأثر بموقعه المرجعي المتميز، أو موقعه كأستاذ يعتز طلابه بالأخذ عنه، حيث أن كثيراً من هؤلاء الباحثين أما من المقاربين للإمام الحكيم في الطبقة العلمية، أمثال آية الله العظمى السيد الخوئي، وغيره من كبار الأساتذة والمدرّسين، أو من طلاب المدارس الأخرى والعلماء الآخرين.

وقد كان طريق هؤلاء إلى رأيه كتبه وأبحاثه التي لاقت رواجاً تدريجياً في هذه الأوساط[1]، خصوصاً أوساط الحوزة الإيرانية في النجف، وقم والتي

---

(1) من الجدير بالذكر الإشارة إلى أن المستمسك عندما صدر الجزء الأول منه سنة (١٣٦٦هجرية) لم يحظ باهتمام بالغ، بل حاولت بعض العناصر المحسوبة⬅

تعتبر - بشكل عام - من الأوساط المتقدمة علمياً[1].

وفي هذا الجانب يمكن أن نلاحظ مجموعة من المميزات في فقه الإمام الحكيم، والتي تشكّل في مجموعها مدرسةً متكاملة، بالإضافة إلى متبنياته الأصولية والرجالية والحديثية العامة.

ويمكن تلخيص المميزات بالنقاط التالية:

الدقة والفقاهة

الأولى: الجمع بين الدقة في الاستنباط والتزام المنهج العلمي الذي يعتمد على الضوابط والأصول المقررة من جانب، والفقاهة في فهم النص وظروفه، وما يسميه الإمام الحكيم بالارتكاز العرفي، والذوق العام من جانب آخر، والعمل على إيجاد الموازنة بينها، وتفسير احدها بالآخر.

وهذا العمل في الحقيقة يمثل محاولة للجمع بين مدرستين مهمتين في الفقه، خصوصاً بعد أن تطور علم الأصول، وغرق في بحر الفرضيات والاحتمالات والجزئيات، بحيث ألقى بضلاله الثقيلة على الفقه، وفهم النصوص والظواهر، وعملية التجريد للنص.

وهاتان المدرستان هما:

➥على الحوزة العلمية التشهير بالإمام الحكيم باستخدام منشورات تحريضية ضد كتاب المستمسك؛ لأغراض سياسية، باسم (الهيئة العلمية) حيث وزعت منها عشرات الآلاف وفي سنين متعددة. ولكن مع ذلك نجد المستمسك يشق طريقه إلى الأوساط العلمية الخاصَّة – كما أشرت – فضلاً عن عموم العلماء والباحثين..**(المؤلف)**.

(1) لقد كان الإمام الحكيم يعلق أحياناً على اهتمام هذه الأوساط المتأخرة بالمستمسك أنها أدركت عمق فضله وعلمه. ولعلَّ السبب هو أنَّ هذه الأوساط (كوسط عام) كانت متميزةً بالتقدُّم العلمي والكثرة والانتشار..**(المؤلف)**.

المدرسة التي تعتمد على ظهور النصوص والمقارنة بينها، واستنباط الحكم الشرعي من خلال فهمها، دون تحليل مفرداتها على ضوء المصطلحات والنتائج الأصولية.

والمدرسة الأخرى التي اعتمدت على الفكر الأصولي التحليلي للنصوص، وتطبيق نتائج الأبحاث الأصولية، حتى لو كانت غير منسجمة مع الفهم العرفي العام للنص.

الاستنباط من موقع المعايشة الاجتماعية

الثانية: القيام بعملية الاستنباط من موقع الممارسة الفعلية والمعايشة الحقيقية للمشاكل والحوادث والوقائع، سواء في دور البناء العلمي قبل المرجعية، أم في دور المرجعية العامة.

حيث أن الإمام الحكيم لم يكن مرجعاً عاماً تحققت له معايشة المجتمع العامة من خلال المرجعية فحسب، بل كان يعيش علاقات اجتماعية واسعة قبل مرجعيته شخصياً، إلى جانب عمله العلمي في الدور الأول من حياته، وشاهد ظروفاً سياسيةً مختلفة، ومر بأدوار عديدة، واصطحب بشكل مباشر مستويات من الناس متفاوتة في وضعها الاجتماعي والثقافي ومحيطها الحياتي، من الفلاحين، والعمال، والتجار، والجنود، والطلبة، والعلماء، وأصحاب البيوتات من المدن، وأبناء العشائر والقبائل في الريف، ومن العراقيين، واللبنانيين، والإيرانيين...وقام بعدة أسفار إلى لبنان، وفي داخل العراق.

إنَّ هذا المستوى الواسع من المعاشرة الميدانية للحياة إلى جانب المستوى العلمي المتميز تجعل الفقيه ينظر إلى الحوادث والمشاكل من بعدين مترابطين:

أحدهما: البعد العلمي الذي يستوحيه من الأدلّة الشرعية والنصوص الشريفة.

وثانيهما: البعد الاجتماعي الذي جاءت الشريعة لبيان أحكامه وحل مشكلاته، والذي يلقي بضوئه على فهم هذه النصوص من خلال قانون مناسبات الحكم والموضوع.

وهذا العمل ضرورة مهمة في عملية الاستنباط، حيث أنَّها تشخّص الحكم الشرعي للموضوعات والقضايا التي يواجهها الإنسان في حياته يستند فيه الفقيه إلى الأدلة الشرعية، وكل منهما لايمكن أن يؤخذ عملية تجريدية فرضية فحسب، بل الأحكام الشرعية بالاصل، وبحسب ورودها جاءت كمعالجة لهذه القضايا الحية، وان لم يكن الحكم مقيداً بها في مدلوله كقضية خاصة خارجية، ولكنها بطبيعة الحال تلقي بخصوصياتها وظروفها على فهم مضامين النصوص، والقواعد الواردة بشأنها - كما هو واضح -.

كما انّ إرجاع الأئمة إلى الفقهاء إنما هو لمعالجة هذه القضايا على ضوء ما ورد في الكتاب الكريم والسنة الشريفة، خصوصاً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الدور الذي لابد للمجتهد أن يقوم به - أيضاً - وبعد تشخيص الأوامر التفصيلية في موارد الولاية: ((**وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله**))[1].

بل إنَّ عملية الاستنباط الفعلي هي عملية استنطاق الكتاب الكريم

---

(1) جاء ذلك في التوقيع المروي بطريق معتبر عن الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف. راجع كتاب كمال الدين وتمام النعمة، باب التوقيعات:٤٨٤

والسنة الشريفة انطلاقاً من الحوادث والقضايا، ثم الرجوع إليها في تطبيق الحكم الشرعي.

والخلاصة انَّ عملية الاستنباط إنما هي عملية تشخيص الحكم للموضوع بعد تحديده وتشخيصه، ولاشك أن المعايشة الحياتية للحوادث لها دور كبير في تشخيص الموضوعات وتحديدها وفي فهم طبيعة الحكم المناسب لها المستفاد من الأدلّة.

ولعل هذا الفهم لعملية الاستنباط هو الذي جعل الإمام الحكيم يهتم بقضية الارتكاز العرفي. كما أنه يفتح آفاقا في عملية الاجتهاد لا يمكن حصرها في العملية التجريدية المحصورة بين النصوص والتصورات والفروض، وقد يضيف للإجتهاد والأعلمية شرطاً جديداً، وبعداً أصيلاً يحتاج فيه إلى مثل هذا الفهم والمعايشة[1].

ا ل ش جا ع ة ا ل ع ل م ي ة

الثالثة: الجرأة والشجاعة العلمية في الوصول إلى النتائج وتبنيها.

فان الإمام الحكيم وان كان يلتزم في مبانيه الأصولية بالإجماع، وكذلك بتأثير شهرة رواية الخبر، وقبوله العام في الفتوى على العمل والأخذ به، وبالتالي فهو يعطي دوراً وأهميةً لآراء العلماء ومتبنياتهم. إلا أنه مع ذلك يفرّق بين حالتين في هذا المجال:

---

(1) قليل هم أولئك المجتهدون الذين يتّصفون بهذه الصفة، حيث نجد الكثير منهم يعيش عزلة اجتماعية، أو ضيقاً في دائرة المعايشة الاجتماعية، وحبساً للنفس والتفكير في إطار النصوص والأوساط العلمية تشبه عملية الممارسة التجريبية التي يجريها علماء الطبيعة، والتي يتميزون فيها – أيضاً – بوجود المختبرات والتجارب..**(المؤلف)**.

إحداهما: حالة افتراض تلقي العلماء والرواة للحكم الشرعي أو خصوصية فيه من الأئمة عليهم السلام ولكن الخصوصية أو الحكم لم تنعكس على النصوص أو القرائن المحيطة بها.

وفي هذه الحالة يولي الإمام الحكيم هذا الأمر دوراً في عملية الاستنباط، ويدخل كعامل مؤثر في هذا المجال.

وثانيهما: حالة تنبع من عناصر ذاتية في المجتهد والعالم، كالاحتياط في مقام الفتوى، والابتعاد عن الشبهات، أو الاستظهار، أو الفهم الخاص للنصوص، والتأثر بالأوضاع الاجتماعية التي كان يعيشها المسلمون في العصور السابقة، أو فكرة تقديس آراء المحدّثين الأوائل والفقهاء السابقين، أو غيرها من العناصر ذات القيمة الذاتية، لا الموضوعية.

فانّ في مثل هذه الحالة نجد الإمام الحكيم يملك الشجاعة الكافية، والجرأة الأدبية لاتخاذ الموقف الحازم في تبنّي النتائج العلمية في الفتاوى والأحكام، ويمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح في عدة فتاوى مهمة للإمام الحكيم، إذا أخذناها في إطار ما يتصف به من روح الاحتياط والتقدُّس:

أ) الفتوى بطهارة أهل الكتاب، وكذلك بصحة الزواج الدائم من نسائهم، حيث كان بعض الفقهاء يتردد في الإعلان عن هذه الفتوى؛ إما لأنها مخالفة للمشهور؛ أو لأنَّ لها مردودات سلبية اجتماعية في أوساط المتدينين والمتشددين تؤدي للإضرار بالمقام الاجتماعي للفقيه.

وهذه الفتوى - بالرغم مما تحمَّل الإمام الحكيم بسببها من مشاكل - إلا أنها كانت أحد الفتوحات الاجتماعية المهمة؛ بسبب ابتلاء المؤمنين الواسع بمباشرة أهل الكتاب في العقود الأخيرة؛ بسبب تطور الأوضاع المدنية من

ناحية، وانفتاح البلاد الإسلامية على العالم الغربي من ناحية أخرى.

ب) إلحاق من عمَلُه في السفر بمن عمله السفر كالموظفين الإداريين، أو عمال الشركات، أو التجار الذين يكون مكان سكناهم بعيداً عن مقر عملهم بما يساوي المسافة المعتبرة بالسفر، وهكذا إلحاق الوطن المؤقت بالوطن الدائم، كالاستيطان المؤقت لطلاب العلوم الدينية، الذين يدرسون في الحوزات العلمية بشكل مؤقت، أو طلاب الجامعات...الخ.

حيث كان الفقهاء - ومنهم الإمام الحكيم سابقاً - يرون أنَّ مثل هؤلاء حكمهم القصر، والإفطار في شهر رمضان، ويفرقون في حكمهم عن أولئك الذين عملهم السفر كالسّاق والملاّحين، وحملة البريد، وعمّال إصلاح السكك الحديدية، ومسؤولي قوافل المسافرين وأشباههم، فحكمهم هو التمام والصوم، وقد أفتى الإمام الحكيم بعد ذلك بأنَّ الحكم هو التمام والصوم بالنسبة إلى جميع هؤلاء من القسمين، وكانت هذه الفتوى من خلال المعايشة الحقيقية لهذه الأعمال حلاً لمشكلات واسعة، كان يواجهها هؤلاء المتدينون.

وقد سار على هذه الفتوى جماعة من الفقهاء الذين جاؤوا بعد الإمام الحكيم، حيث أصبحت هي الفتوى السائدة في أوساطهم.

ج) الفتوى بكفاية الإحرام من حدود الحرم وأدنى الحِل للحجاج الذين يأتون من الآفاق، ممن لا يمرُّون في طريقهم بأحد المواقيت الخمسة المعروفة، أو ما يحاذيها محاذاةً عرفية، كالحجاج الذين يأتون إلى جدة بالطائرات، وكذلك صحَّة الإحرام من هذا الموقع للمعتمر بالعمرة المنفردة.

حيث كان يستفيد من روايات المواقيت أنَّها مختصَّة بمن يمر عليها، أو

يحاذيها محاذاةً عرفيَّة، وهي المحاذاة التي يمر فيها الحاج قريباً من الميقات في حال استقباله لمكة، وبدون ذلك فلا تكون هذه محاذاةً، ولا مروراً بالميقات، وبالتالي فيمكنهم أن يحرموا من أدنى الحل.

ومع قطع النظر عن صحّة هذا الاستنباط وعدمه - فانه موكول للأبحاث الفقهية - ولكنَّ المهم هو الشجاعة والجرأة الفقهية لهذه الفتوى، والذي عالج بها مشكلة حقيقية يعاني منها الحجاج، استناداً لفهمه من النصوص.

والقضية بطبيعة الحال ليست هي وجود حل للمشكلة، وإنما الجرأة في الفتوى عندما يرى الدليل كافياً في الوصول إليها، حتى لو كانت على خلاف ما هو معروف لدى الفقهاء.

وهكذا الحال في الفتوى بصحة السعي في الطبقة الفوقانية للمسعى، حيث يتوقف بعض الفقهاء؛ بسبب الشك بصدق مفهوم السعي بين الصفا والمروة، أو الشك في أنَّ الصفا والمروة كانت مرتفعة بدرجة هذا الطابق، ويرى الإمام الحكيم أنَّ من يسعى من الطبقة الفوقانية، يصدق عليه السعي بين الصفا والمروة عرفاً.

د) الفتوى بحليَّة الأطعمة - وحتى اللحوم فضلاً عن طهارتها - التي تباع في سوق المسلمين عند الشك في التذكية، حتى لو كانت مسبوقة بيد غير المسلم، حيث كان يرى: انَّ سوق المسلمين نفسها أمارة على التذكية.

نعم، مع العلم بعدم التذكية فلا كلام في الحرمة.

ويجد المتتبع لفقهه عدداً آخر من هذه الفتاوى، التي تتصف بمثل هذه الجرأة العلمية.

تيسير الفقه الاستدلالي

الرابعة: العمل على تيسير الفقه الاستدلالي من خلال الدقة في التعبير، والتلخيص للمطولات الفقهية، والجمع للآراء والنظريات المختلفة، مع بيان واضح ميسر يمكن أن يتناوله الفضلاء والطلبة المجدّون بسهولة، فيختصر عليهم الوقت والجهد.

وقد نقل عنه معظم تلامذته[1] أنه كان يقول: إني حينما أريد صياغة النص، أفترض أمامي بعض الطلاب (فلان) أما من عسيري الفهم، أو المدققين في النصوص، ومدى مطابقتها للمراد منها من المعاني، وقدرتها على الإفهام ثم أصوغ النص؛ ليأتي ميسر الفهم لمثل هؤلاء.

وكنت ألاحظ في كتابه المستمسك أنه كان يدقق في كتابة النص لدرجة أنه يعيد كتابته عدة مرات، أو يضيف أو يحذف منه بعض الكلمات والفقرات، وهذا أمر واضح لمن يرجع إلى مسودة كتاب المستمسك بخط المؤلف.

ولعل الجهد الذي كان يبذله في هذا المجال، ولتحقيق هذا الهدف هو أحد أسرار النجاح الذي لاقاه كتاب المستمسك.

ويعتبر كتاب (دليل الناسك) أحد المصاديق البارزة لهذه الميزة الخاصة أيضاً، بل هو في الاختصار أكثر من المستمسك.

المنهج العلمي

لقد كان المنهج العام الذي يتّبعه الإمام الحكيم في الاستنباط والوصول إلى النتائج، له طابعه الخاص من ناحية، وله معالمه وخطواته من ناحية

---

(1) راجع النجف في عصرها الحاضر للشيخ محمد تقي الفقيه:٢٩

أخرى.

ويحسن بنا بيان كل منهما مع قطع النظر عن موضوع التحيز.

أما طابعه العام فهو المنهج الموضوعي الذي يعتمد بشكل أساسي على الدراسة العلمية غير المتحيزة تجاه موضوع البحث، ويطبّق فيه الضوابط والأصول والقواعد العلمية المنطقية، أو التجريبية، أو الأسس المستنبطة لاستخدامها في عملية استنباط الأحكام الشرعية، كما سوف نشير إلى ذلك، ولكن في الوقت نفسه يهتم بالجوانب الروحية، والمعنوية في هذا العمل العلمي.

وقد كان الإمام الحكيم ينظر إلى الاستنباط على أنه ممارسة لأقدس عمل يقوم به الإنسان، بعد الإيمان بالله والواجبات الأساسية، كما أنه هو واجب شرعي لابد أن يقترن بقصد القربة، ليس في التوجه والاختيار العام بل في تفاصيل العملية الاستنباطية، كما سوف نشير.

مضافاً إلى أنه كان يرى: ان الاستنباط يتعامل مع أعظم المقدسات الإسلامية، وهي: الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، والعقل الإنساني الذي فضّله الله تعالى على جميع المخلوقات، ومع الحرمات من النفوس، والديار، والأموال، والأعراض، وغيرها.

وهذا الجانب المعنوي يمثل بعداً مهماً في نظر الإمام الحكيم في منهج الاستنباط، له تأثيره في الالتزام والدقة، وله تأثيره في الهداية والتوفيق للوصول إلى المناهج، ويمكن أن نلخص خطوات هذا المنهج ومعالمه بالأمور التالية:

الأول: قصد القربة في تفاصيل العملية الاستنباطية، والاستعانة بالله

تعالى للهداية إلى الصواب، وهذا القصد من الأمور غير المنظورة للمشاهد، ولكن كان يتحدّث عنه الإمام الحكيم عندما ينصح طلابه ومحبيه، ويقوم ببعض الممارسات المعبِّرة[1] عنه، كالتزامه بصلاة تحية المسجد قبل صعود المنبر للدرس، علماً بأنه كان يلقي دروسه العامة في المساجد، ويمكن أن نلمسه في هذا التوفيق الذي اتصفت به كتبه المطبوعة.

الثاني: أسلوب التفكير بصوت مسموع - كما يعبّرون - حيث كان يطرح الإمام الحكيم في درسه المسائل والأفكار في البداية مجردةً عن الأدلة، ثم يأخذ بإثارة الأسئلة حولها عن صحّة الفكرة، ومدى واقعيتها، والمطالبة بالدليل على هذه الصحة، وجواب الإشكالات، وكان يترك في هذه العملية الفرصة للإثارة والتأمل.

فبالرغم مما نرى في كتاب المستمسك وغيره من كتبه من التنسيق والتبويب، إلا أنّ درسه كان يختلف عن ذلك إلى حد كبير، حيث كان يبدو عليه كأنه يُحَضِّر الأفكار والاثارات حولها والاستدلال عليها أثناء التدريس، ويفكر في صحّتها والإشكال عليها والدفاع عنها. الأمر الذي كان يعطي فرصةً واسعةً للطالب أن يواكب ويتابع التفكير، سواء من حيث الوقت أم الأسلوب.

الثالث: بذل الجهد في إيضاح محتوى الفكرة الأساسية وتأكيدها، خصوصاً إذا كانت لأحد الأعلام الماضين من العلماء، أو توضيحها

(1) أشرنا إلى ذلك في سيرته الذاتية، ويذكره عنه آية الله العلامة الشيخ محمد تقي الفقيه، كما أشار الإمام الحكيم إلى ذلك في رسالته للعلاّمة محمد جواد مغنية..**(المؤلف)**.

وكأنه يؤمن بها، ثم بعد ذلك يبدأ بالتفتيش عن دليلها أو صحتها، وبعد ذلك يبدأ بمناقشتها للوصول إلى النتائج المطلوبة.

فالعملية تأخذ بنظره خطوات ثلاث لابد للباحث أن يطويها حتى يصل إلى هدفه المقصود.

الرابع: التعامل مع آراء الآخرين العلماء باحترام، وتواضع، وأدب رفيع، والتفتيش عن المبررات التي اعتمدوا عليها في تكوين الفكرة أو التزامها، خصوصاً إذا انتهى إلى عدم القبول بها، حيث يُبقي احتمال وجود خصوصيات وقرائن دعتهم إلى الأخذ بها خفية على الباحث، الأمر الذي يجعل الطالب يبذل المزيد من الجهد في البحث والتفتيش عن الدليل والبرهان، لقبول الفكرة أو رفضها، والابتعاد عن روح الاستهانة أو الغرور العلمي.

الخامس: الحرية، والاستقلال في التفكير العلمي، وعدم الانفعال والوقوع تحت تأثير الاحترام أو التعظيم للآخرين، حيث كان يقول: انَّ من الضروري في التعامل مع الأفكار (النظر إلى ما قيل لا إلى من قال)، وان الكثير من الأخطاء وقعت بسبب هذا النوع من الانفعال والتأثر.

السادس: الالتزام بالضوابط والموازين العلمية في الاستنباط، حيث لاحظ بعض الباحثين في منهج الإمام الحكيم العلمي: أنَّ هناك تطابقاً في مسيرة البحث لديه بين الدليل والقاعدة التي يستند إليها، والالتزام الفقهي له وهذا ما عبَّرنا عنه: بالشجاعة الأدبية في الالتزام بالنتائج، على خلاف بعض العلماء الذين لا يلتزمون فقهياً بنفس نتائج البحث

العلمي[1].

إن هذه الأمور الستة بمجموعها تمثل منهاجاً علمياً عاماً، يعتبر من أفضل المناهج العلمية التي تتبناها العلوم في أفضل تطور للمناهج العلمية.

فهو بالإضافة إلى الصفة الموضوعية يمتاز بالجانب الروحي والمعنوي، لكي يؤتي في الوقت نفسه ثماره التربوية المطلوبة، ولذا يمكن أن نقول: بأنَّ الإمام الحكيم كان في منهجه العلمي عالماً، ومعلِّماً، وأخلاقياً.

---

(1) مع علماء النجف:١٢٧– ١٢٨، للشيخ محمد جواد مغنية.

الفصل الثالث

المرجعية الدينية
وملامحها العامة

تمهيد

هناك قضايا تدعوني للكتابة عن مرجعية آية الله العظمى الإمام السيد الحكيم، وتجعلني أهتم بها، أشير إلى بعض منها:

الظروف السياسية التي عاشتها المرجعية

أولاً: إن هذه المرجعية الدينية جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، وشهدت هذه الفترة تطورات سياسية واجتماعية وثقافية على مختلف الأصعدة في العالم الإسلامي.

وكثير منا يعرف التيارات السياسية الجارفة التي شهدتها المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية، من قبيل التيار القومي، والماركسي الشيوعي.

وشهدت منطقة العالم الإسلامي أحداثاً مهمة، وهي أحداث التحرر الشكلي الصوري في كثير من بلدان المنطقة، وهو يعني الانتقال من الاستعمار المباشر أو غير المباشر إلى الاستعمار الاقتصادي والسياسي، دون ممارسة ظاهرية خارجية، وأهم تلك الأحداث والتي شهدتها المنطقة قيام دويلة إسرائيل، واغتصاب فلسطين، وتتابعت الأحداث بعد ذلك، وكانت تؤثر - بطبيعة الحال - بشكل ما على المرجعية الدينية، التي تعتبر محورا ومركز التحرك الإسلامي في منطقتنا، هذا أولا.

قدسية المرجعية عند الأمة

ثانياً: إن هذه المرجعية تشكل دورة وفترة ذات أهمية خاصة من تاريخنا، نحن الذين ننتمي لمذهب أهل البيت عليهم السلام هذا المذهب الذي يجتمع أتباعه

على تقديس المرجعية الدينية، مهما اختلفت وجهات نظرهم حول طبيعة هذه المرجعية ومحتواها؛ لأن هذا الموقع يمثل - بالنسبة لأتباع أهل البيت عليهم السلام - امتداداً للإمامة، وحركتها في المجتمع الإسلامي، وبالتالي فهو يحظى بتقديس خاص.

وهذه الفترة لابد من الاهتمام بها، باعتبارها تمثل وجود واستمرار هذا الخط في هذه الفترة المليئة بالأحداث والتطورات.

مرجعية الإمام مرجعية معاصرة، ومرتبطة بالأحداث

ثالثاً: انها ليست مرجعية معاصرة فحسب - كما يعبر عنها بالمصطلح التأريخي - وإنما هي مرجعية معاصرة، ومتصلة بشكل مباشر مع الأحداث التي نعيشها في الوقت الحاضر، فالصراع مع البعثيين بدأ منذ زمن الإمام الحكيم، فهو الذي بدأ هذا الصراع، ولكن توفاه الله سبحانه ولم يستمر به، وتُركت هذه المسؤولية - من بعده - إلى العلماء والمراجع وأبناء الأمة الإسلامية، الذين خاضوا هذا الصراع بأشكال ومراحل مختلفة.

علماؤنا يتقدمون المسيرة

رابعاً: إننا بحاجة لدراسة مرجعية الإمام الحكيم، لنعرف أن علماءنا الأعلام كانوا دائماً في مقدمة المسيرة، لاكما يحاول أعداء الإسلام أن يتهموهم بالتخلف. بل يقع - أحياناً - تحت تأثير هذه التهمة والدعاية بعض أبناء المسلمين، ويتصورون أن العلماء متخلفون في مسيرتهم وموقفهم، ورجعيّون. وإذا أردنا أن ندرس هذه الاتهامات فلابد أن

ندرس القضية بشكل كامل، ونأخذ بنظر الاعتبار تمام الظروف التي تحيط بالمرجعية، وإلا فإننا نقع في ما وقع فيه القائلون للإمام الحسن عليه السلام (السلام عليك يا مذل المؤمنين)[1] وهم من شيعته وأصحابه، لكنهم لم يفهموا الموقف بشكل كامل.

أساليب المواجهة

خامساً: إننا بحاجة لدراسة مرجعية الإمام الحكيم، لنتعرف الأساليب التي اتبعها الإمام الحكيم في مواجهة الأنظمة الطاغوتية، وفي تعبئة الأمة بشكل عام، لكي نستفيد من هذه الأساليب في مرحلتنا ومواجهتنا.

ونحن إذا لم نرجع إلى أصولنا الإسلامية، والمناهج التي اتبعها الأنبياء، والعلماء في تعبئة الأمة ومواجهة الطواغيت، تلك الأصول والمناهج التي كانت لها تجربة واسعة وعميقة في التأريخ على مدى عشرات القرون، وكانت ناجحة في قدرتها على تحطيم أولئك الطواغيت - فسوف لا يمكننا أن نصل إلى أهدافنا، ونحقق طموحاتنا في تحطيم هؤلاء الطواغيت وإقامة حكم الله. وهذه هي سنّة التأريخ ومسيرته.

القيادة الإسلامية

سادساً: إننا بحاجة لدراسة مرجعية الإمام الحكيم، لنعرف النظرية الإسلامية في القيادة، مجسدة في مرجع تحقق على أرض الواقع، وتمكن أن يحدث تغييراً عظيماً في الأمة.

---

(١) الاختصاص: ٨٢

نظرة عامة للمرجعية

المرجعية الدينية بمفهومها الواسع قد تعني قيام المجتهد الجامع للشرائط مقام الإمامعليه السلام في مهماته الأساسية الثلاث الولاية، والفتيا، والقضاء[1]. وباعتبار أن المجتهدين كانوا يقومون بالمهمتين الأخيرتين، كما دلت على ذلك النصوص المتظافرة، لم يشك احد من العلماء في أن المجتهد هو (المرجع) للأمة في هذين الأمرين، بل كان العلماء والمجتهدون يقومون بهذين العملين لدى المسلمين حتى في زمن الخلافة الإسلامية، ويرجع إليهم المسلمون في (الفتيا) و(القضاء).

وكان يتولى الخلفاء والسلاطين الولاية، وإدارة الحكم، بطريقة أو أخرى، وتحت مبررات مختلفة لا مجال للحديث عنها هنا. ويأتي السؤال عن تصدي المجتهد لمقام ولاية أمور الأمة في زمن غيبة الإمام المهديعجل الله تعالى فرجه الشريف. ولايكاد يوجد شك لدى الفقهاء الاماميين في أن المجتهد له هذا المقام، وان كانوا يختلفون في سعة دائرة هذه الولاية، ودليلها، وأنها على مستوى (الحسبة) والضرورات الشرعية التي يقطع بان الشارع لا يرضى بإهمالها وتركها، أو أنها أوسع من ذلك ؟ وما هي حدود هذه السعة ؟. كما أنهم قد يختلفون في الدليل الشرعي الذي يدل على هذه الولاية للمجتهد، وانه هل هو النصوص الشرعية

---

(١) تناولت الحديث – بصورة مختصرة وعامة – عن هذا الموضوع في كتابنا (دور اهل البيت في بناء الجماعة الصالحة) الجزء الأول فصل النظام السياسي فليراجع..(**المؤلف**).

الخاصة من الآيات، أو الروايات، مثل: قولهعليه السلام((**أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا**))[1]، وغيرها؟ أو أن العلماء يمثلون القدر المتيقن للحاكم الشرعي للحكومة الإسلامية، الذي دل الدليل على وجوب إقامتها؟ أو دليل الحسبة؟ مع فرض أن المجتهد هو القدر المتيقن له، أو غير ذلك من أساليب الاستدلال، هذا على صعيد الخلفية النظرية والفقهية. وأما على صعيد الواقع العملي للأمة، ولاسيما أتباع أهل البيتعليهم السلام ، فقد كان المجتهدون يقومون بالفعل بهذه المهمات و المسؤوليات الشرعية الثلاث، وان كان بشكل محدود، و بمقدار بسط اليد بسبب الظروف السياسية والاجتماعية، شأنهم في ذلك شأن أئمة أهل البيتعليهم السلام في بعض الأدوار. وكان العلماء يتعرضون للأذى و المطاردة والتضييق بل الشهادة أحياناً، بسبب هذا النوع من التصدي للمسؤوليات. ولكن المرجعية ازدادت أهميتها ودورها في أواسط أتباع أهل البيتعليهم السلام ، عندما أخذت البلاد الإسلامية تتعرض للنفوذ والغزو الأجنبي، وتعرض الكيان السياسي الإسلامي لخطر الانحراف، ثم تعرض بعد ذلك لخطر الانهيار و الزوال، ثم سقطت الدولة الإسلامية، الأمر الذي جعل المراجع والمجتهدين أمام مسؤولية جديدة، وهي الدفاع عن الوجود الإسلامي، ومن ثم العمل من اجل العودة إلى الإسلام بعد انحسار النظام الإسلامي، والأحكام الشرعية عن المجتمع في مجال التطبيق

---

(1) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٨٤

الاجتماعي، وحتى الفردي، وبرز سؤال كبير آخر عن (الإطار السياسي) والمنهج الذي لابد للأمة أن تتحرك ضمنه في الدعوة للعودة إلى الإسلام أو الدفاع عنه. فهل هو الأحزاب الإسلامية، والتنظيمات السياسية السرية أو العلنية؟ أو هو منهاج التربية، و التعليم، وتأسيس الجمعيات والمدارس، أو أسلوب استخدام القوة والثورة الشعبية، وشن حروب التحرير والمقاومة للغزو الأجنبي؟ أو الاكتفاء بالنداءات والنصائح والاستغاثات؟ هذا كله إلى جانب وجود ظاهرة استفادة القوى السياسية المعادية للإسلام من كل هذه الأساليب، ولكن الإطار الاشمل الذي كانت تعتمده هذه القوى هو إطار الحزب السياسي. وكان على المرجعية الدينية أن تختار طريقها ومنهجها، الذي ينسجم مع خلفيتها الفكرية والحضارية والشرعية من ناحية، ومع أهدافها في تحصين الأمة و هدايتها في العودة إلى الحياة الإسلامية من ناحية أخرى. وقد عاش الإمام الحكيم - كما ذكرنا انفاً - هذه الفترة الحساسة من الأوضاع السياسية والاجتماعية، وقد كان تكوين الرؤية النظرية لديه بعد الحرب العالمية الأولى، ونتائجها من سقوط الدولة الإسلامية، وقيام الحكومات الوطنية المرتبطة بعجلة الاستعمار العسكري، أو السياسي، أو الثقافي، وكانت بدايات مرجعيته العامة بعد الحرب العالمية الثانية وانقسام العالم إلى المعسكر الغربي والشرقي، و ظهور الحرب الباردة، واشتداد أوارها من الانقلابات العسكرية، والاضطرابات العامة، والتيارات الفكرية والثقافية المتطرفة و الهدامة، وظهور التيارات الماركسية، والاشتراكية، والقومية،

والوطنية... الخ. وكان على الإمام الحكيم أن يختار طريقه ومنهجه وأسلوبه في خضم هذا التلاطم السياسي، والثقافي، والاجتماعي. وقد اختار الإمام الحكيم أن يكون هذا الإطار للعمل، هو (المرجعية) الدينية الذي يجب أن يتحرك ضمنه في جميع المجالات، سواء على المستوى السياسي أم الثقافي والاجتماعي. وقد كان هذا الخيار صعباً للغاية؛ لأنه جاء بعد سلسلة من الانتكاسات في العمل الإسلامي المرجعي في العراق وإيران، البلدان المهمان المركزيان لدى أوساط أتباع أهل البيت‏عليهم السلام، سواء في حركة العلماء الدستورية المعروفة بحركة (المشروطة) في إيران سنة ١٣٢٤ هـ. ق، أم في حركة التحرير من الهيمنة الأجنبية البريطانية في العراق، الحركة المعروفة بـ (ثورة العشرين) سنة (١٩٢ ميلادية) شعبان سنة ١٣٣٨ هـ.ق، وذلك للخلاص من الحكم الأجنبي الإنكليزي، وما تبع هاتين الحركتين من مجيئ حكم عائلة البهلوي في إيران، ومجيء ما يسمى: بالحكم الوطني في العراق، ثم ما نتج عن ذلك من قتل، وتشريد، ومطاردة للعلماء والمراجع، ومن هيمنة أجنبية بطريقة المعاهدات التي تفرض الوصاية، وكذلك عمليات قمع واسعة للناس والأمة. وكذلك جاء هذا الخيار بعد تنفيذ المخطط الرهيب لعزل الإسلام، وجميع مؤسساته، ومنها: الحوزة العلمية، والعلماء عن المجتمع والحياة، بحيث تحول الإسلام إلى مجرد تراث في المجتمع يحضى بشيء من التقدير، والتقديس، والتكريم، من خلال المراسيم والأعياد والشعائر العامة. وتحولت المرجعية على أفضل صورها إلى جزء من هذا التراث يكاد ينحصر في الرجوع إليها في العبادات، وقضايا الأموات، وبعض الأحوال الشخصية، بل كانت بعض

الأوساط العامة تنظر إليها على أنها شيء مختلف عن هذا التراث[1].

رؤية الإمام الحكيم للمرجعية

بالرغم من أن المرجعية - كما أشرنا - تمثل في بعدها النظري امتداداً لحركة النبوة والإمامة. ولكن من الناحية الواقعية في الفترة الزمنية التي عاصرها الإمام الحكيم، كانت قد انطوت على نفسها للأسباب و العوامل والظروف السابقة - التي اشرنا إليها - وأصبحت تعيش عزلة عسيرة في مجمل أوضاعها العامة، بحيث يجعل التحرك العام في إطارها أمراً بعيد المنال. وسوف أتناول - هنا - خيار الإمام الحكيم لإطار العمل العام، ومنهجه فيه، من خلال عرض رؤيته للمرجعية، والحديث عن التطورات المهمة التي حققها على مستوى العناصر الرئيسية في هذه الرؤية، واختار الساحة العراقية كنموذج لتطبيق هذه الرؤية، علماً بان حركته كانت تشمل مساحات واسعة من العالم الإسلامي الذي يعيش فيه أتباع أهل البيت عليهم السلام، والذين ارتبطوا بمرجعية الإمام الحكيم، وحوزة النجف الاشرف، قد تأثرت

(1) لقد كان يصف الإمام الحكيم النتائج والآثار لهذا المخطط الرهيب، حيث كان يقول أن الأوضاع السياسية والاجتماعية أصبحت على هذه الصورة: (إن احدهم إذا أراد أن يحصل على وظيفة في أجهزة الدولة، أو يتقرب إليها فعليه أن ينظم بيتين من الشعر يتناول فيها الدين أو المقدسات بالنقد او الانكار؛ لكون ذلك له شافعا في تحقيق هدفه). أو (أن الإنسان إذا أصبح موظفاً لدى الدولة فيعني ذلك انه قد انقطعت صلته مع الإسلام، اجتماعياً، وحتى روحيا وسلوكياً..(**المؤلف**).

هـذه الساحات بهـذه الرؤيـة والتطـورات، كمـا سـوف أشـير إلى ذلـك عرضاً لقد كان الإمام الحكيم ينظر إلى إطار المرجعية مـن خـلال إيجـاد التكامل بين مجموعـة مـن العناصـر، يمكـن تلخيـصها في الأمـور الثلاثـة التاليـة: (المرجـع)، و(الحـوزة)، و(الأمـة)، مـع الفهـم الإسـلامي لكـل واحد منها، وبذلك يمكن من خلالها تحقيق الأهداف المطلوبة.

المرجع وجهازه

أولاً: يمثـل المرجـع في نظـر الإمـام الحكـيم أهـم عنـصر وموقـع في إطــار النظريــة الــتي يــؤمن بهــا في مجــال العمــل والتحــرك، وهــو الموقـع القيـادي، وكـان يتـصور في شخـصية المرجـع بعـدين مهمـين وأساسيين:

أحـدهما: البعـد الـذاتي: وهـو المـرتبط بمواصـفات نفـس المرجـع، والذي تحدثنا عن نموذج له مـن خـلال الـسيرة الذاتيـة للإمـام الحكـيم، والذي يمكن أن نلخصه في أبعاد: العلـم، والعدالـة العاليـة[1]، والقـدوة الصالحة في المواصفات الشخصية، والتصدي للعمل المرجعي من موقع

---

(1) لم يكن الإمام الحكيم يكتفي في المرجع بالعدالة بمستوى العدالة في الشهود أو إمام الجماعة، بل لابد من مستوى عال لذلك، تتناسب مع هذا الموقع ومسؤولياته، واهم معالم هذه العدالة في هذا الموقع بعد التقوى العامة، الزهد بحب الرئاسة والشهرة، وحب الدنيا والحرص على المصالح العامة للأمة، وتقديمها على المصالح الخاصة والتصدي للظلم والطغيان، الإختيار للحاشية والمستشارين الصالحين، والعدالة في صرف الأموال وتوزيعها..(**المؤلف**).

الإحساس بالمسؤولية الشرعية[1] تجاه الموقع والأمة.

ثانيهما: البعد الموضوعي: وهو الجانب الاجتماعي الحقوقي للمرجعية و الذي يتمثل بالإيمان بأن المرجعية هي عبارة عن منصب ديني قيادي يتسم بالنقاء والطهارة والاصالة، ويقوم بواجبات ويتحمل مسؤوليات تجاه الأمة و الإسلام، سواء في الاهتمام بقضاياها الكبرى أم الدفاع عن حقوقها ام توعيتها على واجباتها، أم تربيتها أم تثقيفها وتعليمها، أم تقديم الخدمات المختلفة لها.

وهكذا الأمر تجاه الإسلام والشريعة الإسلامية، حيث تتحمل المرجعية الدعوة إلى الإسلام في السر و العلن والدفاع عنه، سواء في مجال العقيدة، أم الشعائر، أم الأحكام، والعمل على تطبيقه، وتحمل

---

(1) لقد كان الإمام الحكيم ﴿قدس سره﴾ يشعر بهذا الهم في بداية تطوره العلمي والحوزوي، حيث اقترح عليه بعض وجهاء الحوزة، أن يتولى الوكالة لبعض المراجع في بعض بلدان العراق المهمة آنذاك (الشنافية)، قبل أن يذهب إليها أية الله الشيخ كاظم الغبان احد فضلاء الحوزة، وقد كان والد الإمام الحكيم – كما عرفنا – قد ذهب في عمل مشابه إلى لبنان، وذهب أخوه الأكبر آية الله السيد محمود إلى عمل آخر في خانقين، وغيرها من بلدان العراق، ولكنه كان يقول: باني سكت في البداية، في مقابل هذا الطلب، ورفضته بقوة بعد الإلحاح علي به، وقلت في تفسير ذلك بان النجف لا يصح أن تبقى فارغة من أمثاله. واذكر بالمناسبة أن سيدي الوالد ﴿قدس سره﴾، أرسلني بصورة موقتة للقيام بمهمة التبليغ والوكالة في مدينة الكوت، وقد تحدث الشهيد الصدر لسماحة السيد الوالد بالواسطة في هذا الشأن، وطلب منه أن لا يكون هذا الإرسال دائميا، وكتب لي الشهيد الصدر رسالة بهذا الموضوع، لازلت احتفظ بها، ولا أقيس نفسي – طبعا – بهؤلاء الأعلام، ولكن أريد أن أشير إلى طبيعة تفكيرهم وإحساسهم بالمسؤولية، تجاه المرجعية وأجهزتها ونشاطها..**(المؤلف)**.

الآلام، والمعاناة، والجهاد في سبيل الله من أجله.

ولابد للمرجع من التصدي لهذه المسؤوليات، و العمل على توفير الشروط الموضوعية والتشكيلات، والمؤسسات المناسبة في الأجهزة الخاصة بالمرجعية، أو في الحوزة أو في أوساط الأمة، حتى يمكنه أن يؤدي دوره الكامل.

معالم في الموقع القيادي للمرجعية

وفي مراجعة عامة لمرجعية الإمام الحكيم، يمكن أن نشاهد هذه الرؤية في عموم مسار عمل ونشاطات مرجعيته في مختلف المجالات السياسية والثقافية و الاجتماعية، وحتى في العلاقات الشخصية، فضلا عن العلاقات العامة.

حيث أرجع ﴿قدس سره﴾ المرجعية إلى موقعها الطبيعي، الذي خُطط لها في النظرية الإسلامية، وصحيح أن المراجع السابقين ساروا عليه أيضا. لكن بعد الحرب العالمية الأولى حصلت انتكاسة في المرجعية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي عدا إيران؛ نتيجة للتطورات السياسية، ولقيام الدولة الإسلامية وسقوطها، وغزو الأفكار والتيارات الكافرة للمجتمع الإسلامي، ولأسباب كثيرة...

والتطور الذي أدخله ﴿قدس سره﴾ على المرجعية وأرجعها من خلاله إلى موقعها الطبيعي كان في أمرين وعلقتين رئيسيتين:

الأولى: العلاقة مع المرجعية نفسها.

الثانية: العلاقة مع الأمة، بحيث أصبح للمرجعية دور مناسب وطبيعي، يمثل الدور الذي وضع لها في التصميم الإسلامي.

كما اهتم بنقطة ثالثة تشكل الركن الثاني من أركان حركة المرجعية

وهي الحوزة العلمية.

العلاقة مع المرجعية

أما بالنسبة إلى العلاقة الأولى فنلاحظ:

البعد الجهادي في المرجعية

أولاً: أنه أعطى للمرجعية بعدها الجهادي، وهو بُعد التصدي للظالمين، ولقضايا الأمة، وتحمل المسؤولية، هذا الذي تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[1]، أي: تحمل مسؤولية الإنذار، هذه المسؤولية التي يتحملها الأنبياء.

وقد أعطاها هذا البعد، بمعنى أنه أعاده إليها، لا أنه أعطاها بعداً جديداً، أي: أصبح هناك مرجع يتصدى لهذه القضايا ويواجه الظالمين والأنظمة، بعد أن كانت المرجعية منحصرة أو منزوية؛ بسبب الظروف التي فُرضت عليها من الخارج؛ وبسبب الأعمال التخريبية التي قام بها الاستكبار العالمي والاستعمار في بلادنا، وغير ذلك من الأسباب...

إعطاء جنبة التشكيلات للمرجعية

ثانياً: كانت المرجعية ممارسة شخصية للمرجع، يتحملها بنفسه في كثير من الأحيان، وإذا توسع هذا المرجع تكون المرجعية في دائرة محدودة وحاشية

---

(1) التوبة:١٢٢

معينة تقوم بمساعدته في بعض الأعمال.

أما الإمام الحكيم، فعمل على إعطاء المرجعية جنبة التشكيلات، وجعل منها مؤسسات تقوم بالأعمال المختلفة، الثقافية، والاجتماعية، والفكرية، والسياسية، والجهادية. وكل هذه التشكيلات كان لها دور في جعل المرجعية كياناً سياسياً، من خلال المدارس والمكتبات والعلماء الذين كانوا يُرسَلون إلى البلاد الأخرى، ومن خلال مجموعة من الفعاليات الأخرى، فأصبح للمرجعية جهاز يتفاعل بعضه مع البعض الآخر.

لقد اهتمَّ بقضية الأجهزة والتشكيلات المرتبطة بالمرجعية، لكي تخرج المرجعية من حالة فرد يعيش لنفسه إلى حالة تعيشها الأمة، من خلال التشكيلات والأجهزة والمؤسسات القائمة والمتحركة.

وفي هذا المستوى(موقع المرجع)، يمكن أن نشير إلى بعض المفردات ذات الأهمية والمعالم الخاصة، و التي توحي بهذا الفهم للمرجع.

المفردة الأولى: اعتماد الإمام الحكيم على إعطاء دور مهم للدواوين المصطلح عليها بـ(البراني) في عمل ونشاط المرجع، فبالرغم من وجود هذه الدواوين في المجتمع العراقي بشكل عام، وفي الحوزة بصورة خاصة، ولكنها كانت مكانا للتشريفات، أو لإتلاف الوقت، أو للترفيه، أو على أفضل تقدير كانت مجرد نادٍ أدبي واجتماعي أو علمي، يقوم بمبادرات فردية في بعض الأحيان.

وأما من خلال التطور الذي أحدثه الإمام الحكيم من خلال رؤيته للمرجعية والمرجع، فقد أصبحت هذه الدواوين كديوان آل بحر

العلوم، وآل الشيخ راضي، وآل الحكيم[1] غيرها، تقوم بدور مهم في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية و العلمية، وتتحمل مسؤوليات وادوار ضمن هذا الإطار العام.

والمفردة الثانية: جماعة العلماء والتي كانت تضم نخبة مهمة من الطبقة الثانية والثالثة من المجتهدين، حيث كان لها دور سياسي وفكري قيادي مهم، سواء من خلال تصديها وبياناتها واحتفالاتها، أم من خلال مجلة الأضواء الإسلامية. وكانت تمثل نموذجا وفتحا مهما في هذا المجال الإسلامي، واقتدت بها الأوساط الإسلامية في العراق و إيران[٢].

فقد اهتم بتأسيس جماعة العلماء في النجف، وبهذا أعطى للحوزة جانباً من التحرك، وإلّا فهو - كمرجع - لم يكن محتاجاً إلى تأسيس هذه الجماعة؛ لأن الكل يحبه، ومستعد لمساندة تحركه بشكل مباشر كمرجع ونائب للإمام، لكنه أعطى لهذه الجماعة حقها، لكي يُشار إليها.

وهكذا الحال بالنسبة لجماعة العلماء في بغداد، فقد استمرت، وقامت بأعمال كبيرة جداً، وكانت ترتبط بكيان المرجعية، وكان من أبرز علمائها

---

(1) كان المسؤول عن الديوان الأول هو العلامة السيد علي بحر العلوم، ومن بعده ولده السيد محمد بحر العلوم. وعن الثاني الحجة الشيخ محمد كاظم آل الشيخ راضي، ومن بعده أخوه الحجة الشيخ محمد جواد آل الشيخ راضي، وكان المسؤول عن الثالث الحجة السيد محمد سعيد الحكيم، ومن بعده ولده اية الله السيد محمد حسين الحكيم..**(المؤلف)**.

(2) لقد كان لجماعة العلماء المجاهدين (جامعت روحانيت مبارز) في إيران دور عظيم في تنضيج ظروف الثورة وإسنادها والدفاع عنها إلى جانب مرجعية الإمام الخميني ﴿قدس سره﴾. حيث كان تأسيسها بعد تأسيس جماعة العلماء في النجف الاشرف..**(المؤلف)**.

آية الله المرحوم السيد علي نقي الحيدري، والمرحوم السيد محمد طه الحيدري، والمرحوم الشيخ علي الصغير، وغيرهم، فهذه نماذج كانت تتحرك وتعمل باسم المرجعية، وكان لها دور كبير.

المفردة الثالثة: الوكلاء والعلماء القياديون، الذين كان الإمام الحكيم يطلب منهم التصدي بشكل خاص للعمل السياسي، والاجتماعي، والثقافي من هذا الموقع كممثلين للمرجعية في هذا المجال، وكان يعينهم، ويدعمهم، ويشجعهم، ويحاسبهم على القيام بهذه المسؤوليات، حيث أوجد الإمام الحكيم تطورا ملحوظا في هذا المجال، كان له تأثير كبير على مختلف المستويات.

وأتذكر أن في الفترة الأخيرة من مرجعية الإمام الحكيم، كانت هناك رقابة على الوكلاء في مواقفهم التي يتخذونها، بحيث إنه لا يُكتفى من الوكيل أن يروج للمرجع، وأن يُرجع الناس بالتقليد إليه، أو أن يبعث بمقدار أكبر من الأموال له، أو يُطلب منه مقدارٌ أكثر من الاستفتاءات والمسائل الشرعية، وإنما كان الإمام الحكيم يفرض على الوكلاء ويطلب منهم مواقف منسجمة مع موقف المرجعية وكل أطرافها، بحيث أنه كان يراد من هذا الوكيل العالم الذي يكون في منطقة ما - بالإضافة إلى كل هذه الأمور - أن يكون له موقف معين. والكثير من العلماء الذين كانوا يروجون للإمام الحكيم أصبحوا بعد ذلك بعيدين عنه، بسبب هذا الشيء؛ بسبب أن مواقفهم لم تكن منسجمة مع تطور المرجعية، ومع حركتها، وتوجهاتها، وخططها الجهادي، وانسجامها مع الأجهزة الأخرى، والعكس بالعكس، فبعضهم لم يكن يروج له ﷺ فأصبحوا من أقرب الناس إليه، وهنالك

الكثير من الأسماء اللامعة المعروفة في المجتمع العراقي التي تمثل هذا النوع من التوجه، وحتى في غير المجتمع العراقي، في لبنان والهند والباكستان.

المفردة الرابعة: تأسيس وتبني المؤسسات في الأبعاد المختلفة، ولعل ابرز عمل في هذا المجال هو تأسيسه لشبكة واسعة من المكتبات العامة الإسلامية التي انتشرت في العراق، وكانت تعطي زخماً وامتداداً للمرجعية، وكذلك تأسيسه لبعض المدارس في النجف، وإسناده للعمل الإسلامي المنظم في إطار وتصور مميز. وهذا يعبر عن قوة المرجعية وتمركزها.

وكذلك تبنيه لبعض المؤسسات الاجتماعية التي تحولت من خلال هذا الالتزام إلى عمل ثقافي واجتماعي ضخم، مثل جمعية الصندوق الإسلامي الخيري، أو إسناد لجمعية (جامعة الكوفة).

إن هذه المفردات وغيرها والتي كان يراها الإمام الحكيم: مؤسسات وأجهزة تابعة لموقع المرجعية، أو في خدمتها، تكتسب أهميتها، وفاعليتها، وقدرتها ضمن إطار عملها وإدراكها لمسؤولياتها والتزامها بأهداف المرجعية العامة[1].

---

(1) يمكن أن نفهم هذه النظرية بوضوح، إذا رجعنا إلى تاريخ مواقف الإمام الحكيم قدس سره تجاه بعض مصاديق هذه المفردات، حيث أنه قدس سره كانت له مساهمة فعالة في تأسيس جمعية منتدى النشر، من هذا المنطق، وعندما تحولت إلى مجرد عمل ثقافي، لايعيش هذا الفهم، تخلى عن الاهتمام بها، مع أنها كانت قريبة منه في موقعها الجغرافي والحوزوي، وهكذا الحال بالنسبة إلى بعض الوكلاء المهمين، الذين كانوا قريبين جدا من حوزته، أو بعض الدواوين الاجتماعية، مثل: السيد سعيد الحكيم في البصرة، والشيخ محمد رضا فرج الله، وديوان آل مطر، وغيرها من الدواوين.

المفردة الخامسة: (الحاشية)، أو المستشارين، أو المساعدين، حيث أعطاها الإمام الحكيم روحا جديدا ليس على مستوى **(الأداء)** والتوجه والوعي فحسب، بل على مستوى **(النوعية)** في انتخاب الأفراد، الذين كان يهتم أن يكونوا من ذوي الفضل والاجتهاد، أو من الأسر العلمية العريقة في الشرف، والنبل، والإبتعاد عن حالة الاحتراف الوظيفي من ناحية ثالثة[1] فبالإضافة إلى أولاده الذين كانوا يقومون بدور في هذا المجال مع اهتمامهم بالدرس والتدريس، نجد أن الأكثرية الساحقة لمساعديه، كانت لهم فعاليات ثقافية واجتماعية مباشرة، وشخصيات معروفة في الأوساط العلمية على مستوى **(الانتماء الحوزوي والإقليمي)**، حيث كان يولي أهمية لتعدد هذه الانتماءات، فقد كان فيهم مضافا إلى العراقيين، اللبنانيين، والإيرانيين والأفغانيين والباكستانيين والهنود والخليجيين وغيرهم، من ناحية رابعة.

وقد اشرنا سابقا في السيرة الذاتية، أن الحاشية كان يعطيها الإمام الحكيم دور المستشارين من أصحاب الرأي، ودور الإداريين

---

(1) كان فيهم من الإيرانيين آية الله السيد مرتضى الخلخالي، و آية الله السيد محمد نجل آية الله العظمى السيد جمال الدين الموسوي، وآية الله الشيخ محي الدين نجل اية الله الشيخ عبد الله المامقاني، والحجة الشيخ محمد نجل آية الله الشيخ عبد الحسين الرشتي، والحجة السيد ابراهيم اليزدي نجل آية الله السيد علي اليزدي، ومن اللبنانيين آية الله الشيخ محمد تقي الفقيه، وآية الله السيد حسين مكي، ومن العراقيين آية الله العظمى الشيخ حسين الحلي، وآية الله الشيخ محمد جواد الشيخ راضي، وآية الله السيد موسى بحر العلوم، ومن الأفغانيين آية الله الشيخ سلطان علي، وآية الله السيد محمد سرور الواعظ، ومن الباكستانيين الحجة السيد صادق علي شاه، وغيرهم كثيرون..**(المؤلف)**.

والتنفيذيين، دون أن يفقد من خلال وجودهم استقلاله في القرار وتوجيه الأمور.

إن هنا رؤية أخرى مهمة للإمام الحكيم للحاشية، وهي أنه كان يرى أن من الواجب فيها أن لاتتحول إلى دور وظيفي مهين، بل لابد أن تبقى تعيش في صميم أوضاع الحوزة وعلاقاتها العلمية والاجتماعية لتحتفظ بحيويتها وتفاعلها الروحي والنفسي واندفاعها الذاتي؛ لذا كنا نجد الأغلبية الساحقة لحاشيته تمارس الدرس و التدريس والعلاقات الاجتماعية العادية، وحتى في وسط أولاده الصلبيين.

وبكل هذه الفعاليات تحولت المرجعية بالتدريج إلى مؤسسة، وإلى كيان سياسي له واقعية في المجتمع، وله أهمية على مستوى العلاقة بنفس المرجعية، فالإمام الحكيم أعطى للمرجعية خطها الواقعي، وهو الخط الجهادي والتصدي، وأعطاها أيضاً وجودها الحقيقي، وخلق منها أجهزة وكياناً متشعب الأطراف له أذرع وقدرات وإمكانات، يتمكن أن يتحرك في المجتمع ويقوم بمهماته، ولم تصبح هذه المرجعية مجرد شخص له قيمة وأهمية موجود في مكان معين تحيطه حاشية فقط.

الحوزة العلمية

ثانياً: تأتي الحوزة العلمية من حيث الأهمية العامة والثابتة في الدرجة الأولى؛ لأنها هي التي تنتج العلماء و المراجع والقادة، ولكنها من حيث موقع العمل والنشاط والإطار العام للحركة تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية؛ لأنها تمثل المؤسسة التي هي حلقة الوصل بين

القيادة (المرجع) والأمة من ناحية، كما تمثل الوسط القادر على التفكير و الإبداع والتخطيط و (الكادر) المتقدم في عموم التحرك الإسلامي، في نظرية المرجعية من ناحية أخرى.

والحوزة العلمية كمؤسسة لها وجود وامتداد عميق في التاريخ الإسلامي، سواء على المستوى العام حيث بدأت في الوجود والنشوء زمن النبي ﷺ عندما نزل القران بذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[1] أو على المستوى الخاص لأتباع أهل البيت عليهم السلام، حيث أولوا هذا العمل اهتماما بالغا، وعناية خاصة، بدأ مع الإمام علي عليه السلام، وتطور بشكل ملحوظ في زمن الإمامين الصادقين محمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهما وعلى ابائهما الصلاة والسلام.

وأصبحت هذه المؤسسة من مختصات ومميزات هذا المذهب الأصيل في الإسلام، وهذه المدرسة المثمرة المعطاء. وكان لهذه المؤسسة دور عظيم في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، ولكنها أصيبت ببعض الهزات والمشاكل التي أشرت إليها انفا بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، حتى أصبحت في ظروف صعبة، وفي بعض الأحيان في عزلة عن المجتمع والأمة.

ولاشك أن أهم حوزة علمية لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام على الإطلاق

---

(1) التوبة: ١٢٢

زمن مرجعية الإمام الحكيم هي حوزة النجف الاشرف[1]، التي كانت تعاني من مشكلات حادة وصعبة في ذلك الوقت، ولاسيما بعد وفاة المرجع الأعلى آية الله العظمى السيد ابي الحسن الاصفهاني، الأمر الذي زاد في حجم وعمق المشكلات والمصاعب والضغوط الداخلية والخارجية، وكذلك الروحية والمادية، حتى كانت مرجعية الإمام الحكيم الذي أحدثت تطورا ملموسا ومهما في حوزة النجف الاشرف وفي مختلف المجالات والأبعاد، والتي سوف نشير إلى بعضها في إطار بيان الرؤية العامة النظرية والعملية لدى الإمام الحكيم للحوزة العلمية.

١. الحوزة محور العمل والثقافي والسياسي

لقد كان الإمام الحكيم يرى أن الحوزة العلمية يجب أن تكون محور العمل السياسي الديني، كما هي محور العمل الثقافي والتربوي، وأنها المؤسسة الإسلامية التي تمثل القاعدة القوية والصلبة والأصيلة في منهجها، وأسلوبها، وفكرها، وثقافتها، ونزاهتها.

وكان الإمام الحكيم ينعى على بعض أفراد الحوزة العلمية عزلتهم عن المجتمع، وانزوائهم في مجالس البحث والدرس والعبادة، دون تطور في

---

(1) بعد وفاة الإمام الحكيم تعرضت حوزة النجف إلى عمليات قمع ومطاردة واسعة في ظل نظام حكم حزب البعث العفلقي، الأمر الذي أدى إلى ضمور واضح فيها، وهجرة واسعة منها إلى حوزة قم، ولكنها بقيت والحمد لله ثابتة وصامدة، قدمت الكثير من خيرة رجالها شهداء في سبيل الله، وهذا الموقف الصامد، وقد تطورت حوزة قم بشكل واسع بعد ذلك ببركة قيام الدولة الإسلامية في إيران، وهجرة عدد من كبار العلماء والفضلاء من حوزة النجف إليها..**(المؤلف)**.

الأداء التبليغي أو المساهمة في إرشاد الأمة، ودون الاهتمام بمشاكل الناس والمجتمع العامة، والقضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تعيشها الأمة، كما انه في الوقت نفسه كان يرى من الضروري لأبناء الحوزة أن يكونوا على مستوى عال من التقوى، والأخلاق، والإخلاص، والنزاهة والابتعاد عن الشهوات، أو الارتباطات المشبوهة، والاحتياط من الشبهات السلوكية الاجتماعية.

وقد أوجد من خلال مرجعيته ونشاطه على مستوى الحوزة وعياً واسعاً في أوساطها لهذا التوجه والفهم للحوزة ودورها. وقد ترك هذا الوعي اثارة في مختلف الأوساط الحوزوية المنتمية لمناطق متعددة من العالم الإسلامي الذي يعيش فيها أتباع أهل البيت عليهم السلام وحتى غيرهم من الأوساط، حيث نلاحظ جذور الوعي الإسلامي لدور الحوزة والعلماء في العراق، ولبنان، والباكستان، وأفغانستان، والهند، و الخليج، وأفريقيا من خلال العلماء الذين كان لهم تأثير كبير في هذه الأوساط، والذين تربوا في أحضان الحوزة العلمية في النجف الاشرف، زمن مرجعية الإمام الحكيم، وتأثيرها في هذا الوعي.

وبالرغم من أننا لابد أن نؤكد أن تطورا عظيما ونقلة نوعية في وجود هذا الوعي كان بسبب الثورة الإسلامية في إيران، ولاسيما بعد قيام الدولة الإسلامية على يد العالم الرباني الإمام السيد الخميني. إلا أن هذا التأكيد للحقيقة والواقع، لايعني التغاضي عن ذلك الدور العظيم الممهد والمؤسس لهذه النهضة لمرجعية الإمام الحكيم في هذه

الأوساط[١] وحتى في الأوساط الإيرانية كان هناك دور واسع، وعميق لمرجعية الإمام الحكيم إذا أخذنا بنظر الاعتبار انعكاس الحركة السياسية للإمام الحكيم على الأوساط الإسلامية، وتقدمها على المرجعيات الأخرى المعاصرة لها في هذا المجال، وكذلك الدعم والإسناد والواسع الذي قامت به مرجعية الإمام الحكيم لهذا التوجه والوعي في إيران وحوزة قم، فضلا عن تبنيها للطلبة الثوريين الإيرانيين في حوزة النجف إلى جانب الطلبة الآخرين[٢].

---

(1) يمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح، إذا لاحظنا رواد العمل الإسلامي الواعي في مختلف مناطق العالم الإسلامي، التي يتواجد فيها أتباع أهل البيت عليهم السلام، الذين تخرجوا من مدرسة النجف، أو تفاعلوا مع مرجعية الإمام الحكيم على الأقل، مثل: السيد موسى الصدر، والسيد محمد حسين فضل الله، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، والشيخ راغب حرب، والسيد عباس الموسوي في لبنان، والسيد عارف حسيني، والسيد ساجد علي، والسيد صفدر حسين، والشيخ محسن النجفي في باكستان، والسيد محمد سرور الواعظ، وقبلة الشيخ سلطان علي، والشيخ اصف محسني، والسيد فاضل، والشيخ قربانعلي في أفغانستان، والسيد محمد مهدي الحكيم بعد هجرته، والسيد علي السيد ناصر، والشيخ عبد الهادي الفضلي، والشيخ علي الكوراني، والشيخ محمد مهدي الاصفي في الخارج، كذلك السيد نيشان حيدر، والسيد سعيد اختر الرضوي، والسيد محمد الموسوي في الهند، والسيد محمد بحر العلوم، والشيخ محسن العراقي في لندن، وغيرهم..الخ

وكذلك الخطباء المهمين، الذين تخرجوا من مدرسة النجف، وكان لهم دور كبير في التوعية العامة..(**المؤلف**).

(2) هناك بعض الوثائق الإيرانية التي نشرت مؤخرا تؤكد هذه الحقيقة التي أدركها نظام الشاه في ملاحظته للتطور الكبير الذي حصل في حوزة قم، وان كان النظام يحاول تفسيرها تفسيراً ⬅

لقد حوّل الإمام الحوزة العلمية إلى محور سياسي للأمة، فقد كانت الحوزة - سابقاً - تقوم بالتدريس والتعليم، وليس لها أي دور، وإنما كان الدور للمرجع فقط، فالعلاقات المتحكمة في العراق كانت العلاقات العشائرية، ولكن الإمام الحكيم بإحداثه شبكة من الوكلاء في داخل الحوزة العلمية جعلها هي المحور السياسي المتحرك.

٢) إسلامية الحوزة

والحوزة العلمية هذه المؤسسة الرائدة المتقدمة، لابد أن تكون إسلامية ليس في محتواها وهمومها فحسب، حيث أن هذا هو أمر طبيعي، بل لابد أن تكون كذلك في علاقتها وشعورها بالمسؤولية تجاه مختلف العالم الإسلامي[1] فالإيراني، والعراقي، واللبناني، والباكستاني، والخليجي، وغيرهم لابد أن يحمل كل واحد منهم هموم الآخرين، ويساهم بشكل مناسب في ميدان العمل الآخر إذا سمحت الفرصة أو كان هناك فراغات في العمل.

ومن هنا نجد الإمام الحكيم قدس سره بالرغم من الظروف السياسية الصعبة، استفاد بشكل واسع من الطلبة، والعلماء اللبنانيين

➡مادياً حسب طبيعته في فهم الأشياء. ويمكن نلاحظ وجود بعض الأعلام المهمين في الثورة من مدرسة النجف، أمثال الشهيد مدني، والشهيد الطباطبائي القاضي..**(المؤلف)**.

(1) فهي ليست حوزة للعراق، أو إيران، أو باكستان، أو...إلخ، وقد تمكن الإمام الحكيم من تحويل الحوزة العلمية في النجف الأشرف إلى حوزة إسلامية يدرس فيها مختلف أبناء العالم الإسلامي، حتى أن قسماً من أبناء السنة كانوا يأتون إلى النجف ويدرسون..**(المؤلف)**.

والإيرانيين ومن غيرهم في الأعمال التبليغية وفي التوعية في العراق، وملء بعض الفراغات والمناطق المهمة بشكل مؤقت أو دائم. وكذلك الحال في مناطق أخرى، مثل لبنان، والخليج، وافريقيا، وتركيا، وسوريا.

وفي بعد آخر من الموضوع اهتم الإمام الحكيم بإلغاء حالة الشعور، بالامتياز أو التعصب للانتماءات القومية والإقليمية في أوساط الحوزة، التي كانت تنشا أحيانا؛ بسبب قوة الأوضاع الاقتصادية، أو النفوذ الإداري، أو العلمي والشعور بالاستعلاء والامتياز بسبب ذلك، أو الإحساس بالمظلومية والحرمان والدونية؛ بسبب الاستضعاف وقلة الموارد، وغير ذلك بين أطراف الحوزة وتماسكها، كان لها آثار سلبية في نموها وتطورها العلمي والروحي.

في بعد ثالث من هذا الموضوع، اهتم الإمام الحكيم بشكل خاص بأبناء الحوزة من البلدان المستضعفة، كما هو الحال في أفغانستان، وباكستان، والهند، ولبنان، والعراق، وغيرها على مستوى تنمية العدد، حتى انه بلغ عدة أضعاف في بعض الجاليات، وعلى مستوى رعاياتهم المعنوية والمادية، وبث روح الاعتماد على النفس والثقة بالمستقبل، وعلى مستوى التحصيل العلمي؛ لإيجاد حالة نسبية من التوازن الواقعي بين الجاليات الإسلامية في الحوزة.

إن هذا الجانب من العمل كان يحتاج من الإمام الحكيم أن يبذل جهودا استثنائية؛ لتحطيم الحواجز النفسية والأطر الاجتماعية

الحوزوية، وتجاوز بعض التقاليد في التعامل مع الحوزة أو بين ابنائها، وقدم تضحيات كبيرة في هذا المجال؛ من اجل الوصول إلى هذا الهدف.

وكان هذا الاهتمام بالغاً إلى درجة أن بعض الأوساط كانت تحاول التقليل من أهمية مرجعية الإمام الحكيم بالقول عنه أن جماعته هم التبتية، والنكَرية، والبربرية، والشروقية، والعوامل[١]...

وفي بعد رابع من هذا الموضوع، دافع الإمام الحكيم والى النفس الأخير عن بقاء حوزة النجف مفتوحة أمام جميع أقاليم العالم الإسلامي؛ للاستفادة من ينابيعها الثرية، ومدارسها العلمية الغنية، ومنهجها في التربية... وكانت الأوضاع السياسية تضغط بقوة من اجل أقلمة النجف أو جعلها عربية على أفضل تقدير.

وقد تحمل الإمام الحكيم في سبيل هذا الفهم للحوزة بكل هذه الأبعاد آلاماً ومعاناة ومحناً داخلية وخارجية، انتهت به بعد ذلك إلى ميتة تشبه ميتة الشهداء[٢].

---

(1) التبت: من مقاطعة (التبت)، وهي الآن مملكة مستقلة تقع بين الصين وشبه القارة الهندية، والمراد بالبربرية الأفغان، أما النكَرية فهم المنتسبون إلى (نكَر) وهي منطقة فقيرة في باكستان، ومن الشروقية: الطلبة الشرقيين من مناطق العمارة، والناصرية، والبصرة، ومن العوامل: أبناء جبل عامل في لبنان.

(2) لقد كانت بداية (المحنة) مع حكومة العفالقة والمواجهة معهم في قضية تسفير الطلبة و العلماء الإيرانيين، ثم تطورت بعد ذلك إلى محنة القمع والاستئصال للتيار الإسلامي الديني، حتى توفي الامام الحكيم، بعد سنة من ذلك تقريبا..**(المؤلف)**.

٣) وضع أسس الاستقرار والثبات

من الواضح أن الحوزات العلمية الامامية تمتاز عن غيرها من المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي، بأنها مستقلة في إدارتها ومنهجها ومواردها، وكانت تعتمد في ميزانيتها على الله تعالى، والدعم الشعبي للمؤمنين من خلال الحقوق الشرعية، وتدار أيضا بطريقة ذاتية تطوعية، سواء على المستوى المراجع، أم المدرسين، أم الطلبة، أم اختيار المناهج عبر مجموعة من التقاليد والالتزامات الأخلاقية، أو السلوكية العامة، أو الانتخاب الفردي الحر.

ولا تمنح شهادات أو وثائق لخريجيها، ولا توجد جهة رسمية تعترف بها، أو تهيمن على شؤونها.

وهذه الخصائص في الوقت الذي كانت تمثل امتيازا مهما من الناحية الروحية والمعنوية، وفي علاقاتها بالأمة، لكنها كانت في الوقت نفسه تشكل نقاط ضعف في بنية الحوزة، تجعلها عرضة للهزات والانتكاسات، وتأثير الضغوط المختلفة النفسية، أو الاجتماعية والاقتصادية، يعرفها أبناء الحوزة العلمية أكثر من غيرهم.

وقد حاول الإمام الحكيم قدس سره إرساء بعض القواعد والأسس، و تحقيق بعض الإنجازات والمكاسب، بهدف تحقيق المزيد من الاستقرار والثبات في الحوزة العلمية، نشير إلى بعض معالم هذه الأسس والإنجازات:

١. التعامل على أساس العلاقات الحوزوية: التعامل مع العلماء والطلبة على أساس العلاقات الحوزوية، العلم والفضل، التبليغ، والتأليف، التقوى، والالتزام، سواء في دفع الرواتب، أم الاهتمام

المعنوي، ولعل الإمام الحكيم - فيما نعلم - كان أول مرجع في العصر بـدا مرجعيتـه بـدفع مـا يـصل إليـه مـن حقـوق شـرعية إلى الطلبـة والفـضلاء، دون أن يأخـذ بنظـر الاعتبـار أنهـم يحـضرون درسـه، أو يقتربـون منه في محـل العمـل، أو ينتمـون إليه إقليمياً، كمـا كـان يـصنع بعض الأعلام والمراجع في البداية مثل ذلك من التمييز، ولعله لمبررات شرعية او عرفية عند عـدم القـدرة علـى استيعاب الجميـع، والاقتـصار على الاقربين[1].

وهــو في هــذا الموضــوع ســابق، باعتبــار قــدرة العلمــاء الآخــرين المحـدودة، إذ كـان العـالم أول مـا يعطـي طلابـه، فـإذا توسـع مالـه وأصـبحت إمكانياتـه أكـبر يعطـي لأهـل بلـده، وهكـذا إلى أن يـصبح قادراً، فيعطي للجميع، وهذه هي الأسس آنذاك، أمّا المرحـوم الـسيد الحكيم فقد غير هذه الأسس ووضع ثلاثة أسس في العطاء:

الأساس الأول: الاشتغال، أي: يعطي المشتغل بدرسه - سواء كان يدرس عنده أم عند غيره - وكان الكثير من المشتغلين يأخذون الراتب من السيد الحكيم، وهو في بداياته، ولا يعطي بعض طلابه؛ بسبب عدم الاشتغال.

الأساس الثاني: الحاجة، أي: كـان يعطي الباكستانيين، والهنـود،

---

(1) كانت الرواتب في حوزة النجف محدودة، ولا تعطى لكل الطلاب، بل تعطى لبعض الناس، والباقي يعيشون على الصدقة وغيرها. وقد ذكر المرحوم السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة حاله، وكيف كان يعيش وبأية طريقة، وقد اهتم الإمام الحكيم كثيراً في إيجاد وضع يجعل طالب العلم في حوزة النجف يستقر نسبياً..**(المؤلف)**.

والأفغانيين، واللبنانيين، باعتبار حاجتهم، وكذلك الخليجيين قبل زمن النفط؛ لأنهم يعيشون حالة الفقر الشديد، فيعطي هؤلاء أكثر مما يعطي لبعض العراقيين المجاورين لبيته، فضلا عن بلده[1].

الأساس الثالث: المبلغون: وهم الذين كانوا يذهبون إلى التبليغ، وبيان الأحكام للناس، فكان يهتم بهم اهتماماً خاصاً، ويرعاهم رعاية خاصة.

٢. **الاستقلال المالي ورعاية الطلبة:** محاولة إيصال الطالب إلى مرحلة الاستقلال المالي النسبي، ورعايتهم من خلال الرواتب التي يحصل عليها طلاب العلوم الدينية في النجف.

لقد كان من سياسات الإمام الحكيم المهمة قضية رعاية الطلبة، بصدر واسع، وقلب منفتح، وكانت له هذه الميزة التي تمكن أنْ يجمع بينها وبين مسؤوليات المرجعية، بالرغم من المشكلات التي كان يواجهها في أيام الفقر الذي كانت تعيشه المرجعية في ذلك الوقت[2] ومع ضعف الأوضاع الاقتصادية والمالية للحوزات العلمية، وكثرة عدد طلابه البالغ ١٢٠٠ في النجف، ووصل عدد الطلاب في مرجعيته إلى ٨٠٠٠ طالباً، مع هذه الأوضاع الاقتصادية السيئة، تمكن أن يقيم مشاريع

---

(1) حتى أن بعضهم كانوا يقولون: لماذا لا يعطينا السيد ويعطي التبتية والنكرية؟ فيقول: هؤلاء مهاجرون، ولايتمكن أهلهم من مدهم بالمال، وإن لم أعطهم يبقون ينتظرون الزيارة مرة أو مرتين في السنة. فعليّ أن أعطيهم ما أتمكن من إعطائه..**(المؤلف)**.

(2) إذ كان ﷺ يعطي للأعزب ربع دينار، وللمتزوج نصف دينار، ثم تطور الحال أكثر فأكثر إلى ما قبل وفاته، فكان يعطي العطاء العام للمتزوج (٤) دنانير، وللأعزب دينارين.

وحوزات علمية؛ وذلك بسبب رعايته للطلبة.

لقد تمكن الإمام من خلال رعايته للطلبة من تطوير بعدين:

أولاً: البعد الكمي لطلبة الحوزة: حيث تمكّن أن يضاعف أعداد طلبة حوزة النجف الاشرف إلى عدة أضعاف.

ثانياً: البعد الكيفي لطلبة الحوزة: تمكن الإمام الحكيم أن ينهض بالحوزة العلمية ويجعلها فاعلة من خلال التغيير الكيفي لطلاب العلوم الدينية، الذين انتشروا فيما بعد في البلاد وأدوا أدوارهم في التبليغ، سواء في العراق، أم خارجه، بتخطيط حكيم ودقيق من قبل الإمام الحكيم، الذي جعل المرجعية المحور الأساس لتحرك الإنسان الشيعي.

ونتيجة لاهتمام الإمام الحكيم الكبير بالحوزة والطلبة حصلت علاقة ودية وقوية بينه وبينهم(١)، وأنا أعتبر الإمام الحكيم شهيد الحوزة

---

(1) لقد اهتم الإمام الحكيم بقضايا الطلاب، كالسكن والقضايا الاجتماعية، وكان يقوم بخدمة أصغر الطلاب، ويتعامل معهم وكأنهم أولاده. وسمعت من أحد الطلاب أنه قال: بهذا التعامل شجعنا الإمام الحكيم على الاستمرار بالحوزة.

وقد وفّر الإمام الحكيم الحماية للمشردين من الطلاب الإيرانيين أيام الشاه، حيث وجهت إلى حوزتهم ضربات قوية - كما وجهت الآن إلى حوزتنا في النجف، وأدى ذلك إلى هجرة الطلاب إلى إيران - فهاجر كثير من الطلاب من قم إلى النجف، فوجدوا الحماية من السيد الإمام الحكيم، وأعطى لهم الرواتب، ووفر لهم السكن، والحال أن نظام الشاه كان قوياً تخافه الأنظمة في العراق.

وهناك قضية أخرى واجهها كثير من الطلاب، من الخليج وأفريقيا بشكل خاص، وباكستان وأفغانستان، ألا وهي قضية القومية، فالحكومة الأفغانية كانت حاقدة، فلم تعطِ لجميع الطلاب جوازات سفر، فأجرى الإمام الحكيم مباحثات مع الحكومة الباكستانية⬅

العلمية، فقد بدأ صراعه مع البعثيين من أيام تسفير الطلاب الإيرانيين،

➥- وكانت حديثة التأسيس - في هذا الموضوع وحصل أكثر هؤلاء الطلاب على جوازات سفر باكستانية، ونظموا أمورهم على هذا الأساس، وكان يقوم بهذه الأشياء؛ لأجل الحوزة العلمية. وفي مقابل ذلك كانت الحوزة العلمية وفية للإمام الحكيم، فهذا النوع من السياسة للطلبة والحوزة جعلهم يحبون الإمام الحكيم، ويعشقونه، ويدافعون عنه، ففي أيام المد الأحمر الشيوعي وقفت الحوزة إلى جانبه - وقد كان لبعض الطلاب موقف سيّء - وكان الشهيد مدني (رضوان الله عليه) مع مجموعة من الطلاب يأتون يومياً إلى الكوفة، ويقفون على باب بيت السيد الحكيم، ويندّدون بالشيوعية، وقام بعض الطلاب بتحريض البلدان الأخرى ضد الشيوعية.

وهناك موقف بطولي للحوزة العلمية، فعندما سافر الإمام الحكيم إلى بغداد اعتدى البعثيون على داره وفتشوها، فرجع الإمام الحكيم إلى النجف، ولم يثبت معه من العلماء إلّا القليل - وبعضهم حاضر الآن - وفي اليوم الأول جاء الطلاب أبناء التبتية والنكرية، وفيهم عراقيون ولبنانيون، وخليجيون إلى الإمام الحكيم، ثم حوصروا بعد ذلك في مسجد الكوفة، واعتُقلوا وعذبوا. وفي اليوم الثاني جاءوا لزيارته أيضاً - وكان الخوف يملأ قلوب الناس - فبعث النظام مجموعة من رجال الأمن والمخابرات منعت الطلاب من ركوب السيارات، فقرروا الذهاب مشياً على الأقدام، وحدثت معركة بينهم وبين البعثيين - وكان أحد الطلاب يستخدم حذاءه كسلاح - وتمكنوا من إرغام البعثيين، مما أدى إلى حصول حالة رعب بين البعثيين، فطلبوا هدنة، وسمحوا للطلاب بالذهاب لزيارته.

وللتاريخ أقول: إنّ الموقف الذي وقفه طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف دفاعاً عن الإمام الحكيم، عندما تعرض للأذى من قبل البعثيين لم يقفه احد من الناس، فقد تعرض الطلبة الباكستانيون والهنود واللبنانيون والخليجيون والأفغان للضرب والقتل، وإراقة الدماء والحبس والتشريد دفاعاً عن مرجعيته؛ لأنهم كانوا يحبونه، ويرتبطون به، ولا زلت أشعر بهذا الحب من إخواني حفظهم الله في كل مكان.

وهذا الموقف يدلل على أن للحوزة العلمية والعلماء المرتبطين بالمرجعية دوراً عظيماً في مجرى التأريخ، لايمكن لأي صنف من الناس أن يقوم به..(**المؤلف**).

والاجتماع الذي عقد في بيته أيام الأربعين، واستمر هذا الموقف إلى أن توفي.

٣. تأسيس المدارس، أو تجديد بنائها، أو تأجير الأماكن؛ من اجل تغطية النمو الكبير في عدد الطلبة المجردين واستيعابهم.

٤. إرسال الوكلاء إلى المدن والبلاد المختلفة، لتغطيتها على المستوى الثقافي والتبليغي، وتنشيط اهتمامهم بالحوزة والطلبة ودعمها.

لقد قام الإمام الحكيم بإرسال الوكلاء إلى داخل العراق وخارجه، وكان يخطط لجعل الوكيل غير محتاج إلى الناس، فسابقاً عندما يذهب الوكلاء يعتمدون على الناس، وأمّا في زمن الإمام الحكيم فقد كان يدعم الوكلاء مالياً، ويقول لأحدهم: اذهب وأنا أدعمك لمدة سنة، بعد ذلك رتب وضعك، بحيث يتمكن هذا الوكيل من أداء رسالته. وقد كان لهذا التنظيم أثر على مسيرة وحركة المرجعية.

٥. الاهتمام بتنظيم الدراسات الحوزوية، وتأسيس المدارس **من اجلها**، مع إدخال واستيعاب بعض الدروس والأبحاث الجديدة؛ لتغطية حاجة الطلبة الجدد من المدرسين، والأعداد المضاعفة منهم، وتنظيم أمورهم، وإعدادهم للقيام بواجباتهم الإسلامية.

لقد اهتم الإمام الحكيم بالجانب الثقافي في حوزة النجف، فكانت الحوزة قبل مرجعية السيد الحكيم لايُدرّس فيها إلّا الفقه والأصول تحقيقاً، وأما العلوم الأخرى، كالفلسفة فقد كان يرى البعض حرمة تدريسها، وأما أن يُدرّس الاقتصاد أو أشياء من هذا القبيل، فكان هذا غريباً جداً، وبعيداً عن الأذهان.

وقد تمكن من تطوير هذا الجانب، فأسس مدرسة العلوم الإسلامية،

وادخل فيها تلك العلوم. وكانت أول مدرسة حوزوية في هذا المجال.

نعم، كانت هناك لبعض العلماء - كالسيد الخوئي - مساهمات واهتمامات في جوانب أخرى، حيث كان السيد الخوئي يدرس التفسير، وقد عيب عليه في ذلك.

٦. توعية الأوساط الدينية الشعبية على ضرورة الاهتمام بالحوزة، ورعايتها، وكفالتها، وكذلك كفالة الطلبة الذين يتتمون إلى هذا البلد أو ذاك.

٧. المطالبة بالاعتراف بالدراسات الحوزوية على مستوى الإعفاء من الخدمة العسكرية في الجيش، أو منح الإقامة، أو منح جوازات السفر للمطاردين، او غير ذلك من الشؤون ذات العلاقة باستقرار الطالب.

٨. تشجيع حركة التأليف والنشر وتأسيس المراكز العلمية لخدمة هذه الأغراض الثقافية، بدرجة أنّ الخط البياني المتصاعد لهذه الحركة ضرب رقماً قياسياً.

وقد حقق الإمام الحكيم في مختلف هذه الأبعاد إنجازات مهمة، وأرسى قواعد رسم اتجاهات لازالت مؤثرة في عموم الأوضاع الحوزوية حتى الآن[1].

الأمــة

ثالثاً: تمثل الأمة في إطار حركة المرجعية ونظريتها عنصراً مهماً، يعبر عن مجال عملها ونشاطها من ناحية، وعن الهدف الأساسي لها في

(1) وكل واحد من هذه المعالم والإنجازات، يحتاج إلى حديث واسع لشرح تفاصيله، نجد بعضه في ما نشر عن الإمام الحكيم من كتب وأبحاث ومقالات.

التحرك من ناحية أخرى، حيث أن المرجعية ليست دولة أو حكومة، وإنما هي نظام للعمل في الأمة في ظل حكومة قائمة، شرعية أو غير شرعية، ولكنها أيضا تمارس بعض الأدوار و النشاطات التي تشبه دور النظام السياسي، وذلك لملء الفراغ الديني والشرعي، في مساحة مهمته متروكة لهذه المؤسسة، أو عندما تتخلى الدولة عن واجباتها، أو تعجز عن القيام بها، أو تنحرف وتتعدى حدودها المرسومة لها في نظر الشرع المبين.

اذا فالأمة ساحة وميدان عمل المرجعية كما أنها في الوقت نفسه هدف المرجعية؛ لأنها تستهدف بالأصل هداية الناس إلى الله تعالى، وإيجاد الوعي في صفوفهم للحقائق الإلهية والحياتية، ودعوتهم للالتزام بها، وتربيتهم والدفاع عن حقوقهم وكرامتهم وحريتهم.

ومن خلال هذين البعدين تنظر المرجعية إلى الأمة، و تتحرك باتجاهها.

وكما رأينا فان المرجعية تعتمد في وجودها وقدرتها على الأمة بعد الله تعالى، وكلما كانت علاقة المرجعية بالأمة قوية وحميمة، كلما كانت المرجعية مقتدرة ومؤثرة، والعكس صحيح أيضا.

ومن هنا نجد الإمام الحكيم يهتم اهتماماً بالغاً بهذا الجانب والبعد في حركة المرجعية، وتحققت إنجازات كبيرة سواء على مستوى فهم دور الأمة ومسؤولية المرجعية تجاهها، أم على مستوى سعة النشاطات وشموليتها، أم على مستوى الأهداف المنشودة في أوساط الأمة.

ويمكن أن نلاحظ ذلك في النقاط التالية:

الأولى: الاهتمام البالغ بأبناء الأمة من خلال بناء العلاقات، ومد الجسور المباشرة مع مختلف قطاعات الأمة[1]، فقد كانت علاقة المرجعية وجسورها بشكل عام مع القطاع المتدين من الناس، وذلك فيما قبل الإمام الحكيم بعد الحرب العالمية الأولى، تلك الفترة التي حصلت فيها انتكاسة. أما القطاع المثقف أو قطاع غير المتدينين من الناس، فيمكن أن

---

(1) اهتم ﭬ بإيجاد الصلة المباشرة بالقطاعات المختلفة للأمة، فكان الجنود في المناسبات المختلفة يتصلون به – وهم يمثلون قطاعاً واسعاً من أبناء الشعب – ويكتبون له الرسائل، فكان لا يترك رسالة من رسائلهم إلاّ ويجيب عليها، التهنئة بتهنئة، والتعزية كذلك، وكل المشاكل التي يطرحها الجنود يجيب عليها.

وفي فترة من الزمن كان مرض السل منتشراً في العراق، وكانت هناك مستشفيات يُداوى فيها المبتلون بهذا المرض، ومنها: مستشفى التويثة، الذي كان يتواجد فيه هؤلاء المرضى الذين يبقون مدة شهرين أو ثلاثة أو أربعة أشهر تحت العلاج، فكانوا يراسلون السيد الحكيم، وبعضهم يطلب مساعدة، أو يسأل مسألة شرعية وغيرها، فكان السيد يجيب على رسائلهم مهما اختلفت أشكالها. والشيء نفسه كان مع السجناء الذين كانوا يمثلون الطبقة المستضعفة، كان يتعامل معهم نفس هذا التعامل، وكانوا يطلبون مساعدات، فيبعث لهم بدينار أو ثلاثة دنانير، وكان الدينار في ذلك الوقت ذا قيمة شرائية عالية.

وفي يوم من الأيام اشتكى مدير السجن عند الإمام الحكيم؛ لأن بعض السجناء غير مستحق، والبعض الآخر يستخدمها بصورة غير صحيحة، وطلب أن يكون هناك نوع من السيطرة على مثل هذه المساعدات. وبعد ذلك وضعت ضوابط، لتمييز المحتاج من غيره، ولكن ليس عن طريق مدير السجن.

هكذا كان السيد الحكيم يبني الجسور والروابط مع مختلف قطاعات الأمة ويتصدى شخصياً لذلك..**(المؤلف)**.

نقول: أن الجسور مابين المرجعية وبينهم منقطعة تقريباً، وغير موجودة، وقد تمكَّن الإمام الحكيم أن يعيد للمرجعية علاقاتها مع الأمة، ويجعلها تتفاعل وتبرز كقيادة حقيقية في الساحة، وكل من عاصر الإمام الحكيم يعرف حجم التفاعل الجماهيري العظيم مع المرجعية من خلال الأعمال التي قام بها آنذاك..

ونذكر هنا بعض الأمثلة على ذلك:

١. على المستوى الشخصي، حيث كان يجلس لاستقبال الناس في اليوم ثلاث مرات، مضافاً إلى أيام الأعياد والمناسبات العامة، وبعد ازدياد حجم الأعمال والمسؤوليات أصبح الجلوس مرتين.

٢. كان يجيب على الرسائل وعلى بطاقات ورسائل التهاني والتعازي، ويؤم صلاة الجماعة التي يلتقي فيها بالناس عادة بعد انقضائها، ويحضر المجالس العامة، والزيارات المخصوصة للإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، حيث يكون اللقاء شاملاً، ويزدحم الناس لزيارته، وعرض قضاياهم ومشاكلهم وحوائجهم... إلى غير ذلك من الأساليب.

٣. الزيارات التي كان يقوم بها إلى بعض البلاد المهمة، كبغداد، والكاظميين، والحلة، أو زيارته إلى لبنان وغيرها مما كان يفسح المجال للقائه من ناحية، والتعرف على أوضاع الناس من ناحية أخرى.

وبالرغم من ان هذه الزيارات كانت محدودة نسبياً، ولكن هذا الأسلوب على مستوى المرجعية العامة كان أول من مارسه هو الإمام الحكيم، لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار قلة الوسائل والامكانات، وصعوبة الاتصالات، وعدم تعبيد الطرق، أو وجود وسائط النقل

المناسبة، حيث لم يكن يملك الإمام الحكيم وسيلة نقل خاصة إلا في أواخر أيامه.

٤. عمل الإمام الحكيم على مد الجسور والاتصالات مع الأمة من خلال شبكة الوكلاء، والممثلين، و المبلغين، والمكتبات العامة، والفعاليات الجماهيرية الواسعة، كالاحتفالات الضخمة السنوية والموسمية، أو الندوات الفكرية والثقافية، التي كانت تقيمها المؤسسات التابعة للمرجعية أو المرتبطة بها، أو القيام بتقديم الخدمات الدينية في موسم الحج من خلال تأسيس بعثة دينية على شكل هيئة لأول مرة في تاريخ المرجعية، حتى أصبحت سنة متبعة بعد ذلك للمراجع الدينيين.

٥. القيام بتقديم الخدمات العامة على مستوى إرسال الهيئات للإصلاح بين العشائر العراقية في النزاعات والخلافات التي كانت تحدث بينها، أو القيام بإرسال وفود؛ لافتتاح الحسينيات والمساجد والمؤسسات، أو إرسال المساعدات في الحوادث الطبيعية، كالزلازل، أو الفيضانات، وغير ذلك من المساهمات التي كانت تشعر الأمة من خلالها بالاهتمام والارتباط والحضور للمرجعية كمؤسسة تهتم بشؤون الأمة وقضاياها.

٦. اهتم في هذا المجال بتأكيد العلاقة بالأوساط المحرومة دينياً أو اجتماعياً، أو التي تعرضت إلى العزلة والانقطاع عن المرجعية الدينية - لأسباب سياسية واجتماعية - مثل: الموظفين، وطلاب الجامعات، والمهاجرين من الريف إلى المدن، وكذلك أوساط العشائر العراقية والأرياف.

٧. قام الإمام الحكيم بإنجاز عظيم في هذا المجال من خلال إيجاد العلاقات الدينية القوية مع أوساط كانت معزولة تماماً عن المرجعية، بحيث تعرضت لأخطار الانحراف أو الضياع، مثل بعض مناطق الشمال الغربي في العراق، في كركوك والموصل، والعلويين في سوريا، والشيعة في تركيا وأفريقيا... الخ.

لقد كانت هذه النقطة من المزايا الواضحة التي كانت تلفت النظر في مرجعية الإمام الحكيم، وقد أدركتها الأمة بوجدانها وعقلها، ولازالت تشعر بآثارها النفسية والروحية.

إ ح ي ا ء ا ل ش ع ا ئ ر ا لإ س لا م ي ة

الثانية: الاهتمام البالغ بالشعائر الإسلامية، والعمل على تطويرها والاستفادة من الفرصة التي كانت تهيؤها لتحقيق أغراض المرجعية المقدسة، في أوساط الأمة.

وهذه الشعائر:

١. صلاة الجماعة، التي كان يمارسها شخصياً بشكل عام في اليوم مرتين أو ثلاث مرات، وحتى في الأسفار، والحث على إقامتها من قبل العلماء، والوكلاء، والمبلغين.

٢. موسم شهر رمضان المبارك، الذي كان يهتم به الإمام الحكيم بصورة خاصة؛ للاستفادة منه في الوعظ والإرشاد، وتعليم الأحكام الشرعية والأخلاق الإسلامية، وتربية الناس على الصلاح والتقوى.

٣. المجالس الحسينية في شهر محرم وصفر، والمناسبات الأخرى للنبي ﷺ والائمة الأطهار عليهم السلام من وفياتهم، ومواليدهم، أو الأعياد

الإسلامية والمذهبية، وإقامة الاحتفالات فيها، وتطوير مضمونها، بالحرص على أن تكون هذه المجالس والاحتفالات ذات مضمون ثقافي، وفكري، وأخلاقي، وسياسي، يرتبط بشؤون الأمة، وقضاياها وحاجاتها.

٤. المواكب الحسينية، التي كانت تمثل عملاً جماهيرياً مهماً في الأمة، سواء المحلية منها، أم الموسمية العامة التي تتردد لزيارة الأربعين، وعاشوراء في كربلاء، ووفاة النبي الأعظمﷺووفاة أخيه ووصيه الإمام امير المؤمنين عليه السلام في النجف، حيث تحولت هذه المواكب إلى عمل اجتماعي وسياسي ضخم، سواء من حيث الإخراج، أم المضمون، أم الانسجام، أم الكثافة العددية والاهتمام. وأصبحت مدرسة جماهيرية واعية للأمة، ومؤسسة تعبوية روحية، وثقافية، وسياسية. وكان موقفه من قضية الشعائر الحسينية، واهتمامه البالغ بها، بحيث كان يشارك فيها شخصياً، وعندما عجز عن المشاركة الشخصية كان يمثله الطبقة الأولى من مريديه ومحبيه وحاشيته.

فكان العالم الرباني الجليل آية الله السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم - الذي يكبر الإمام الحكيم سناً - يشترك في هذه الشعائر ممثلا عنه. كما كان يمثله أولاده والشخصيات المهمة؛ ليعبروا عن حقيقة أن الشعائر جزء من هويتنا ووجودنا.

وقد أكد الإمام الحكيم على إقامة الشعائر علناً، حيث يقف المرء في الشارع ويهتف باسم الحسين عليه السلام، ويُظهر الحزن عليه في كل مكان، وتنطلق الصرخات، لتعم العالم الإسلامي.

ثم إنه نزه الشعائر الحسينية من الشوائب التي تضر بها سياسياً. فعندما حاول الشيوعيون أن يسيطروا عليها من خلال مضمونها، وأخذوا يطرحون شعاراتهم في (الردات) والشعر الحسيني، نجد أنّ الإمام الحكيم يبادر إلى تحويل الشعارات والمواكب إلى هتافات إسلامية حسينية ذات مضمون يرتعد منه الطغاة والظالمون[1].

---

(1) لقد اهتم بالشعائر الإسلامية العامة من قبيل صلاة الجماعة، أو ذكريات مواليد النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام والشعائر الحسينية، وكان يعتبر هذه الشعائر محوراً لتجمع الناس ولحركتهم، ولوجود العلاقات الشخصية بينهم، فكان يباشر ذلك بنفسه ويشجع عليه.

وأنا لا أعرف مرجعاً كان اهتمامه بالشعائر الحسينية بهذا الشكل، فقد عطّل وفداً كبيراً، لأجل موكب. وكان السيد الحكيم يأخذ السيد محمد سعيد الحكيم – وهو أكبر سناً منه، ويعتبر رئيساً للعشيرة، ولهُ تاريخ جهادي – لاستقبال المواكب الحسينية والسير أمامها، وكان السيد محمد سعيد الحكيم ملتزماً بذلك، ويخرج – أيضاً – في مواكب النجف الذاهبة إلى كربلاء. وكان الإمام الحكيم يهتم بهذا الموضوع شخصياً، وأذكر عندما كنا صغاراً، كنا نخرج حفاة، ونلبس السواد، وننزع العباءة؛ لأجل الاشتراك في المراسم الحسينية أيام عاشوراء.

إن اهتمام الإمام الحكيم بالشعائر الإسلامية والدفاع عنها إنما كان مراعاة للأمة تجاه القضية الحسينية من ناحية، ولجلب الأمة لخط الإسلام من ناحية أخرى.

وعند مجيء عبد الكريم قاسم إلى الحكم كانت اللافتات في المواكب الحسينية والهتافات التي يُهتف بها هي: (السوفياتية والاتحاد والفدرالية)، وكذلك في مواكب وفاة النبي ﷺ، وكانت تدعمها التيارات القومية، وقوى الاستكبار العالمي، فتمكن الإمام الحكيم أن يحول هذه المواكب التي تهتف للاستكبار إلى مواكب تهتف باسم الإسلام وأهل البيت عليهم السلام، والمرجعية آنذاك معزولة، ويعتبر هذا تحولا عظيماً حدث نتيجة لاهتمامه بهؤلاء الناس وارتباطه بهم. وقد تعرضت هذه المواكب إلى حملات قمعية شرسة من قبل نظام العفالقة في العراق؛ لدورها العظيم في⬅

ثم نزه الشعائر الحسينية من شوائب البدع والضلالات عندما حاول بعض الناس أن يوجدوا شعائر تشبه شعائر عَبَدة النار. حيث كانوا يشعلون النار، ثم يتوضؤون ويدخلون فيها تعبيراً عن الارتباط بالإمام الحسين عليه السلام. لكن الإمام الحكيم وقف وقفة شجاعة فحرم ذلك، وبادر إلى تنفيذه مع أنه لم تكن لديه سلطة تنفيذية، لكنه استخدم كل الإمكانات لمنع هذا الانحراف.

وهكذا كان مع بعض الشعائر التي صارت توجب نفرة الناس من الشعائر الحسينية كلها، وذلك لما تطور وضع المجتمع الإسلامي بشكل أكبر، فكان موقفه الحازم من موضوع التطبير، وكان موقفه واضحاً أيام آية الله العظمى الشيخ النائيني، لكنَّه بعد ذلك حرّم هذه الممارسة، وكان يقول: هناك أمران رئيسان منعا التشيع من الانتشار والتوسع: أحدهما التطبير الذي ينفِّر المسلمين من مذهبنا. والآخر ما يمارسه بعض الجهال من الشتم والسب واللعن، وذلك ما يأباه مذهبنا، وأفكارنا، وعقائدنا، ومنهجنا الإسلامي. حيث نهى القرآن عن أن تسب آلهة المشركين مع أنها في النار.

لكن السب والشتم شيء، والحديث الفكري والمنطقي وكشف الحقائق شيء آخر. فلا نعني الامتناع عن اللعن، إخفاءاً للحقائق والواقع الذي جرى، فالقرآن الكريم يتحدث عن آلهة المشركين، ويصفها بأنها حطب

➡التعبئة، ولاسيما بعد أن تطورت في وجودها الكمي والكيفي والمضمون، أصبحت الحسينيات المرتبطة بها قواعد دينية؛ ولذا قام النظام بعد منعها، بهدم جميع الأبنية، والحسينيات المرتبطة بها، وتحويلها إلى مجرد خرائب مهجورة..(**المؤلف**).

جهنم، وفي الوقت نفسه ينهى عن سبها لأن وراء السب حواجز وموانع تؤدي إلى عدم انتشار الإسلام.

٥. مواسم الحج والزيارات المخصوصة للأئمة الأطهار عليهم السلام والتي كانت توفر فرصة لاجتماع الناس، والحديث إليهم، وتوجيههم حتى انه استفاد من هذه المواسم لعقد لقاءات سياسية، أو اجتماعية، أو دينية، وكان احد أهم اللقاءات التي أجراها، هو لقاء العلماء يوم الأربعين في كربلاء سنة ١٣٨٥ـ ١٩٦٥؛ لإدانة الحرب الظالمة، التي شنها نظام عبد السلام عارف ضد أبناء الشعب في كردستان العراق أيام حكمه[1].

وكذلك إعلانه لموقف الرفض للإجراءات التعسفية ضد الحوزات العلمية في النجف وكربلاء، الذي أقدمت عليه حكومة احمد حسن البكر، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩.

وكذلك زيارته لحج بيت الله الحرام، والتي شارك في توديعه واستقباله فيها مئات الآلاف من أبناء الشعب العراقي، وكانت تعبيرا عن عظمة المرجعية وموقعها في الأمة.

إ يجا د ا لـ ؤ سـ سا ت ا لـ عا مـ ة

الثالثة: تشجيع إيجاد المؤسسات، وإقامة المشاريع الخيرية، والجمعيات الدينية والاجتماعية التي يقيمها الأفراد أو الجامعات.

---

(1) لقد قام الإمام الحكيم بجمع العلماء في كربلاء، لإعلان هذا الموقف، في وقت كان قد جمع فيه عبد السلام بعض العلماء في مؤتمر إسلامي، حضره مفتي بغداد، وشيخ الأزهر، لإعلان أن الاكراد (بغاة) يجوز قتالهم، وكان موقف الإمام الحكيم له اثر كبير في إفشال هذا المؤتمر..(**المؤلف**).

وتأسيس قنوات التخاطب مع الأمة كالمجلات الإسلامية، أو المنشورات، أو المراكز الثقافية، كالمدارس والمكتبات[1] - سواء أكانت

---

(1) وفي هذا المجال، أتذكر مثلا: عندما أسس المرحوم حجة الإسلام السيد محمد الحيدري، مكتبة الخلاني العامة، التي كانت تمثل جسراً مع قطاع المثقفين، كانت مسألة هامة لمجتمع المثقفين. وكان يُنظر إلى السيد الحيدري على أنه عالم لامع تمكن أن يبني جسراً. وهكذا الحال في مكتبة أهل البيت، التي بناها آية الله السيد علي نقي الحيدري، في الكسرة، واجتمع فيها مجموعة من الشباب أيضاً.

كان هذا الشيء يعتبر حدثاً من الأحداث المهمة التي حصلت في العراق، مع أننا ننظر الآن إلى قضية وجود المكتبات والمثقفين وهذه المؤسسات على أساس أنها قضية عادية وموجودة، وليست من المسائل المهمة، فإذا رأينا الآن مكتبة عامة يجتمع بها بعض المثقفين فلا نرى أن هناك شيئاً كبيراً قد حدث في المجتمع، لكن في ذاك الوقت كان ذلك يُعتبر حدثاً من الأحداث المهمة؛ لأن الجسور كانت مهدومة ومقطوعة، ولا توجد هناك صلة بين المرجعية والأمة.

أتذكر كلاماً للإمام الحكيم يعبر عن هذا المدلول والمنطلق، يقول:

كان الإنسان في العهد الملكي من أجل أن يدخل في وظيفة من وظائف الدولة أو يتسلم مقاماً من مقاماتها، معرضاً إلى أن ينظم بيتين من الشعر الإلحادي، يسب فيهما الدين أو مقدساً من المقدسات مثلا، أو ينكر الله فيهما، أو أي شيء من هذا القبيل؛ ليكون موثقاً عندهم. وكان هناك شعور بأن الشخص إذا أصبح مديراً أو وزيراً أو أكبر أو أصغر من ذلك، حتى إذا أصبح معلماً، فهذا يعني أنه انقطع عن الدين والإسلام وأصبح شيئاً آخر، باعتبار عدم وجود الصلة والجسور بين المرجعية والأمة، وإنما كانت الصلة في المرجعية بقطاع المتدينين فقط.

لذا بذلت المرجعية في زمن الإمام الحكيم مساعي وجهوداً كثيرة – من قبل الإمام الحكيم نفسه، ومن قبل كل المتعاونين معه، والعلماء الموجودين في عصره، فإني لا أقصد من «المرجعية» المرجع نفسه، وإنما أقصد «جهاز المرجعية» ووجود هذا الجهاز الذي⬅

المكتبات الـتي تفتـتح باسـم مكتبـة آيـة الله الـسيد الحكـيم، أم المكتبـات الأخرى التي كـان يـدعمها ويـشجعها مـن موقعـه كمرجـع - وتـشجيع حركة التأليف و النشر، وغيرها.

وتوسعة دائرة بناء العتبات المقدسة للائمة الأطهار عليهم السلام وأولادهـم، أو زعماء وعلماء أتباع أهل البيت عليهم السلام، وكذلك بناء المساجد والحسينيات و المساكن التي تؤمن للعالم الديني نوعاً من الاستقرار والثبات.

وإذا أردنا أن نلقي نظرة عامة على فترة الخمس عشرة سنة التي أصبحت فيها مرجعية الإمام الحكيم قدس سره مرجعية عامة من سنة (١٣٧٥ - ١٣٩٠ هـ ق) لوجدنا تطوراً نوعياً، وكمياً ملحوظا وهاماً في جميع هذه المجالات المشار إليها، والذي يشكل ظاهرة وخطا علمياً في الرؤية العلمية لهذه المرجعية[1].

المـوارد المـاليـة المـنـظـمـة

الرابعـة: تنظـيم العلاقـات والمـوارد المالـية الـتي تعتمـد علـى الأمـة

➡شكّله واهتم به السيد الحكيم – في أن تُبنى الجسور والصلاة بينها وبين قطاعات الأمة. بحيث أصبح حتى الكثير من غير المتدينين – بالمعنى الأخص للتدين – أي ممن لم يكونوا ملتزمين، لكن عندهم مشاعر دينية وإيمان بالله سبحانه وتعالى بالإسلام، هؤلاء العصاة والمتمردون من أبناء الإسلام، يهتمون بالمرجعية وبمواقفها.. ماذا قال المرجع؟...ماذا اتخذ؟...ويمارسون الكثير من الأعمال السياسية ويخرجون – مثلا – لاستقبال المرجع ولتوديعه ويشاركون في تشييع العالم. وهكذا يقومون بأعمال كثيرة، تعبر عن علاقتهم وارتباطهم بالمرجعية وبأجهزتها...فأصبح عندهم ارتباط قلبي وروحي بالمرجعية، وباعتبار بناء هذه الجسور بينها وبينهم أخذ هؤلاء يدخلون بالتدريج للإسلام، ويلتزمون بالكثير من الشعائر والسلوك..**(المؤلف)**.

(1) هناك أرقام وأمثلة كثيرة تشهد بذلك اعرضنا عن ذكرها خوفا من الإطالة..**(المؤلف)**.

بشكل رئيسي، إذ من الواضح كما اشرنا سابقا أن المرجعية تعتمد في نفقاتها على الحقوق الشرعية كالأخماس والزكوات، وغيرها، التي تشكل في واقعها مصدرا مالياً كبيراً ومهماً، ولا يمكن لأي عمل تغييري أو إصلاحي كبير أن يحقق أغراضه دون وجود القدرة المالية، ومن اجل ذلك شرَّع الإسلام الخمس والزكاة وغيرها من الموارد المالية؛ لتتمكن الدولة الاسلامية من القيام بواجباتها ووظائفها، وأعطي الحاكم الشرعي صلاحية استخدام القوة لجباية هذه الأموال، وحتى أصبح الممتنع عن إعطاء الزكاة متمرداً على الدولة، يجوز قتاله.

وقد أعار أئمة أهل البيت عليهم السلام هذه الموضوع، أهمية خاصة أيضا بتأكيدهم على خمس فاضل المؤنة. إلا أن المشكلة في هذا المصدر المالي هو انه مصدر قد أوجبه الشارع المقدس على الإنسان المسلم، ولكن في ظروف المرجعية لايوجد عامل إجرائي، وقوة تنفيذية يلزم المكلف بالدفع ومن هنا تحول الدفع إلى حالة تطوعية ترتبط بمقدار تدين الإنسان والتزامه من الناحية، ووعيه للأمور والحاجات الإسلامية والدينية من ناحية أخرى، واخذ هذا المصدر يتأثر إلى حد كبير بقضية الوعي في حجمه وفاعليته.

وقد عمل الإمام الحكيم قدس سره على تحقيق الأمور التالية في هذا المجال:

١. تعليم الناس وتوعيتهم على هذا الواجب الشرعي وتنبيههم إلى أهميته، من خلال المبلغين أو غير ذلك من أساليب التوعية، التي كان يشارك فيها شخصيا في بعض الأحيان.

٢. العمل على تنظيم الدفع والالتزام به، حيث كان اغلب الأفراد

في العراق، وبعض البلدان الأخرى المستضعفة دينياً، من دافعي الحقوق الشرعية - فضلا عن غيرهم - يدفعونها بدون برنامج معين للدفع، بل عند المناسبات والحوادث، كالذهاب لحج بيت الله الحرام[1]، أو مناسبة تصفية تركة الميت، أو عند ورود عالم أو مبلِّغ إلى البلد أو المنطقة، ليمدوا له المساعدة بصورة مؤقته، أو وجود مشروع خيري وديني واضح يتفاعلون معه، أو ضرورة من ضرورات المؤمنين. ولكن الإمام الحكيم ﷺ اهتم في تنظيم هذه الحقوق، مستغلا هذه المناسبات المذكورة، فعندما يأتيه شخص يريد أن يذهب للحج لا يكتفي منه بخمس نفقة الحج، بل ينظم وضعه المالي من خلال حساب راس السنة، وتعيين مقدار الخمس في جميع أمواله، ويترك له الفرصة في تقسيط الدفع، أو تأخيره من دون إحراج ومضايقة، ولو كانت بسيطة؛ لتشجيعه على ذلك، مع توضيح الحكم الشرعي له.

كما كان يوصي وكلاءه ومبعوثيه، أن يهتموا بهذا الأمر اهتماماً بالغا،

---

(1) كان من الأمور التي اهتم بها السيد الحكيم في مجال مد الجسور مع الأمة، هو تنظيم الحقوق المالية للأفراد على أسس شرعية، وعامة الناس في العراق والبلدان الإسلامية كانوا لايهتمون بهذا الجانب، وإنما إذا توفي شخص يأتي أبناؤه ويقولون: نريد إخراج الثلث من مال أبينا، أو نريد رد المظالم، أو ذبح عقيقة وما شاكل ذلك. وعندما يوفق أحدهم للحج يفكر بإخراج الحقوق، وغالباً ما يخرج بمقدار حجه، هكذا كان الوضع الحاكم في العراق. وأذكر أن راعي الغنم عندما يأتي يقول: عندي مائة رأس من الغنم، ثم بعد التحقيق تصبح مائتين، أو أكثر، فهو يفهم أن هذه معاملة، وليست حقوقاً شرعية..(**المؤلف**).

ولا يقبضوا الأموال إلا بعد توضيح هذا الحكم الشرعي فيها، وتعيين هذا المنهج؛ ليجمع في ذلك بين فراغ ذمة المكلفين، وتنظيم الموارد المالية.

وكان يثقف أبناء الأمة على هذا الحكم الشرعي من خلال أسلوب الإلزام باستلام وصولات الدفع، حتى عندما يكون الدفع له مباشرة، ويبين لهم أن هذا الوصل له اثر معنوي لديهم ولدى ذويهم ومتعلقيهم، مضافا إلى أثره في تنظيم الدفع، وتمركز الأموال وعدم ضياعها.

٣. تشجيع المؤمنين من أصحاب الحقوق أن يقيموا مشاريع دينية في بلادهم، وأحياناً مساعدتهم ماليا؛ من اجل تخليص

ذمتهم من الحقوق الشرعية. والديون الإلهية من ناحية، وتشجيع الآخرين على هذه الأعمال وإثارة روح التنافس والتسابق للخيرات في نفوسهم.

كما كان يشجع أن تصرف الأموال على الوكلاء والمبلغين والأعمال الدينية في مناطق الدفع نفسها، ولاسيما الفقيرة منها؛ ليكون ذلك سببا لتشجيع الطلبة والعلماء للاهتمام بتلك البلدان والتردد عليها، أو الإقامة فيها بعد أن تحقق أسباب الاستقرار النفسي والمعيشي.

لقد كان لهذه السياسة اثر كبير في الأمة، ليس في الحصول على المزيد من الموارد المالية فحسب، بل في تحقيق الوعي والمشاركة الفعلية للأمة في الأعمال الدينية، والشعور بالمسؤولية تجاهها، والالتزام بها،

والدفاع عنها.

الخامسة: تنمية الخط الجهادي والسياسي في الأمة، حيث كانت الأمة في العراق - كما اشرنا سابقا - قد أصيبت بمرض الاستكانة والاستسلام للأوضاع القائمة، ولاسيما أن الأكثرية الساحقة لأبناء الأمة كانت معزولة عن القرار السياسي، وهم الشيعة الذين يشكلون الأكثرية في العراق، وخصوصا المنتمين إلى الشعب العربي، وكذلك الأكراد الذين يمثلون أكثرية أهل السنة في العراق، وكانت الاوضاع في الطرق تدار من قبل طبقة من السياسيين النفعيين والموظفين الإداريين، الذين ورثوا السلطة من العهد العثماني حيث بادروا إلى التعاون والاتفاق مع الغزاة الإنكليز، للقيام بدور النيابة عنهم في هذا المجال.

وقد حاولت الأمة في بعض الأدوار الانتفاضة على هذه الأوضاع، إلا أنها سرعان ما كنت تتعرض للقمع أو الخداع، الأمر الذي أدى إلى أن تصاب بهذا المرض النفسي السياسي (الاستكانة والاستسلام والعزلة).

كما أن الأحزاب السياسية الدخيلة حاولت ان تعبئ الامة في العراق على مفاهيمها ومبادئها المستوردة واهدافها السياسية، ولكنها فشلت - أيضاً - في نهاية المطاف.

ولذا كان الدور الذي قام به الإمام الحكيم ﴿قدس سره﴾ في تعبئة الأمة على الجهاد والتضحية، والمواجهة، وتوعيتها سياسيا على حقوقها

المشروعة عملا عظيما في هذه الفترة الزمنية الحساسة[1].

---

(1) قد جعل الإمام الحكيم الأمة تعيش حالة التحرك السياسي والجهادي، وكان من النشاطات المهمة التي قام بها، تعبئة الأمة؛ للوصول بها إلى درجة المواجهة السياسية، حيث أنه كان يؤمن بنظرية تربية الأمة ثقافياً وفكرياً، مع الاقتران بالممارسة السياسية في ميدان العمل؛ لأنه ليس من المهم أن تُربي الناس على الأفكار والعقائد والمفاهيم، ثم بعد ذلك نجعلهم يمارسون العمل السياسي، وإنما يجب علينا أن نهتم بالجانب الفكري والسياسي والثقافي لهم، وهذا الجانب يمثل الأساس، ومن أجل أن يكون متماسكاً قوياً قادراً على الصمود، ومواجهة الأحداث لابد أن يقترن هذا الجانب بأعمال سياسية مناسبة، بحيث يتطور العمل السياسي مع تطور الجانب الفكري والثقافي. وكانت التعبئة الجماهيرية التي مارسها تتمثل بالاحتفالات والتظاهرات والوفود والمسيرات الحسينية، وكانت مساهمتهُ فعّالة في مختلف هذه المجالات.

ومن مظاهر التعبئة للأمة أنه ولأول مرة في تاريخ المرجعية – بعد الانتكاسة – تدعو المرجعية إلى اضراب في النجف الأشرف، فيستجيب لها النجف الأشرف، وهكذا المظاهرات والاجتماعات العامة الكبيرة، التي كان يرعاها، والتي تتضمن تعبئة روحية وسياسية تجاه الإسلام. وكل هذه الفعاليات تصب في هذا المصب، وهو أن تكون هناك علاقة متكافئة بين المرجعية والأمة، بحيث يكون الحب بينهما متبادلا.

ومن جملة الخصوصيات التي كان يتميز بها الإمام الحكيم في المجال التعبوي – من بين المراجع في العراق – أنَّ مقلديه كانوا يحبونه حباً شخصياً؛ نتيجة لوجود هذه الروابط، وهذا شبيه إلى حد ما بإمام الأمة وعلاقته مع مقلديه، ونفس هذا الخط كان موجوداً عند السيد الشهيد الصدر، الذي لم تسمح له الظروف بأن يكون مرجعاً عاماً للمسلمين، إلاّ أنه كان يمثل البداية لمثل هذا المرجع الذي تحبه الأمة وتتعلق به.

وهذا النوع من الارتباط يمثل أساساً من أسس العلاقة بين المرجع والأمة، وكان مكرساً باتجاه تعبئة الجماهير في مواجهة الطغاة والمستعمرين..**(المؤلف)**.

الفصل الرابع

الجهاد السياسي للإمام الحكيم

ويمكن تقسيم البحث في هذا الفصل إلى محاور:

المحور الأول: نظريته السياسية

المحور الثاني: حركته الاجتماعية والسياسية

المحور الثالث: معالم ومواقف من الجهاد السياسي للإمام الحكيم

المحور الرابع: نتائج الحركة السياسية للإمام الحكيم

نظريته السياسية

هنالك رؤيتان في قضية القيادة في الأمة:

الرؤية الأولى: القيادة الفردية.

الرؤية الثانية: القيادة الجماعية، وأن القيادة لابد أن تكون متشكلة من مجموعة من الأشخاص الجيدين الذين يقودون الأمة، ويحركونها.

وقد افتتن بهذه الرؤية بعض المذاهب السياسية الغربية نظرياً، وإن لم يكونوا قادرين على تطبيقها عملياً.

والإسلام يؤمن بالشورى، ولكن لا على أساس أن القيادة تكون شورى أو جماعة، إنما على أساس أنها تمثل ضماناً نسبياً من الضمانات التي يمكن أن تحرس القيادة من الخطأ والانحراف.

أما على مستوى الأنبياء والمعصومين فإن الشورى تمثل أدباً في التعامل مع الأمة.

وهذا المضمون النظري الكلي يمكن أن نستفيده من خلال مسيرة الإمام الحكيم كقائد أصبح في مقدمة حركة المرجعية وموقفها، وتمكن أن يحقق إنجازات كبيرة على الساحة، سواء العراقية أم الإسلامية بشكل عام.

النظرية الإسلامية في القيادة

في الرؤية الإسلامية تكون القيادة في الفرد الصالح الجامع للشرائط من العلم والتقوى والشجاعة، وغير ذلك مما نشترطه في المعصوم بدرجة عالية جداً، ثم نشترط حصولها في العلماء الأعلام بدرجة أقل مما للمعصوم، والتي نسميها - أحياناً - بالعدالة العالية التي يجب أن

يتمتع بها المرجع والقائد الإسلامي الديني.

ويمكن أن نفهم هذه النظرية الإسلامية بمراجعة بسيطة للتاريخ الإسلامي، ولا أعني به التأريخ الذي يبدأ بالنبي محمدﷺ، إنما أعني به التأريخ الذي يبدأ بظهور الأديان في تاريخ الإنسان، فمن خلال المراجعة البسيطة لهذا التأريخ نلاحظ أن الله تعالى في كل فترة زمنية يبعث نبياً، إما للعالم أجمع أو لمنطقة معينة، وهذا النبي يقود المسيرة والأمة، ويكون مرجعاً لها.

ولم نعهد في تاريخ الأنبياء أن الله تعالى أرسل ثلاثة أو أربعة أو عشرة من الأنبياء؛ ليشكلوا المجموعة التي تقود الأمة.

وفي تاريخ أمتنا الخاتمة نعرف أيضاً - نحن أتباع أهل البيت(عليهم السلام) - أن النبيﷺ هو القائد الأول للأمة، ثم الأئمة واحداً بعد واحد.

وفي الروايات عن رسول اللهﷺالتأكيد على هذا المعنى، حيث إنه كان يقول: ((**إذا خرج اثنان إلى غزوة فلابد لأحدهما أن يؤمّر الآخر، فيكون أحدهما أميراً، والآخر مأموراً**))، وقد نزلت هذه الآية: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[1] تأكيداً لهذه النظرية.

قيادة المرجعية للأمة

ومن خلال مسيرة الواقع نجد في حركة أمتنا الإسلامية أنه وإن كان هناك مراجع متعددون، ولهم جماعات متعددة ترتبط بهم، باعتبار أن قضية التقليد مفتوحة، وكل يعتقد بأعلمية مرجعه، لكننا نجد دائماً

---

(١) النساء: ٥٩

- من خلال حركة الواقع - أن واحداً من هؤلاء المراجع هو الذي يقود المسيرة بشكل عام، والمراجع الآخرون يلتفون حوله ويؤيدونه.

وهذا ما شاهدناه في مرجعية الإمام الحكيم، فقد دخل المعركة السياسية والاجتماعية والتغييرية في الأمة في العراق وخارجه، وكان هناك مراجع للتقليد بمستوى من المستويات، لكنهم كانوا يقفون إلى جانبه. وبمراجعة بسيطة للتاريخ يمكن أن نتبين هذه الحقيقة.

نعم، قد يختلف هذا المرجع مع ذلك في نظرية فقهية، أو قضية جزئية، لكننا لاحظنا أنهم في المسيرة العامة والمواجهة والقيادة يساند بعضهم البعض الآخر ويعاضده.

فعندما واجهنا المد الأحمر والتيارات القومية والاشتراكية، وغير ذلك من المواجهات التي عشناها في العراق، كان الإمام الحكيم يتقدم المسيرة، والمراجع الآخرون يساندونه ويؤيدونه.

هذه هي النظرية الإسلامية بشكل عام، ولهذه النظرية مدلولات سياسية كثيرة على الأرض، وحركة الإنسان.

وحدة القيادة

ولا أريد تناول النظرية بالتفصيل؛ لأن ذلك يحتاج إلى مجال أكبر. لكني أشير إلى نقطة في التأريخ يمكن لكل واحد منا أن يواجهها حتى في الحركة التأريخية لغير الإسلام، حيث أنه لم تنتصر جماعة من الجماعات، أو حزب من الأحزاب، أو حركة إسلامية أو علمانية، مؤمنة أو ملحدة، ما لم يكن هناك رجل واحد يمسك بالأمور ويقود

الجماعة نحو النصر.

بل حتى في النظريات التي تؤمن بقيادة الجماعة، من قبيل الحزب الشيوعي، والنظرية الحزبية الغربية المرتبطة بالحضارة والآثار الغربية، والتي تؤمن بهذا النوع من النظريات في مقابل الديكتاتورية. حتى على هذا المستوى نجد أن الحزب الشيوعي لم يتمكن أن ينتصر في روسيا، ويحقق الدولة الشيوعية مالم يمتلك شخصية مثل لينين، يمسك مقاليد الأمور، ويقود الجماعة نحو الانتصار.

وهذه الظاهرة موجودة في كل التأريخ، غاية الأمر أن المسيرة الصالحة يكون على رأسها رجل صالح يجمع الشرائط الصالحة، وتلك هي مسيرة الأنبياء، أمّا المسيرات الفاشلة المنحرفة، فيكون على رأسها إنسان منحرف جبار طاغوت يرتكب أفظع الجرائم، كما هو الحال في مسيرة صدام وأمثاله.

النظرية السياسية للإمام الحكيم

أول الأسئلة التي ترد في أذهاننا في هذا المجال هو: **ما هي النظرية السياسية التي كان يؤمن بها الإمام الحكيم؟.**

وعندما نقول النظرية السياسية للإمام الحكيم لانقصد أن لديه نظرية تختلف عن بقية المراجع السابقين، وإنما نُريد أن نكتشف من خلال مسيرة مرجع عام لشيعة أهل البيت عليهم السلام - ولا شك أن الإمام الحكيم كان مرجعاً عاماً وحتى الذين يحقدون عليه يعترفون بمرجعيته العامة - النظرية العامة التي يؤمن بها هؤلاء المراجع، وأعتقد أنها

نفس النظرية التي جاء بها الإمام الخميني، وانتهى إليها تفكير السيد الشهيد الصدر، وغيرهما من العلماء السابقين الذين كانوا يتحركون في المجتمع.

وهذه النظرية يمكن أن نسميها (نظرية البلاغ)، وقد جاء هذا التعبير في القرآن الكريم، وذلك لأهمية الرسل ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ**...﴾[١]، وتوجد هناك تعبيرات أخرى من قبيل: الإنذار، والتحذير، والتبشير، فهذه الأوصاف موجودة في عمل الرسل، ومن سار بسيرتهم.

والسؤال التالي هو: **ما هي الخطوط العامة التي تميزت بها هذه النظرية عن النظريات الأخرى؟.**

هناك خصائص أساسية تميز نظرية البلاغ - التي يعبر عنها بنظرية الإمامة والمرجعية - عن النظريات الأخرى، من قبيل نظرية التحرك الحزبي، فمثلا التحرك الحزبي الذي يقوم على أساس التشكيلات والتنظيمات الحزبية التي تشمل الأمة كلها، له خصوصيات أساسية يتميز بها عن غيره من النظريات[٢].

لقد كان الإمام الحكيم يمتلك رؤية كاملة وصحيحة للنظرية الإسلامية، ورؤيته هي رؤية الإسلام، لا رؤية ذاتية خاصة به. وكانت رؤيته تعتمد على مجموعة من المقومات الأساسية وهي:

---

(١) المائدة: ٩٩

(٢) وهذا ليس انتقاداً لنظرية التحرك الحزبي، وإنما اكتشاف لنظرية الإمام الحكيم، وسأبين أن نظرية التحرك الحزبي يمكن أن تكون مقبولة ضمن تلك النظرية العامة، لكن في حدود معينة..(**المؤلف**).

١. القيادة للمرجعية الدينية

كان الإمام الحكيم يرى أن الفقيه له الولاية من باب أن المجتمع لايبقى بدون حكومة، ويجب أن يكون الحكم إسلامياً والحاكم فيه هو الفقيه.

وكان يعتمد في رؤيته على أن المرجعية الدينية تمثل رأس الهرم في الحركة السياسية، وهي القيادة الحقيقية فيها؛ ولذلك بقي يطرح هذا المضمون بشكل مكثف في كل الاجتماعات العامة للأمة، وكان يؤكد على قيادة العلماء للأمة. ومن كانت لديه أشرطة للاحتفالات التي كانت تقام في النجف وكربلاء يمكن أن يرى قضية التأكيد على قيادة العلماء والمرجعية للأمة.

٢. عدم فصل السياسة عن الدين

وكلمته في ذلك معروفة ويمكن الرجوع إليها، وقد مارس ذلك عملياً. وفي تلك الممارسة العملية واجه مشكلات كثيرة جداً، باعتبار أن العصر الذي سبق عصر الإمام الحكيم كانت فيه مشكلات تحيط بالمرجعية، وكادت أن تعزلها عن العمل السياسي، وكانت مفروضة على المرجعية فرضاً، والحديث فيها طويل.

فكان دور الإمام الحكيم أن أخرج المرجعية من هذه الحالة إلى حالة الممارسة للعمل السياسي، وكسر الطوق الذي طوق المرجعية. وكانت هذه العملية صعبة جداً، وهناك فرق بين من يعمل في أرضية ممهدة، وبين من يكسر القيود والأغلال.

لقد كانت الأمة في العراق - وخصوصاً شيعة أهل البيت عليهم السلام - معزولة

عن العمل السياسي لعدة قرون. ففي زمن العثمانيين لم يكن الشيعة يتحركون سياسياً، وكان التحرك السياسي مقصوراً على جماعة معينة من العشائر والقبائل. ولم ير الشيعة العمل السياسي إلا لفترة قصيرة من ١٩١٤ إلى ١٩٢٣، أي: إبان الحرب العالمية الأولى وثورة النجف ومن بعدها ثورة العشرين، وبعد ثورة العشرين بقليل، ثم توقف العمل السياسي.

فكان الإمام الحكيم يريد أن يُخرج الأمة من حالة العزلة إلى حالة الدخول في العمل السياسي. وهي عملية معقدة. لكنها كانت القضية الأساسية المركزية في تصوره؛ لأن الوضع السياسي جزء حقيقي من الدين، والسياسة هنا هي السياسة التي تعتمد على دعم الأمة، وتريد أن تربط الأمة بالقيم وبالله سبحانه وتعالى والكمالات الإلهية، وهذه هي سياسة الأنبياء، وكان الإمام الحكيم يرتكز عليها كأساس راسخ في نظريته.

وهذا الموضوع ذو أهمية خاصة، وأستطيع أن أعبر عنه **(بالبعد الخطّي للمرجعية)؛** لأنه أعاد للمرجعية خطها الحقيقي، الذي يعني: بأن الدين والسياسة لايمكن أن ينفصلا بأي حال من الأحوال فالسياسة؛ جزء من الدين، وان المرجع لابد له أن يمارس العمل السياسي.

الإمام الحكيم يرجع الناس إليه بشكل حقيقي من خلال ارتباطهم به بالتقليد، وعليه فقد مارس العمل السياسي في مختلف الشؤون السياسية التي تهم الأمة، وأعطى من خلال ذلك هذا الدور للمرجعية، وهو ما كان يمارسه الأنبياء والأئمة والعلماء من بعدهم.

٣. الحوزة العلمية وتربية العلماء

كان الإمام الحكيمقدس سره يعتمد في هذا المنهج والاستراتيجية مسألة الحوزة العلمية، وتربية العلماء والمبلغين، وملء الأماكن الشعبية بهؤلاء بالقدر الممكن. وكان يسعى لذلك سعياً حثيثاً. وكان يهتم بالمساجد والحسينيات، وكل ما يرتبط بهذه القضية، وكان يحرص على أن يكون في كل بقعة أو محلة أو ناحية عالم أو مبلّغ.

وعلى هذا الأساس تمكن خلال عشرة سنوات أن يرفع عدد العلماء وطلاب العلوم الدينية في النجف الأشرف من ١٥٠٠ إلى أكثر من ٧٠٠٠، وهذه نسبة هائلة كما نلاحظ، تصل إلى حوالي ٥٠٠٪ في هذه الفترة، وهي نسبة قياسية في حركتنا الحوزوية العلمية في كل تاريخنا المرجعي، حتى في تاريخنا المعاصر، فهذه الحوزة العلمية في قم، وهي حوزة عظيمة جداً، ولكن مع ذلك لم تصل النسبة لهذا القدر الهائل.

وقد استفاد الإمام الحكيم هذه القضية من الأئمةعليهم السلام فقد اهتموا منذ الصدر الأول للإسلام بمسألة تربية العلماء والمبلغين، وكانت ظروف الإمام الباقرعليه السلام هي الأنسب لبدء هذا المشروع، ثم أخذ هذا المشروع يتنامى في زمن الإمام الصادقعليه السلام وأصبح ظاهرة في كل عالم التشيع بشكل حوزات علمية وعلماء ومبلغين.

وبهذه الطريقة تمكن الأئمةعليهم السلام أن يعبئوا الأمة، وكان هذا أحد الأسباب الأساسية لديمومة مذهب أهل البيتعليهم السلام وبقائه. فلا يكفي في بقائه أن يكون مذهب حق فحسب، إنما يحتاج إلى منهج صحيح.

فكان الأساس الأول في حركة التشيع هو العلم والحوزات العلمية. أما الأساس الثاني فكان التضحية والفداء، وهو خط الإمام الحسين عليه السلام، هذه قضية أساسية ومركزية في حركتنا ومسيرتنا، ولابد أن نعيها بشكل واضح.

٤. توطيد العلاقة بين المرجعية والأمة

اهتم الامام الحكيم بشكل رائع وعظيم بأن تكون علاقات المرجعية بالأمة علاقات متكاملة وجيدة - كما ذكرنا في الفصل السابق - ولم يهتم بطبقة معينة فقط من الأمة، كالتجار، أو الكسبة مثلا، أو أولئك الذين يتمكنون من دعم المرجعية وتمويلها، بل اهتم بكل طبقات الأمة وفئاتها وجماعاتها. الموظفين، والشباب الجامعيين، والجنود. وأتذكر أن عشرات الرسائل التي تصل نسبتها أحياناً إلى ٨٠٪ كان الإمام الحكيم يكتبها ابتداءً أو جواباً لمثل هذه الطبقات التي تشكل هذا القدر الواسع.

فكما يجيب على رسالة الجندي والموظف والطالب، بل كان يهتم حتى بالسجناء الذين يعتبرون طبقة معزولة عن المجتمع، ولا أعني بذلك السجناء السياسيين؛ لأنهم جزء أساسي من المجتمع. إنما أعني السجناء العاديين، ممن يرتكبون الجرائم المختلفة كالسرقة والقتل.

لقد كان يراسل هؤلاء جميعاً، ويقضي حوائجهم، ويحول لهم الأموال أحياناً، كل ذلك ليربط الأمة بحركة المرجعية.

إن الانفتاح على الأمة، والتحاور مع مختلف طبقاتها قضية أساسية

ومركزية في عقلية الإمام الحكيم[1]، وهذا هو منهج الإسلام، فالقرآن الكريم يخاطب الناس في القسم المكي من آياته، وأما في القسم المدني فيقول: يا أيها الذين آمنوا؛ لأن عامة الناس كانوا مؤمنين.

٥. دعم الوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية، والانفتاح على المذاهب الأخرى، وهذه من القضايا المعقدة التي واجهها الإمام الحكيم في العراق؛ ذلك لأن قضية الطائفية تعتبر أعقد القضايا في العراق؛ لأن الشيعة هناك مضطهدون مطاردون، وكانت حقوقهم مهدورة، والاضطهاد يمارس ضدهم في كل المستويات، في السوق والجامعة والوظيفة وغيرها. ومع ذلك كان الإمام الحكيم يريد أن يحقق الوحدة الإسلامية، ويهتم بقضايا الأمة الإسلامية الكبرى، وفي الوقت نفسه يدافع عن حقوق شيعة أهل

---

(١) وإذا أردنا اليوم- في خضم المواجهة التي نعيشها في حركتنا السياسية- أن نكون أقوياء قادرين على مواجهة النظام، فلابد أن يكون لنا هذا الانفتاح الواسع على الأمة؛ لأنها أمة متدينة، والإسلام متجدد فيها. وقد تجد بعض الناس - أحياناً - بحسب شكله أو كلامه أو تصرفاته بعيداً عن الإسلام، لكن الإسلام متجذِّر فيه. وهذا هو حال المسلمين في العراق، كما في الشعوب الإسلامية الأخرى.

وهناك شاهد واحد نستطيع أن نلمسه بشكل واضح في مسيرتنا وهو شاهد الأسرى العراقيين، فهؤلاء كانوا مرتبطين بشكل من الأشكال أو واقعين تحت تأثير حزب البعث، وكانوا يحملون السلاح ويحاربون الجمهورية الإسلامية- باستثناء بعض الأخوة المتدينين الذين كانوا يساعدون الجمهورية الإسلامية وهم في داخل الجيش العراقي- لكن هؤلاء الأسرى تحولوا إلى مقاتلين في صفوف الجمهورية الإسلامية، وذلك عندما تحركنا عليهم وأتضح لهم الطريق..**(المؤلف)**.

البيت عليهم السلام وكان هذا من أعظم الإنجازات السياسية له. فكان موقفه المعروف من الشهادة الثالثة، ومن تعمير العتبات المقدسة، والشعائر الحسينية، وموقفه في المطالبة بحقوق الشيعة على مختلف المستويات، وفي الوقت نفسه كان يهتم بقضية وحدة المسلمين، فيوازن بين الحركتين بحيث تكون النتيجة متجانسة. فتمكن أن يحفظ وحدة المسلمين في العراق، وهو أول من دافع عن الحكم الإسلامي في الجهاد ضد الانكليز. كما دافع عن المسلمين السنّة عام ١٩٥٨ و ١٩٥٩، حيث كانت هناك محاولات لضرب العلماء السنّة[1]. كما دافع عن الأكراد في شمال العراق وأكثريتهم الساحقة من السنة. وكذا موقفه من قضية فلسطين، وموقفه ضد المحاولة التي تبناها آنذاك النظام المصري من الاشتراكية؛ لتحريف الإسلام وجعل المنهج الاشتراكي وكأنه يمثل الخط الإسلامي الأصيل..

وكذلك موقف الإمام الحكيم من قضية إعدام قادة الإخوان المسلمين بمصر وشجبه لعملية الإعدام..

---

(١) وكان الإمام يهتم بالحفاظ على العلاقات الجيدة بين طوائف المسلمين في العراق، فبالرغم من أنه كان يرى نفسه مسؤولاً عن الظروف التي يعيشها أبناء الطائفة – أتباع أهل البيت عليهم السلام – في العراق؛ لأنهم يمثلون جماعة مسحوقة في العراق، إلّا أنه كان يسعى لأن تبقى العلاقة مع مختلف المذاهب الإسلامية في العراق علاقة متينة وجيدة في مواجهة العدو المشترك. وكان يحظى بحب واحترام الأوساط السنية بشكل لم يُعرف لمرجع قبله، وكان هذا الحب والاحترام موجوداً في أوساط الموصل وكركوك ومناطق أخرى، وخصوصاً الأوساط الكردية نتيجة لموقفه تجاههم، وكان هذا الاحترام ناشئاً من تبنيه لقضايا المسلمين..**(المؤلف)**.

وتعامله ومواقفه مع التيارات الكافرة التي اجتاحت الساحة الإسلامية، الغربية منها والشرقية، فالإمام الحكيم حفظ التوازن بين وحدة المسلمين من ناحية، والدفاع عن الشيعة من ناحية أخرى؛ لذلك أصبح للمرجعية الدينية كيانها السياسي القوي المتفاعل في أوساط الأمة، وله أجهزته الناشطة فيها.

وهذا ما يجب أن نفهمه في قضية الوحدة بين المسلمين. فعندما نقول: يجب أن يتحد المسلمون، فهذا لايعني التخلي عن مذهب أهل البيت عليهم السلام أو أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام انما نعني أننا في الوقت الذي ندافع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام ونتمسك به، ونسعى لحفظ حقوق الشيعة، فإننا نفتح قلوبنا وصدورنا لبقية المسلمين، لنكون جميعاً قوة واحدة مقابل أعداء الإسلام وأعداء الثورة الإسلامية.

هذه هي الخطوط الأساسية التي يتحرك عليها الإمام الحكيم قدس سره هناك خطوط أخرى لا مجال لذكرها.

مميزات النظرية

والنظرية السياسية للإمام الحكيم تتميز بخصوصيات، هي:

ا ل و لا ء ا ل سـ يـا سـ ي

الخـــصوصية الأولى: وهـــي خـــصوصية مركزيـــة، يعرفهـــا أهـــل البيت عليهم السلام وأتباعهم، فنحن نرى تأكيد الأئمة عليهم السلام على قضية الولاية، وعلى أهمية الولاء لأهل البيت عليهم السلام بحيث نرى في كثير من الأحاديث أن هذا الولاء ينجي الإنسان من المهالك في الآخرة.

ويشكل هذا الولاء محوراً أساسياً في تحرك أهل البيت عليهم السلام وهذا ليس شيئاً جديداً طرحه أهل البيت عليهم السلام، وإنما هو من الأمور التي ركز عليها القرآن الكريم كثيراً، واعتبره محوراً من محاور هذه النظرية.

في هذه النظرية يكون الولاء للرسول صلى الله عليه وآله، وللإمام وللمرجع وللقيادة والمؤمنين، كما تكون الطاعة للقيادة وللمؤمنين ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ...**﴾[1] ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[2].

إذن فهذه قضية أساسية في نظرية الولاء، فالولاء يكون للقيادة الشرعية من ناحية، ولجماعة المؤمنين كأفراد من ناحية أخرى، كما أن الطاعة كذلك؛ لأنه ورد في الآية الشريفة: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ...**﴾[3].

وأما في النظرية الحزبية فلا يكون الولاء للقيادة السياسية، وإنما تكون الطاعة للقيادة، والولاء للتنظيم وللعلاقات التنظيمية، ففي نظرية أهل البيت عليهم السلام - نظرية الرسالة والإمامة - يُطرح دائماً شخص الرسول والإمام والمرجع، باعتبار أنه يراد أن يجتمع ولاء الناس حول هذا المحور والكيان؛ ولذلك نرى الأئمة عليهم السلام يؤكدون على ولايته، ويعتبرون أن معرفة الإمام والارتباط به قضية أساسية ومركزية.

---

(١) التوبة: ٧١

(٢) المائدة: ٥٥ - ٥٦

(٣) النساء: ٥٩

وفي نظرية أهل البيت عليهم السلام يكون المطروح في التحرك السياسي - دائماً - هو المرجع.

وأمّا في النظرية الحزبية يكون المطروح سياسياً - وبشكل عام - الولاء والالتفاف حول التشكيل والتنظيم، والحلقات التنظيمية، فالطاعة لابد أن تكون للقيادة: (نفذ ثم ناقش)، وكذلك تكون الطاعة للقيادة في النظرية الإسلامية، فمن هذه الناحية يوجد اشتراك بين النظريتين، وأما في قضية الولاء السياسي فهناك اختلاف أساسي بينهما.

عدم مجهولية القيادة لدى القاعدة

الخصوصية الثانية: في نظرية الإمامة - نظرية البلاغ - لابد أن تكون القيادة معروفة لدى الموالين والأتباع والمؤمنين ((**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**))[1].

نعم قد تكون هذه القيادة مجهولة في مكانها وزمانها، كما هو الحال في إمامنا وسيدنا ومولانا الحجة بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف، فإننا لا نعرف مكانه وتحركه، وخصوصيات هذا التحرك، لكننا نعرف شخص الإمام وخصوصياته، والسر واضح، لأننا قلنا في الخصوصية الأولى من نظرية الإمامة: إن الولاء للإمام مادام كذلك، فلابد أن يُعرف الإمام حتى يكون الإنسان موالياً له، وأما إذا كان الإمام مجهولا فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يوالي الشيء المجهول؟.

---

(١) الإيضاح، لابن شاذان الأزدي: ٧٥، وراجع بحار الأنوار: ٢٣: ٧٦ - ٩٥، باب وجوب معرفة الإمام.

وأما في النظرية الحزبية فلايجب أن تكون هذه القيادة معروفة، نعم، قد تكون - أحياناً - معروفة وظاهرة ومطروحة للناس، وقد لا تكون كذلك. لكن في نظرية الإمامة لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن تكون القيادة غير معروفة للموالين.

نعم، خارج دائرة الموالين وفي دائرة الأعداء، أو الذين يجهلون هذه الحقيقة قد لا تكون القيادة معروفة؛ ولذا نرى الشيعة بعد موت كل إمام من الأئمة عليهم السلام - خصوصاً في الوقت الذي كان الأئمة يعيشون تحت الضغوط - يهتمون ويتابعون شخص الإمام إلى أن يتعرفوا إليه، والإمام كذلك من جانبه يتحرك ويبين ذلك ويقول: (**إليّ إليّ لا إلى فلان وفلان**).

ولايوجد ذلك في النظرية الحزبية، بل العكس هو الموجود، فالقيادة يجب أن تعرف الموالين، من دخل في التنظيم وانتمى إليهم، وأمّا في نظرية أهل البيت عليهم السلام فالناس يدخلون أتباعاً وموالين، ولايعرف الإمام بذلك. نعم، الإمام يعلم الغيب، ويعرف الأمور السرية والخاصة، وأما المرجع فلا يعلم الغيب، ولا يجب عليه أن يعرف مقلديه وأتباعه، فكثير من المراجع لا يعرف مقلديه، بينما يجب على المقلدين معرفة الشخص الذي يقلدونه.

نظرية الإمامة شبيهة بالإيقاع

الخصوصية الثالثة - وهي مهمة في تحركنا الإسلامي وفي عملنا الخاص - هي: أن نظرية الإمامة شبيهة بـ(الإيقاع)[1] كما يعبر عنه

---

(١) الإيقاع: الإسقاط لغة، واصطلاحاً: المعاملة التي تتم بالايجاب فقط ولا تحتاج الى القبول مثل الطلاق.

الفقهاء، بمعنى أن الموالي يقول: إني تبعت فلاناً وواليته، واليت علياً (عليه السلام)، ففي بعض الروايات أن الناس في أصلاب الرجال وأرحام النساء يؤمنون بولاية علي (عليه السلام)، ويوالونه.

فالمؤمن عندما يوالي يعلن إيمانه وإسلامه، ويتحقق إسلامه وإيمانه، من دون حاجة إلى قبول الطرف الآخر، فلا يحتاج لأن يقول النبي (صلى الله عليه وآله) قبلت إسلامك، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة فيقول: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً**﴾[1]، فمن يعلن إيمانه وإسلامه لا يقال له: لست مؤمناً، بل بمجرد الإعلان يُقبل هذا منه بدون حاجة إلى علم أحد.

أما في النظرية الأخرى فالقضية شبيهة بالعقد لا بالإيقاع، فيحتاج إلى الشخص الذي يريد أن يدخل في التنظيم، وجهة تقول: نعم، وهكذا في الجمعيات، فلا يمكن أن يقول كل واحد: أنا أنتسب إلى الجمعية بدون أن يُعرف اسمه، ليقال له: قبلنا دخولك في الجمعية الفلانية، أو الحزب الفلاني، وهذا يختلف عمّا في نظرية الإمامة - نظرية البلاغ - فالباب مفتوح للناس، وكل شخص يستطيع الدخول من دون أي حاجز، سواء أعرفنا بإيمانه أم لا.

التصدي التدريجي

الخصوصية الرابعة: (التصدي التدريجي)، فمنذ أن يكلف الإمام بالتحرك السياسي لابد أن يتصدى على مختلف المستويات، سياسياً

---

(١) النساء: ٩٤

وثقافياً وأخلاقياً، بمعنى أنه يعمل على إيجاد التغيير في كل المستويات، فمثلا الرسولﷺلمّا سفّه عبادة الأصنام ودخل في صراع مع المشركين - والمشركون يتألمون ويحزنون، وتنزل الآيات القرآنية تتحدث بقوة عن الأصنام - نرى أنهﷺتحرك هو وأصحابه، وواجهوا الكثير من الآلام والأتعاب والعذاب في سبيل هذه القضية.

وهكذا التصدي التدريجي في الإمامة، فنلاحظ أن التصدي عنصر موجود، ولايطرح كمفاهيم مجردة، بل كان الأئمةعليهم السلامينزلون إلى الواقع، ويأخذون نقاطاً مشخصة فيه، ويتركون نقاطاً أخَر، غاية الأمر قد تكون القضية تدريجية، بأن يأخذوا نقطة ذات أهمية خاصة، ويتركوا الأخرى؛ لأجل أن يحرروا الأمة؛ ويغيروها بشكل تدريجي، كما صنع رسول الله.

وأما النظريات الأخرى فقد تؤمن بالمرحلية، بمعنى أن تُطرح أولاً القضايا الثقافية، ثم بعدها القضايا السياسية، ثم تتحول إلى صراع ومواجهة، ثم إلى حكم، ثم إلى مراحل أخرى، فبعضهم يقسمونها إلى ثلاث مراحل، والبعض الآخر إلى أربع، وبعضهم إلى أكثر.

وفي نظرية البلاغ تعتبر مسألة التصدي مسألة مركزية.

ونحن يمكن أن نخلق أمة متفاعلة مع الأحداث، أمة موجودة وحاضرة في الساحة تؤثر وتغير اذا تحركنا بهذا الشكل، وأما لو لم نؤمن بهذا الشكل فقد نتحول إلى جماعة معزولة، تعيش أحلاماً ومُثلا.

هذه هي النظرية التي كان يؤمن بها الإمام الحكيم، وكان من خلال عمله السياسي والثقافي يستهدف توعية الأمة؛ لكي يصل بها إلى

درجة المواجهة مع الأنظمة القائمة؛ ولأجل تحقيق هذا الهدف قام بالنشاطات التي ذكرناها تجاه الأمة.

حركته الاجتماعية والسياسية

أحدث الإمام الحكيم - من خلال مرجعيته - نقلة نوعية واضحة في عملية التغيير في الأمة، ولم يكن ذلك على حساب غيره، أو أنَّ غيره من العلماء كان متخلفاً، أو لم يكن قادراً على إحداث مثل هذه النقلة النوعية كما يتوهم البعض. فلا يستطيع أحد أن يتهم آية الله العظمى السيد أبي الحسن الإصفهاني مثلا بأنه لم يتمكن أن يحدث مثل هذه النقلة، وهو من أعاظم مراجع الشيعة؛ لأنَّ أولئك المراجع عاشوا ظروفاً تختلف إلى حد كبير عن الظروف التي عاشها الإمام الحكيم، والقائد المحنَّك هو ذلك القائد الذي يتمكن أن يستفيد من الظروف المستجدة إلى أبعد الحدود، ويحوِّلَها لصالح الإسلام، ولصالح القضية التي يؤمن بها، والمعركة التي يخوضها.

وهذا ما صنعه الإمام الحكيم وعلماؤنا الأبرار، الذين ساندوه، والذين كانوا على درجة كبيرة جداً من الحكمة والمعرفة.

أما العلماء الآخرون فقد أحاطت بهم ظروف قاسية جداً حالت دون أن يحدثوا مثل هذا التغيير.

ولا أريد أن أقول: أنَّ الظروف وحدها هي التي تحدث التغيير، وإنما الدور للقيادة التي تستفيد من تلك الظروف وتسيّرها وتوجهها بالطريقة المناسبة، وتستثمرها لتصل إلى أهدافها.

أما على مستوى المرجعية فإنه تمكن أن يحول قيادة المرجعية نظرياً إلى قضية عملية واقعية. ولايشك أحد في أن الإمام الحكيم كان قائداً للجماهير في العراق، وكان الشخصية المؤثرة التي تحترمها الجماهير، سواء على المستوى السني أم الشيعي. وحققت هذه المرجعية نتائج باهرة على المستوى العلمي، حيث تطورت العلوم الإسلامية في زمن مرجعية الإمام الحكيم، وانتشرت المطابع، ففي بدء مرجعيته كانت هناك مطبعتان صغيرتان، وعندما توفي كانت هناك عشرة مطابع، كل واحدة منها تعادل عشراً من المطابع السابقة.

وبمراجعة بسيطة لفترة مرجعية الإمام الحكيم نجد أن عدد المؤلفات الإسلامية كان كبيراً، ومنها ما كان معتمداً في تلك الفترة.

وقد ذكرنا أنه على مستوى تنظيم الحوزة العلمية فقد بدأ الإمام الحكيم ينظم الحوزة في مسألة الرواتب والمدارس، والدراسات المنظمة والبحوث والتحقيقات العلمية.

وعلى مستوى علاقته بالجماهير فقد تمكن أن يخرج الأمة من حالة العزلة إلى حالة سياسية. وأذكر مثلاً: أنَّ ضريح العباس عليه السلام عندما جيء به إلى بغداد سنة ١٩٦٤، لم يصل إلى الكاظمية إلا عند التاسعة مساء، وكان قد دخل بغداد في أول النهار، أي: إنه بقي أكثر من اثنتي عشرة ساعة. وكانت الجماهير تسيطر على بغداد بشكل كامل، وتهتف بقولها: (**ماكو ولي إلاّ علي، ونريد قائد جعفري**)، هذا الهتاف الذي يعبر عن إرادتها وهويتها الحقيقية.

وعلى مستوى التحرك الإسلامي تمكن الإمام الحكيم أن يعبئ

الأمة، ويشكل تياراً خطيراً، وكان موفقاً جدّاً في هذا المجال، وقد اعترف البعثيون عند مجيئهم للحكم بذلك بشكل واضح، وذلك في البيان الصادر عن المؤتمر القطري السادس لحزب البعث. حيث أكدوا على وجود تيار (ديني رجعي) - حسب تعبيرهم - ولهذا التيار وجود واسع في العراق، ويمثل قوة حقيقية، وأنهم لابد أن يتعاملوا معه بدقة وحكمة ليقضوا عليه.

وعلى مستوى آخر في التحرك الإسلامي، فانه كانت له نظرية في الحركات الإسلامية، وكان رأيه أن التنظيم الإسلامي يمكن أن يقوم بدور في المجتمع، لكن لا على أن يكون كل المجتمع تنظيماً.

ولذلك رعى التنظيمات الإسلامية حتى السنية منها. وأتذكر هنا، أن نعمان عبد الرزاق السامرائي عندما أسس حزباً إسلامياً في زمن عبد الكريم قاسم جاء وفد من الحزب إلى النجف، واستقبله الإمام الحكيم. وهذا هو أول حزب قدم طلباً للاعتراف به، لكن وزارة الداخلية في زمن عبد الكريم قاسم لم توافق عليه، فقدم شكوى إلى المحكمة العليا ومحكمة التمييز، حيث صدر قرار بالموافقة عليه.

وحتى على مستوى العلاقة بين المسلمين وغيرهم، فإن الإمام الحكيم فتح قنوات العلاقة مع المسيحيين ليعبئ الأمة كلها في هذا المسار الذي يقوده.

الجانب السياسي في حركة الإمام الحكيم

إذا فالإمام الحكيم كان يمثل مرحلة جديدة من مراحل الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، بالنسبة إلى الساحة العراقية. وعندما نريد الحديث

عن أبعاد هذه المرحلة في معالمها - وهو أمر يستحق الكثير من الدراسة والتأمل - نجد هناك مجموعة من الأبعاد أشير إلى بعضها:

أولا: البعد الذي يرتبط بإخراج الأمة التي كانت تعيش العزلة في العراق من عزلتها السياسية - التي عانتها بسبب الظروف التي واجهتها بعد ما يسمى: بثورة العشرين، والعزلة التي كانت تعيشها حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية - وذلك من خلال الممارسة للنشاطات السياسية، وتعبئتها عمليا في هذا المجال، وتصدي المرجعية بنفسها للعمل السياسي، ومنحه الصفة الشرعية بعد محاولات الاستعمار لفصل الدين عن السياسة.

فقد قام الإمام الحكيم بعمل كبير جداً يمثل منعطفاً في مرحلة من مراحل الشعب العراقي، وهو إخراج الشعب العراقي والأمة في العراق من عزلتهما إلى التصدي للأعمال السياسية والاجتماعية.

ثانياً: مما يميز هذه المرحلة أن الإمام الحكيم تصدّى - من أجل ترسيخ دعائم هذه الحركة الجديدة - إلى بناء المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية بصورة واسعة؛ من أجل إعطاء هذه المرحلة قدرتها على الإدامة والاستمرار، فكانت جماعة العلماء، وكانت الحركة الإسلامية المنظمة، ومنها: مفردة تأسيس حزب الدعوة الإسلامية. وكانت الجمعيات الثقافية الكبيرة التي أسست أمثال جمعية الصندوق الخيري، وجامعة الكوفة، وغيرها من المؤسسات[1].

---

(١) والإمام قام بتنظيم حركة الأمة من خلال عدة أمور رئيسية:

الأمر الأول: خط المؤسسات الأصلية في الأمة، وهذا من الأمور التي لابد لنا أن ننتبه إليها دائماً في العمل، وهذه المؤسسات هي الحوزة العلمية، فقد اهتم الإمام⬅

➡الحكيم اهتماماً بالغاً في الحوزة العلمية وتطويرها، حيث لم تشهد حوزة النجف في تاريخها الأخير- ولا يمكن أن أحكم على كل تاريخ حوزة النجف، ولا توجد لدي دراسات واسعة في هذا المجال، ولكن أتحدث عنها في تاريخنا المعاصر- نهضة علمية، وتربوية، وثقافية، وفكرية، وسياسية، كما شهدت في أيام الإمام الحكيم.

إذا فالمؤسسات الأصلية كانت قضية مهمة جداً في تنظيمها، وهكذا في تنظيم المسجد، ونشر الكتاب، وتنظيم العتبات المقدسة، والاهتمام بها، وقضية تنظيم الشعائر الدينية وتوجيهها، إلى غير ذلك من المؤسسات الأصلية التي لابد لنا في أي حركة واسعة للأمة أن نوليها اهتماماً خاصاً في إنتاج الحركة والوصول فيها إلى أهدافها.

الأمر الثاني: خط ابتكار الوسائل والمؤسسات الجديدة التي يمكن أن تكون إسنادا ودعماً للمؤسسات الأصلية، وفي إطارها مكان تأسيس الأحزاب السياسية والجمعيات الاجتماعية والثقافية، وغير ذلك من المفردات التي أشرت إليها قبل قليل.

الأمر الثالث: إعداد القوة، وفي عصر يعمّ فيه العدل – وهو عصر إمامنا وسيدنا الحجة ابن الحسن عجل الله فرجه الشريف- قد لا نحتاج إلى إعداد القوة؛ لأن الحق يكفي في الوصول إلى الحقوق، والعدل يكفي في الوصول إلى الأهداف، أما في هذا العصر فلا يمكن لأي جماعة أن تصل إلى أهدافها. إنه عصر تحكمه القدرة والقوة، ولابد للإنسان من أجل أن يصل إلى أهدافه من إعداد هذه القوة، وهذه القدرة، وهذا ما أمر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾، والسياسات الرئيسية التي اعتمدها الإمام الحكيم في حركته هو إعداد هذه القوة، والبحث عن وجودها، ثم العمل على إعدادها؛ من أجل أن تكون قادرة على مواصلة الجهاد والعمل السياسي من ناحية، ومواجهة الطغاة من ناحية أخرى.

الأمر الرابع: هو موضوع تصعيد روح التضحية، والفداء، والاستعداد للعمل في أوساط الأمة.

الأمر الخامس: وهو موضوع تشخيص، وتمييز الأهداف البعيدة والقريبة، حيث إنه في العمل السياسي والاجتماعي قد تختلط الأهداف البعيدة، والقريبة بعضها مع البعض الآخر، ويضيع الإنسان في حركته، وهذا من أهم الأمور في العمل الاجتماعي➡

لقد كان يشجع المشاريع التي يقوم بها الأفراد، كالجمعيات، والتشكيلات، والتنظيمات، وكان يرعى كل هذه المشاريع، ويهتم بها بشكل أساسي، حتى أنه - أحياناً - تصبح هذه التشكيلات وكأنها جزء من تشكيلاته، وكان يفعل هذا من أجل أن يوطّد علاقته بالأمة، فهو يرى من جملة علاقاته بالأمة الاهتمام بالتشكيلات والتنظيمات الإسلامية، ولذلك فإن هذه التشكيلات تشكّلت من الأمة، وهي جزء منها، لا أنها تشكل إطاراً للتحرك السياسي للأمة. وإنما هي جزء ومفردة من هذه الأمة.

ولقد رعى جمعية الصندوق الخيري، وكأنها جزء من وضعه، وكذلك كان يهتم بمكتبة الخلاّني وكأنها مكتبته، وعندما كان يذهب إلى بغداد كان يزورها أمام الناس لكي يعطيها هذا النوع من الدعم.

وعندما أسس منتدى النشر كان موضع رعاية خاصة من الإمام الحكيم، وكذلك بعض الجمعيات في كربلاء وغيرها.

وكان تبنيه للحركة الإسلامية في الأوساط الشيعية أبرز حدث في هذا المجال - سواء أكانت الحركة منظمات، أم أحزاباً، أم جمعيات -

---

➡والسياسي هذا أولا – وتصحيح الأهداف وتعيينها وتوضيحها من ناحية – وثانياً: التمييز بين الأهداف المرحلية – التي لابد للإنسان أن يسعى إليها بصورة مرحلية وقريبة – والأهداف بعيدة المدى هو أن الأهداف المرحلية هي التي يمكن أن توصل إلى الأهداف بعيدة المدى، وهذا ليس أمراً ابتكره الإمام الحكيم، وإنما هو أمر استنبطه من القرآن الكريم ومن سيرة النبيﷺ، وعمله في هذه المجالات، وهو أمر يفرضه المنطق العملي في أن التغييرات في المجتمعات إنما يمكن أن تحدث بصورة تدريجية، ولا يمكن أن تحدّث بصورة دفعية..**(المؤلف)**.

فكان يرعى الكثير من أبناء هذه الحركات، بل وتبنّى الحركة الإسلامية في الأوساط السنية، عندما أسس عبد الرزاق السامرائي مع مجموعة من المسلمين الحزب الإسلامي- بعد أن أجيزت الأحزاب من قبل نظام عبد الكريم قاسم - حيث جاء الأخير مع مجموعة من قادة الحزب الإسلامي إلى النجف الأشرف، واجتمعوا بالسيد الحكيم، وبارك لهم هذا العمل، وشجعهم، وساندهم -كما ذكرنا -.

وعندما طلبوا الإجازة من الدولة ساندهم الإمام الحكيم في الأوساط الرسمية، لكن عبد الكريم قاسم أصر على رفض طلبهم؛ لأن الطغاة - دائماً - يخافون من الإسلام.

وهكذا الحال بالنسبة للحركات الإسلامية الموجودة في سامراء والأعظمية، وفي مناطق أخرى من الأوساط السنية، فقد كان الإمام الحكيم يتبناها بشكل عام، ولو لاحظنا الأحزاب في الأوساط الشيعية فالقضية أوضح.

فقد كان يدعم أعمال التصدي للظالمين من قبل المظلومين، ويدافع عنهم، ويتبنى قضاياهم، ومن هذا المنطلق كان موقفه التضحوي في دعم قضية الشعب الكردي، والوقوف إلى جانب العلماء والضباط العسكريين السنة الذين تعرَّضوا إلى الاضطهاد أيام عبد الكريم قاسم.

ثالثاً: في هذه المرحلة كان موضوع التصدي للمطالبة بالحقوق والدفاع عن المظلومين في العراق، سواء كانوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام أم من أتباع المذاهب الأخرى، وموقفه في موضوع الشعب الكردي في العراق، والدفاع عن مظلوميته، حيث كان هذا الموقف من

القضايا المتميزة في حركة الإمام الحكيم، وفي الوقت نفسه لابد أن نشير ونؤكد على أن الإمام الحكيم الذي كان يتصدى للمطالبة بالحقوق كان يعمل على المحافظة على موازنة دقيقة ومهمة في التصدي للمطالبة بالحقوق، وهي المحافظة على الأولويات الكبرى في العمل الإسلامي، والتي تهم المسلمين والعالم الإسلامي من ناحية، وأيضا الموازنة والمحافظة على وحدة الأمة الإسلامية والصف الإسلامي، فعندما كان يطالب - مثلاً - بحقوق الشيعة في العراق كان يحافظ في الوقت نفسه على العلاقات القوية المتينة مع أبناء السنة في العراق، ومن خلال الدفاع عن حقوقهم عندما كانوا يتعرضون إلى الظلم والجور، وهذا الموضوع كان من الموضوعات المهمة في منهج الإمام الحكيم.

لقد كان الإمام الحكيم يرى أن دور المرجعية، وقيمتها الحقيقية، وموقعها الطبيعي القيادي هو في التصدي لتحمل مسؤولية هموم الأمة وقضاياها المصيرية[1]، والعمل على تحقيق المصالح العامة الأساسية

---

(١) بحيث إنه لم تكن هناك قضية مطروحة واسعة تهم الأمة كأمة ومجتمع، إلاّ وكان للإمام الحكيم ــ أي مرجعيته، اهتمام بها، سواء كانت هذه القضايا تحدث في العراق، أم لبنان، أم الهند، أم الباكستان. وحتى في الخليج، وفي كل مكان، كان هناك اهتمام خاص من قبل هذه المرجعية في القضايا الكبرى المطروحة للأمة، أو حتى المرتبطة بشعب من هذه الشعوب، أو جماعة من هذه الجماعات.

فقضية تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، كانت من القضايا التي تصدت لها مرجعية الإمام الحكيم، وهناك وثائق موجودة إلى الآن، وقسم منها⬅

للناس، والمطالبة بحقوقهم، وتحمل الآلام، والمعاناة، والصبر من اجل التصدي لهذه النشاطات، والوقوف بوجه الظالمين والطغاة.

وعدم التخلي في الوقت نفسه عن ممارسة الأعمال الدينية، كالفتوى،

➡موجود عندي، تدلّ على أنه كان وراء تأسيس هذا المشروع. وهذه قضية كانت تهم الإخوة اللبنانيين والشعب اللبناني.

وهكذا عندما حصلت نزاعات وخلافات بين علماء الهند في قضية كانت خاصة بالهنود أنفسهم، وكانت تهم جماعة المسلمين في الهند، أرسل لهم الإمام الحكيم وفداً؛ ليحل هذا النزاع، وكان هناك استقبال واجتماعات كبيرة واسعة للقيام بحل هذا الموضوع.

وهكذا عندما حدثت قضية أخرى كبيرة جداً، وهي مذبحة حصلت في الباكستان -وهي المأساة التي حدثت في لاهور وخير بور، فحينما كان المقيمون للعزاء في يوم عاشوراء يلطمون على صدورهم، ويبكون، هجمت عليهم عصابة، تحمل جميع وسائل القتل والدمار، كالسيف والخنجر، والأسلحة النارية، والمعاول، والمجارف، والفؤوس، وقطع الخشب وغيرها، وأطلقوا عليهم الرصاص، وجعلوا يقطعونهم بالسيف، والخناجر، وينشرون أرجلهم، وأيديهم، ورؤوسهم بالمناشير، وأحرقوا بعضهم بالنار، وطرحوا أجساد البعض في الرماد- فتدخّل الإمام الحكيم في تلك القضية.

وهكذا كان يتدخل في القضايا التي حصلت في العراق، والتي يعرفها العراقيون، بالإضافة إلى مواقفه في قضية فلسطين، وقضية العدوان على الإخوان المسلمين في مصر، وقضية الاشتراكية، والغزو الفكري الإلحادي للبلاد الإسلامية.. هذه المواقف التي كانت تهم الأمة بشكل عام...

فالمرجعية أدخلت تطوراً في علاقتها بالأمة، يعني: أنها أصبحت تهتم بالأمة، وبالتالي أصبحت هناك علاقة نوعية مختلفة بين الأمة والمرجعية تختلف عن تلك العلاقة النوعية التي كانت موجودة قبل ذلك، وهي العلاقة على مستوى إعطاء حقوق شرعية، أو سؤال عن حكم شرعي شخصي، أو تقديم نوع من الاحترام والمحبة والتبجيل للمرجع، وتنتهي العلاقة عند هذه الحدود..**(المؤلف)**.

والقضاء، والولاية للأمور، أوممارسة النشاطات الإسلامية، كالتعليم، والتربية، والتبليغ للمفاهيم والأحكام والوعظ والإرشاد والنصيحة.

رابعاً: تربية الأمة على الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، وتحسيسها بضرورة تحملها لهذه المسؤولية، والمساهمة في تكوين الأوضاع العامة، والمشاركة في القرار السياسي، والرقابة على نشاطات الحكم.

حيث عمل الإمام الحكيم على توعية الأمة على حقوقها التي يجب أن تطالب بها، وتوعيتها على مناهج العمل الاجتماعي والسياسي التي لابد أن تسلكها للوصول إلى أهدافها، حيث انّ النظرية الإسلامية هي نظرية لا تؤمن بأن الأهداف تبرر الوسائط، وإنما هي نظرية تلتزم بمنهج عام في السلوك وفي العمل، يرتبط بالأهداف من ناحية، وبالعقائد والمبادئ والثقافة التي تستند إليها هذه الأهداف من ناحية أخرى، ولذلك كانت التوعية على مناهج العمل من القضايا المهمة التي اهتم بها الإمام الحكيم.

خامساً: الانفتاح على الجماعات والأوساط المختلفة، سواء الأوساط الشعبية، أم السياسية، أم الدينية.

وبهذا الصدد نشير على الانفتاح الذي حققه الإمام الحكيم ﵅ على الجماعات الكردية، والعلماء من أهل السنة، وبعض أوساطهم الاجتماعية، بحيث شهد العراق لأول مرة احتفالات في الأوساط السنية والشيعية، يشارك فيها العلماء وسياسيون، من جميع الفئات والأوساط، وكذلك لقاءات وزيارات مشتركة في هذا المجال، بل قام الإمام الحكيم ﵅ بالانفتاح حتى على الطوائف الدينية الأخرى، مثل

المسيحيين.

هذا الانفتاح الذي أكد الوحدة الإسلامية بين المسلمين، ووحدة أبناء الوطن الواحد، وضرورة أن يعيشوا فيما بينهم بطمأنينة واستقرار، ويعملوا على تحقيق العدل والرفاه وحكم الله في الأرض، ويتحملوا مسؤولية المصير الواحد المشترك.

وبصورة إجمالية كان الإمام الحكيم يرى بأن إطار المرجعية الدينية والحوزة العلمية هو الإطار الأوسع، والقادر على ضمّ كل المفردات الأخرى العملية في منهج العمل الذي يمارسه.

الجانب التثقيفي في حركة الإمام الحكيم

والإمام الحكيم كان يهتم - أيضاً - بالجانب الثقافي للأمة، وتثقيف الناس، وهذا أصل شرَّعه القرآن الكريم في زمن الرسولﷺ، حيث نزلت الآية: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾**[1] وهذا بالأصل هو مشروع الحوزات العلمية الذي بدأ من زمن رسول اللهﷺومهمتهُ التبليغ وتعليم الناس وبيان الأحكام لهم.

واهتمام الإمام الحكيم بهذا الموضوع كان إلى حد بالغ لايعرفه إلّا كبار الطلبة في النجف الأشرف، وأتذكر عندما توفي السيد أبو الحسن الإصفهاني وقبل أنْ تنفصل الباكستان عن الهند - لأن وفاته كانت سنة ١٩٤٥م قبل استقلال الباكستان - كان مجموع الطلبة من الباكستان والهند حوالي ٧٥ طالباً وعالماً، وهي بلاد كبيرة مترامية الأطراف،

---

(١) التوبة: ١٢٢

وفيها الكثير من المسلمين الشيعة، ولايوجد إلّا هذا العدد، أمّا في داخل الهند والباكستان فلا يوجد من العلماء إلّا القليل جداً.

وهذا الأمر كان في لبنان ومناطق الخليج والعراق أيضا، من حيث قلة عدد المبلغين، وكان الناس ينتقدون الإمام الحكيم بأن جماعته هم (التبتية والنكرية والبربرية) - كما ذكرنا - وهذا شبيه بما اتُهم به الأنبياء: ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا**﴾[1] في مقام التشهير بالأنبياء، وكان الإمام الحكيم يفتخر أنْ يكون هؤلاء المؤمنون جماعته، وكان شأنه وهمه وهدفه أنْ يحيي بهم هذه البلدان، وحتى في العراق توجد مناطق لايدخلها عالم أصلا طول السنة، وهذا شيء عجيب جداً، إذ مع قرب بعض المناطق من الحوزات العلمية المنتشرة في النجف وكربلاء والحلة وغيرها، كان هناك انحراف عند بعض الشيعة، ولم يبق لهم من المذهب إلّا أمير المؤمنين عليه السلام والحسين عليه السلام ولايعرفون شيئاً آخر عن التشيع.

وفي أطراف الموصل يوجد شيعة، قسم منهم لايصلّون ولايصومون ولايحجون، وبينهم وبين الحوزات خطوات، وأتذكر أول يوم حج فيه جماعة من هؤلاء كانت سنة ١٩٦٠م (١٣٨٠ هـ)، وهذا شيء عجيب منهم، وأنا كنت أتحدث معهم في مسائل، حيث كانوا بعيدين جداً عن القضايا الدينية، حتى في منطقة العلويين في سوريا مع قربها كذلك. فأرسل الإمام الحكيم إلى هذه المناطق مبلغين، وطلب منهم أن يأتوا إلى العلماء في النجف الأشرف ويدرسوا، ففعلوا ذلك حتى أن قسماً

(١) هود: ٢٧

منهم رجع إلى الإيمان والصراط المستقيم. وهذه الأوضاع كانت تعيشها البلاد الإسلامية في عصر الظلام، والبعد عن الإسلام، أما الآن - وبحمد الله - نجد الحوزات العلمية في كل هذه المناطق، ليس في قم والنجف فقط، وإنما في نفس تلك البلاد توجد حوزات، ومعها هناك حركة تبليغ وبيان للأحكام.

وهذه من السياسات المهمة في حياة الطلبة، إذ يجب أن يجعلوا قسماً من وقتهم لهذا العمل، وأنا أتذكر أن الإمام الحكيم كان يأمرنا بأداء هذه المهمة، إذ بعثني لمدة شهرين لأكون مبلغاً في بعض البلاد، وأنا لم أزل طالب حوزة، وكان يبعثني إلى الحج من أجل التبليغ، أي: ان التبليغ جزء من مهمة الطلبة، ولايحق للطالب أن يدرس ويترك التبليغ، أو يتصور صحة قوله: (أنا أجلس وأجيب الناس إذا سألوا وإذا لم يسألوا مني فانا معذور). لان هذا لاينسجم مع سياسات الأئمةعليهم السلام والحوزات العلمية والمراجع والطلبة، فالطالب هو الذي يجب أن يطرق الأبواب، والنبيصلى الله عليه وآله وسلم - وهو أشرف وأكرم إنسان مبعوث من قبل الله سبحانه - كان عندما يبلغ يبعث إلى العشائر - أيام الحج - في خيمهم ويتحدث معهم واحداً واحداً، ويذهب إلى الطائف التي تبعد ٧٠ أو ٨٠كم عن مكة، وهي منطقة جبلية ومعقدة جداً، ويطرق الأبواب كمبلغ والناس يضربونه بالحجارة، وهكذا يجب أن يكون حال المبلغ.

أ هـ م ي ة ا ل ت ب ل ي غ

ولو نظرنا إلى بلاد إيران والباكستان وشبه القارة الهندية، وحتى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وأندنوسيا مثلا، فسنجد ان هذه البلدان لم تدخل

الإسلام بالفتح بالسيف فقط، وإنما دخلت عن طريق المبلغين وأولاد الأئمة، ففي (مازندران) يوجد ٣٥٠ قبراً ومزاراً، وكذلك في (قم) يوجد ٣٥٠ مزاراً لذرية الأئمة (إمام زاده)، وكلهم جاؤوا للتبليغ وبيان الإحكام الشرعية، وعلى سبيل المثال، ابن الإمام الباقر عليه السلام المدفون في أطراف (كاشان)، أرسله والده - وهو يسكن المدينة - للتبليغ لا للراحة والاطمئنان والاستقرار، حتى تعرَّض للخطر، وقتل من أجل التبليغ. وهذا هو خط الأئمة، ولا أقول: إن الإمام الحكيم تفرَّدَ به، بل هو خط علمائنا وأئمتنا وخطنا جميعاً، فقضية التبليغ من القضايا الأساسية التي يجب أن نهتم بها، وعندما نقصّر فإن هذا التقصير لاينعكس على زماننا فقط، وإنما يمثل الأجيال الآتية، كما انعكس علينا تقصير غيرنا في دور من الأدوار.

التكامل بين العمل الثقافي والعمل السياسي

ومن الأمور التي تختلط أيضا في أوساطنا الثقافية والسياسية: هو موضوع التكامل بين العمل الثقافي الذي يشكل القاعدة للعمل السياسي والاجتماعي، وبين العمل السياسي. في بعض الأذهان قد يرتبك هذا الأمر، فيرى بعض الناس ان العمل السياسي والجهادي هو بديل عن العمل الثقافي وعن مؤسساته وعن أعماله ونشاطاته، أو البعض الآخر يرى: إن العمل الثقافي هو بديل عن العمل السياسي والجهادي، لكن قضية التكامل بين هذه الأعمال والارتباط فيما بينها، والأدوار التي يمكن أن تقدم بها هذه الأعمال، بحيث يصبح كل واحد منها سنداً وداعماً للآخر ومكملاً لمسيرته من القضايا المهمة جداً في العمل السياسي والاجتماعي. والإمام الحكيم كان يشخِّص هذه

الأمور، وكان في كثير من الأحيان يخصص، ويؤمن بالتخصص بالنسبة لها، ومع ذلك يرى في كثير من الأحيان: إمكانية القيام بهذه الأدوار في بعض الظروف وبعض الأوضاع السياسية التي تواجهها الحركة والقضية.

والعمل الثقافي لايمكن أن ينفك عن العمل السياسي أو بالعكس، انّ الحوزات العلمية لايمكن أن تحصن نفسها أو تحافظ على وجودها الثقافي ما لم تحقق أهدافها، ويكون عملها عملاً صحيحاً مستقيماً وهادياً وموصلاً للأهداف التي وضعها الإسلام أمام الحركة السياسية، وما لم يكن ذلك مرتبطاً بقاعدة ثقافية وبأساس ثقافي يرتبط بالعقيدة والمبادئ والفهم للإسلام وقوانينه وشريعته فلا يمكن تحقيقه. وهذا الموضوع من الموضوعات المهمة في حركتنا السياسية، ولذلك نحن - أحيانا - نعاني في أوضاعنا الحوزوية من هذا الأمر وهو: ان الحوزة تنكمش على نفسها، وتنعزل عن العمل السياسي، وتنظر إليه وكأنه عمل محضور أو مكروه - على بعض التقادير - وأن العمل الأسلم والأفضل والأحسن هو العمل الثقافي.

وبعض الناس يُنزّه نفسه عن العمل السياسي، وكأن هذا في مقابل ذلك، وبعض الناس- أيضا - ينخرط في العمل السياسي وينسى كل الثقافة والمبادئ والمفاهيم والعقائد التي انطلق منها هذا العمل السياسي، فلا تقوى سياسية ولاالتزام في سلوك ولااهتمام بالمبادئ والأهداف إلى غير ذلك مما يراه الإنسان، ويتحول - أحيانا - هذا العمل السياسي إلى عمل يطعن بكل مقدرات العمل الثقافي وبكل

وجوده، ويتهمه بالتخلف والرجعية وبالابتعاد عن الأهداف المطلوبة، نتيجةً لهذا النوع من الانفصال بين العمل الثقافي والسياسي، مع أنه لا يمكن الفصل بينهما.

وإذا تصور بعض الناس في الحوزات العلمية: انه يمكن أن يأمن من خلال العزلة، ومن خلال إحاطة النفس أو الجماعة بحصار أو سور من أجل التغافل عن العمل السياسي، فسوف نواجه ما واجهه الإمام الحكيم في عصره، وانطلق من هذا الأساس.

حيث واجهنا في الحوزات العلمية عوائل علمية وأوساط علمية مثقفة بدرجة عالية من الثقافة الحوزوية، لكنها تعرضت إلى دخول الحركات السياسية المنحرفة الضآلة، وسقط الكثير من أبناء العلماء في أحضان هذه الحركات السياسية المنحرفة.

فتجد في بعض العوائل مثلا عالماً كبيراً له دور في الحوزات العلمية وتجد أن بعض أبنائه من أصحاب الماركسية اليسارية، وبعضهم تحول إلى قادة في هذه الأحزاب، وهكذا بالنسبة للتيارات القومية والتيارات الغربية أو غير ذلك مما شهدته أيامنا في بداياتها من أزمات، نتيجة لهذا النوع من عدم الفهم للحالة السياسية الثقافية؛ ولذلك أدعو حوزاتنا العلمية التي يكون مركز اهتمامها الجانب الثقافي والعلمي، وتعطي هذا الجانب القدر الأكبر من وقتها ووجودها، أن تعطي شيئاً من وقتها إلى الجانب السياسي؛ من أجل الحفاظ على ذلك الجانب. وهذا له دور مكمل للجانب السياسي، وأقول هذا من خلال تجربة عشتها مع الإمام الحكيم وعلماء ومراجع آخرين.

وفي الوقت نفسه أقول لأولئك السياسيين الذين يتصدون للعمل السياسي ويكون لديهم الوقت الكبير المفرّغ له: ان لاينسوا الجانب الثقافي ومعرفة الإسلام وأخذ المصادر الصحيحة لمواقفهم ولرؤاهم ولفهمهم للقضايا السياسية من منابعها ومصادرها الإسلامية، وإلّا فسوف نرتكب أخطاءً كثيرة. وشاهدت بعض الذين لا أتهمهم في إخلاصهم ودينهم قد وقعوا في أخطاء فادحة - ولا أبالغ - قد تؤدي إلى ضلالٍ في حركتهم؛ بسبب انفصالهم عن الفهم الشرعي والديني والثقافي للإسلام ومعرفته، فيصدر أحكاما، ويرتب مواقف، دون أن يكون من ذوي الاختصاص في فهم الإسلام ومعرفته.

مواقف ومعالم من الجهاد السياسي للإمام الحكيم

أحاول هنا أن أشير إلى بعض المعالم والمواقف للجهاد السياسي للإمام الحكيم من خلال رؤيتي ومشاهداتي:

مواقفه أيام الحكم الملكي

١. في أوائل تصدي الإمام الحكيم للمرجعية - بعد وفاة السيد الإصفهاني - امتنع عن مقابلة الملك، وكان الملك في ذلك الوقت يأتي للنجف ويقابل العلماء، قال الإمام الحكيم: لماذا استقبله، ما زال لايقضي حوائج الناس ولايطبق العدل؟ فاني لست (ديكوراً) حتى يؤتى بي للتفرج، فإذا ما طبق العدل، وطبّق الأعمال الصالحة، فإني استقبله، وأما إذا بقي على هذه الحالة فلا.

ورفض استقباله وذهب الملك، وهكذا صنع مع عبد الكريم قاسم،

وعبد السلام عارف، وعبد الرحمن عارف، ومع البعثيين، وكان ذلك يمثل بعداً من أبعاد شخصية العالم والمرجع وطلبة العلوم الدينية الذين يمثلون مشروع المرجع، فالمرجع يبدأ طالباً ثم يترقى.

٢. في بداية تصدي الإمام الحكيم للعمل السياسي من موقع المرجعية في أواسط السبعينات الهجرية، شهد العراق أحداثا مهمة ومتوترة، خصوصاً بعد العدوان الثلاثي للإنكليز وفرنسا وإسرائيل على مصر، عند إعلانها لتأميم قناة السويس، وكان التيار الشيوعي وبعض القوى السياسية الوطنية تهيمن على الشارع العراقي، وتحاول أن تقوده، وكانت المرجعية الدينية السياسية في النجف الاشرف حينذاك [1]، تتأرجح في موقفها بين الوقوف إلى جانب النظام حذراً من أخطار هذه التيارات السياسية الغربية، أو الوقوع تحت تأثير هذا الغليان والاتجاه السياسي العارم.

وهنا برز الإمام الحكيم كقوة سياسية مستقلة، لها موقفها من الأحداث، حيث استنكر عمليات القمع التي كان يمارسها النظام ضد الشعب من ناحية، انسجاماً مع المبدأ الإسلامي في الحرية السياسية

---

(1) كانت المرجعية الدينية العامة، تتجنب الدخول في القضايا السياسية، لمخلفات عهود ما قبل الحرب العالمية الثانية، ونكسة ثورة العشرين وكان يتصدى للعمل السياسي الديني (المرجعية السياسية الدينية) بعض الأعلام من رجال الحوزة العلمية، أمثال آية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وآية الله الشيخ عبد الكريم الجزائري، والعلامة السيد علي بحر العلوم، وغيرهم من أبناء البيوتات العلمية المعروفة، والديوانيات الاجتماعية الدينية..(**المؤلف**).

ومقاومة العدوان الأجنبي والهيمنة الخارجية، ولكنه في الوقت نفسه حاول أن يتميز بموقفه ومنهجه عن القوى السياسية وشعاراتها، أو الانقياد لها في المواقف والأساليب والشعارات.

وهنا أدركت هذه القوى لأول مرة في هذه الحقبة من الزمن، أهمية الوجود الديني وخطره على وجودها، فحاولت أن تضغط وتحرض على الإمام الحكيم من خلال إمكاناتها، وأجهزتها السياسية، والاستفادة من العواطف الشعبية الجياشة.

وأتذكر أن المرجعية خاضت معركة دقيقة محفوفة بالأخطار؛ من أجل الصمود والحفاظ على المبادئ والاستقلال السياسي لها، وفرز المواقف الأصيلة عن غيرها، فقامت هذه القوى السياسية بتوجيه المظاهرات إلى منزل الإمام الحكيم تحمل جثث القتلى[1] ووراء الشعارات السياسية المنحرفة؛ لفرض موقف على الإمام الحكيم.

ولكن الإمام الحكيم رفض بإصرار هذا الضغط، واستمر في موقفه الذي اختار في هذا المجال المتوازن، الرافض لسياسات الحكومة والعدوان، وعدم الانسياق مع الضغوط؛ وذلك من اجل إعطاء المرجعية موقعها الطبيعي.

مواقفه أيام الحكم الجمهوري

١. في بداية انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م، كانت الجماهير متجاوبة مع الانقلاب بدرجة عالية، ومساحة واسعة جداً، وكان كل من يتوقف في

---

(1) كان بعض القتلى ينتسبون إلى بعض الأوساط العلمية والدينيـــة، التـــي ســـاهمت بدورها في الضغط، دون وعي أو أرادة..(**المؤلف**).

التأييد يعرِّض نفسه لأشد الأخطار المعنوية والمادية، ولكن الإمام الحكيم توقف عن تأييد الانقلاب؛ لأنه كان يخشى من تحول الانقلاب إلى حكم يساري إرهابي عنصري طائفي، ولم تكن شخصية عبد الكريم قاسم معروفة لدى الأوساط السياسية، ولم يقدم على إرسال برقيته المعروفة إلى عبد الكريم قاسم، التي أكد فيها على أهمية الخطوات الصحيحة والمنهج السليم، وحذره من العواقب التي لحقت بمن قبله[1]، حتى قام بعملية فحص للوضع للسياسي، وجاءه التأكيد على أن الحكم سوف يراعي الموازنة السياسية، ويعطي الفرصة للعمل السياسي الحر بدرجة معقولة، كل ذلك بالرغم من الأخطار التي تحيط به بسبب هذا الموقف.

٢. موقفه من جماعة العلماء المجاهدين. فرضت الأحكام العرفية بعد سقوط الحكم الملكي، وكانت هناك رقابة مشددة على المطبوعات والمنشورات في العراق، وكان هذا يمنع - إلى حد كبير - من القيام ببعض النشاطات السياسية والثقافية التي تتبنى النهج الإسلامي؛ لأن هذه المجلات كانت تخضع للرقابة العسكرية، التي وجدت بعد مجيء عبد الكريم قاسم إلى الحكم.

وقد أشرت إلى أن الحوزة العلمية انكمشت سياسياً بعد الانتكاسة التي حصلت بعد ثورة العشرين، لكن الإمام الحكيم تصدى للعمل السياسي، وحاول من خلال الحوزة العلمية أن يسند الأعمال السياسية.

---

(1) يمكن مقارنة برقية الإمام الحكيم، ببرقيات ورسائل التأييد الأخرى؛ ليلاحظ بأنها البرقية الوحيدة المتميزة التي كانت تتصف بهذا التأكيد والتحذير..(**المؤلف**).

وعندما تأسست (جماعة العلماء المجاهدين) في النجف الأشرف بعد انقلاب عبد الكريم قاسم - وكانت تمثل نخبة من العلماء المعروفين في النجف الأشرف، والذين تصدوا للعمل السياسي - واجهت حملةً شعواء من النقد والتجريح والاتهام نتيجة لهذا التصدي، مع أن هؤلاء العلماء كانوا يطرحون طرحاً إسلامياً، فقيل فيهم: إنهم عفالقة، أو قوميون، أو غير ذلك، وتعرض بعضهم للإهانة والأذى، وكانوا يواجهون نقداً لاذعاً من قبل الحوزة العلمية نفسها.

وبعض العلماء - ممن كان من المفروض أن يكون جزءاً من هذه الجماعة- امتنع عن الدخول فيها؛ لوجود تصور بأنَّ هذه أعمال سياسية وفتنٌ وألاعيب؛ لذا احتاجت هذه الجماعة - في مرحلة من مراحلها - إلى من يسندها من المراجع، وكان المراجع يتوقفون، حتى إن أحدهم عندما خوطب بذلك ردّ رداً عنيفاً مع التهجم على هذه الجماعة.

وبادر الإمام الحكيم للكتابة بحق هذه الجماعة وإسنادها والتعريف بأعضائها، ومَنْ يلاحظ ما كتبه يشعر كأن هذه الجماعة تتعرض إلى التهمة، وتحتاج إلى دفاع وتعريف.

ثم كتب الإمام الحكيم إلى بقية المراجع كالمرحوم السيد عبد العزيز الشيرازي، والمرحوم السيد محمد جواد التبريزي، والمرحوم السيد محمود الشاهرودي، والمرحوم السيد الخوئي، وغيرهم ممن لاأتذكر أسماءهم. وكلهم استجابوا عدا ذلك المرجع الذي أشرت إليه، ولاأحب أن أذكر اسمه. وبعض منهم كتب وهو متردد؛ لأنه لا يعرف ماذا سيكون مصير هذه الجماعة، وهكذا واجهت هذه الجماعة

ضغوطاً شديدة، فلم تتمكن من الاستمرار أكثر من سبعة أو ثمانية أشهر، وبعد ذلك توقفت اجتماعاتها؛ بسبب الظروف الحرجة التي كانت تعيشها النجف الأشرف.

وهذا الوضع كان يمنع العالم من التدخل في الأمور السياسية، فاضطر المرحوم الإمام الحكيم إلى أن يتصدى بنفسه لقيادة المسيرة السياسية والجهادية في النجف الأشرف.

وأودُّ الإشارة إلى أنه من جملة الأمور التي كان يُحارَبُ بها السيد الشهيدُ الصدرُ هو ارتباطه بالعمل السياسي، وأنَّ له كتاباتٍ في قضايا سياسية، بالإضافة إلى اتهامه بقضايا حزبية، وأنَّ لديه حزباً، وما شابه ذلك، ومن يعرف ذلك يتوجس من الاتصال به.

والنشاطات التي قام بها الإمام الحكيم على مستوى الحوزة العلمية والوكلاء والأمة أصبحت بالتدريج خطاً من الخطوط الواضحة في النجف الأشرف، له مؤيدون ومساندون ومضحون، وبالتدريج أصبح هذا الخط هو الحاكم في النجف الأشرف.

من هنا فإن إيجاد الخط الجهادي في الحوزة والدخول في الأعمال السياسية، والاهتمام بقضايا الأمة يعتبر من القضايا المهمة فيما يتعلق بتطوير الحوزة العلمية.

٣. بعد محاولة الانقلاب العسكري الفاشل، الذي قام به عبد الوهاب الشواف في معسكر الموصل، عمّت العراق موجة من الإرهاب، التي كان يقودها الحزب الشيوعي، مستغلاً فرصة الصراع بين عبد الكريم قاسم مع القوى القومية، التي كانت تتلقى دعماً من الجمهورية العربية المتحدة

آنذاك، وقام الشيوعيون بعمليات قتل وسحل للجثث في الشوارع، واعتداءٍ على الأموال والكرامات، وكان ضمن ذلك اعتقال عدد من طلبة الحوزة العلمية في النجف الاشرف، والمتسبين إليها، وكانت قائمة أخرى من أسماء العلماء قد أُعِدَّت للاعتقال أو العدوان، وتوقفت (جماعة العلماء) التي أسستها المرجعية الدينية للتصدي للعمل السياسي عن إصدار بياناتها؛ بسبب الضغوط والإرهاب، و تخلت السلطة المحلية عن مسؤوليتها، مهددة بأنها لاتملك الوقوف أمام هذا التيار اليساري[1]، وبدأت الضغوط الداخلية من الحوزة، والخارجية من السلطة، وغيرها، على الإمام الحكيم من أجل أن يرسل برقية تأييدٍ - ولو بالحد الأدنى وبمستوى إرسال تهنئة بعيد الفطر - لعبد الكريم قاسم، ومن أجل إنقاذ الموقف وتجنب العدوان، ولكن الإمام الحكيم ﯼرفض ذلك بشجاعة، تعبيراً عن الموقف الرافض لاستخدام هذه الأساليب الإرهابية في إدارة الحكم وسياسة الرعية، وكذلك رفض الاستسلام لموقف الحزب الشيوعي، الذي كان له تأثير واسع على الوضع الرسمي حينذاك[2].

---

(1) لقد جاء قائمقام النجف الاشرف إلى منزل الإمام الحكيم بصورة رسمية، وأبلغه ذلك، وكان يُفهم من الإبلاغ، أنها رسالة تهديد، واقترح على الإمام الحكيم إرسال برقية التهنئة..**(المؤلف)**.

(2) كان الحزب الشيوعي في ذلك يحاول أن يحقق مكاسب سياسية خطيرة، منها المشاركة في الحكم على الأقل، وكان يعقد اجتماعات واسعة جماهيرية شعارها (عاش زعيمي عبد الكريم حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي)، كما شكل لجان الدفاع عن الجمهورية، التي انتشرت في جميع الدوائر الحكومية، فضلاً عن الأوساط الشعبية..**(المؤلف)**.

٤. فتواه المعروفة الشجاعة تجاه الحزب الشيوعي، التي كان لها أصداء واسعة، وموقفه الشجاع المتميز، تجاه حزب البعث بعد ذلك في سنة ١٩٦٣م، والذي كان له دور مهم في محاصرته وإسقاطه، وكذلك في سنة ١٩٦٩م، وحتى وفاته رضوان الله عليه في سنة ١٩٧٠م، وتحمله لكل الآلام والمحن؛ من اجل تأصل الخط الإسلامي، والموقف المستقل النابع من إرادة الأمة وفكرها وعقيدتها الإسلامية الصحيحة.

٥. موقفه الشجاع تجاه موضوع قانون الأحوال الشخصية الذي وضعه عبد الكريم قاسم، مخالفاً نصَّ القران الكريم، وإصراره على تعديله، ورفضه لاستقبال عبد الكريم قاسم، بالرغم من الضغوط والتهديدات.

٦. موقفه الشجاع من عبد السلام عارف، وخلفه عبد الرحمن عارف، ورفضه لقبول اللقاء بهما، أو استقبالهما؛ بسبب السياسات الطائفية والعنصرية التي كان يعتمدها الحكم في ذلك الوقت، ولاسيما تجاه حرب الأكراد[1] وقتلهم، ومحاصرة الأكثرية من أبناء الشعب العراقي من أتباع أهل البيت عليهم السلام.

مواقف جهادية أخرى

لقد كان الإمام الحكيم قدس سره مضافاً إلى ذلك، بعض المواقف الجهادية الشجاعة الأخرى في حقل العمل الاجتماعي، أو السياسي، أو الديني

---

(1) قام الإمام الحكيم بجمع العلماء في كربلاء وإصدار فتوى بحرمة مقاتلة الأكراد في الوقت الذي كان يقوم فيه عبد السلام عارف بعمل مؤتمر يجمع فيه علماء آخرين ومنهم شيخ الازهر، حيث أفتوا بأنَّ الأكراد (بغاة) تجوز مقاتلتهم.

كموقفه من قضية محاولة حذف الشهادة الثالثة في الأذان - كما ذكرنا - وفرض صلاة الجمعة على الناس بالقوة ومنهج التكفير، ومنهج الإرهاب في فرض الآراء الدينية، حيث تصدى الإمام الحكيم للوقوف أمام هذا المنهج المتطرف الخطير بشجاعة، بالرغم من أن سياسة الحكم وأجهزته، كانت تدعم هذا المنهج، لمواجهة التيار الشيوعي في ذلك الوقت، وموقفه من قضية تبديل ضريح العباس، بصورة مهينة وذليلة، وبهدف إضعاف دور المرجعية في العتبات المقدسة، أو موقفه الايجابي من قضية العلاقات الايجابية مع علماء السنة بين المسلمين، وإيجاد وحدة الموقف لهم أمام القوى السياسية المعادية للإسلام، حيث كان الوسط الديني المتحجر يقاوم مثل هذه العلاقات.

وكذلك موقفه من تطوير العلاقة مع الأقليات الدينية في العراق، كالمسيحيين، التي تعبر عن الرؤية الإسلامية تجاه الأقليات الدينية من ناحية، وتوحيد موقف الأديان تجاه حركة الإلحاد المنتشرة في ذلك الوقت من ناحية أخرى، ولكن في الوقت نفسه كانت تعبيراً - أيضاً - عن استقلال المرجعية، وعدم انسياقها مع مشاريع الاستكبار، ومحاولاته من ناحية ثالثة.

وكذلك موقفه من العمل الفدائي الفلسطيني، وقضية اعتراف إيران (الشاه) بإسرائيل، حيث كان الإمام الحكيم أول مرجع ديني عام يبادر لإسناد العمل الفدائي، بإصدار الفتوى بجوازه، ومن ثم وجوبه، ومنح الإذن بصرف الزكاة في دعمه وتيسيره.

كما انه المرجع الديني العام الوحيد الذي وقف بقوة، حينذاك أمام

محاولة (الشاه) الاعتراف بإسرائيل.

وكذلك استنكاره لعدوان الشاه على الحوزات العلمية، وحركة العلماء في إيران، ضد الرضوخ والاستسلام والهيمنة الأجنبية، التي انتهت بانتصار الثورة الإسلامية.

وموقفه من تشريع الأنظمة الكافرة كالاشتراكية في العراق ومصر.

وغير ذلك من المواقف الكثيرة، التي تعبر عن هذه الشجاعة في قول الحق ومواجهة الظلم والطغيان.

إن الشجاعة والتضحية في مواجهة الطغيان والاستبداد، وفي قول الحق والإلزام به، من أهم الصفات التي لابد أن يتصف بها عالم الدين، والمرجع للمسلمين، والقيادة الربانية، وهي صفة مكملة لصفات الوعي والتقوى، والإرادة القوية، والإيمان المطلق بالغيب، والتوكل على الله تعالى.

وهي في الوقت نفسه تعبر عن مبدأ أخلاقي، وشرط ضروري، لابد أن يتصف به المرجع الديني الإسلامي؛ لأن من الشروط الأخلاقية والصفات الضرورية في المرجع الديني، أن يكون له موقف واضح في مقاومته الظلم، وإحقاق الحق، وإقامة العدل، والدفاع عن المظلومين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القضايا العامة، والحفاظ على الدين والشريعة من كيد الأعداء، وتحريف المحرفين.

تصدي الإمام الحكيم للعفالقة البعثيين

من جملة القضايا التي تصدى إليها هذا المرجع الإسلامي العام، هي قضية مواجهة نظام العفالقة في العراق زمن أحمد حسن البكر،

الذي فرض سياسات عنصرية وطائفية وقمعية، وكان للإمام الحكيم في هذا المجال موقف تضحوي فريد، في وقتٍ تخاذلت فيه جميع القوى السياسية في العراق؛ خوفاً من إرهاب حزب البعث العفلقي، أو سقوطاً في مستنقع المصالح الضيقة، وإغراءات الجاه والمقام.

وكان الإمام الحكيم أوَّلَ من تصدى لهم تصدياً سياسياً واجتماعياً عاماً، فإذا أردنا أن نحصي الأحزاب والقوى السياسية في الساحة العراقية نجد أن أول قوة سياسية كانت متصدية لمواجهة العفالقة البعثيين هي المرجعية الدينية في النجف الأشرف.

وكان لهذا التصدي جانبان:

الجانب الأول: ما يرتبط بالشرع والدين، وأنَّ منطلقاته هل هي دينية؟ لتكون الآثار والتداعيات والمترتبة على هذا التصدي، من تضحيات، ودماء، وشهاداتٍ، وآلامٍ، ومحنٍ كلُّها في سبيل الله، ومن أجله، وتحت عنوان الشرع والوظيفة الشرعية.

والجانب الثاني: ما يرتبط بموضوع القضية والرؤية السياسية للموقف تجاه البعثيين، وتداعيات هذه الرؤية ونتائجها السياسية.

وقد يحسن بنا أن نقف قليلاً عند الجانب الأول

ا لجا ن ب ا ل د ي ني

عندما بدأ الإمام الحكيم تصديه كانت الأوساط الدينية - وخصوصاً الحوزوية - تقف موقف المتردد من هذا الموقف، وإن كانت عامة الأوساط الحوزوية مجاهدةً ومضحيةً، وكانت الحوزة العلمية - جزاها الله خير الجزاء عن الإسلام وأهله وعن الإمام الحكيم - أوَّلَ من انتصر للإمام الحكيم

على الإطلاق. فأنا لاأعرف - بحسب دراستي وإطلاعي عن ظروف تصدي الإمام الحكيم في ذلك الوقت - أنَّ وسطاً عاماً تجاوب بشكل فعّال مع حركة الإمام الحكيم كوسطِ الحوزة العلمية - وإن كان يوجد أشخاص هنا وهناك يمثِّلون هذه الحالة، لكن كلامنا عن الوسط العام - حيث خرج طلاب الحوزة العلمية في اليوم الثاني من المواجهة مع البعثيين؛ من أجل نصرة الإمام الحكيم، واعتُقل منهم من اعتُقل، وحوصر منهم من حوصر، وضُرب منهم من ضُرب، ولم يتراجعوا، فخرجوا في اليوم التالي بنيّةِ أن يدخلوا في قتالٍ ومواجهةٍ مع البعثيين، ودخَلوا في هذا القتال والمواجهة، وألحَقوا الهزيمةَ بكثيرٍ من عناصر البعثيين في النجف الأشرف، وكانوا مصممين على الاستمرار في هذا الطريق لولا بعض المداخلات التي تمت من قبل بعض الأشخاص.

ولا أريد أن أدخل في هذا البحث؛ لأن فيه الكثير من التعقيدات والإثارات والمشكلات، ولكن أريد أن أشير إلى أنَّ الوسط العام للحوزة العلمية كان وسطاً متجاوباً ومجاهداً، وأعطى تضحياتٍ في هذا المجال، وبالرغم من كل ذلك كان هناك بعض الأشخاص في الأوساط الدينية يطرحُ هذا السؤال: إن هذا التصدي من قبل الإمام الحكيم هل هو تصدٍّ في محله وموقعه وحسب الشروط والظروف المناسبة، أم أنه يحتاج إلى شيء من التأمل والتوقف والانتظار؛ لتتضح الأمور بشكل أكثر؟.

جانب الرؤية السياسية

وأما في الجانب الثاني - جانب الرؤية السياسية - فنجد - أيضاً- أنَّ المرجعية الدينية هي أول كيان سياسي تمكَّن أن يشخِّصَ طبيعةَ نظام

البعث تشخيصاً كاملاً، قبل كلِّ القوى السياسية والأحزاب العلمانية[1] التي لها تجارب كثيرة في عملها، كالشيوعيين الذين كانت تجارب الاتحاد السوفياتي - والتي هي تجارب قوة عظمى - كلُّها في خدمتهم، وتحت يدهم وتصرفهم، وبالرغم من وجود الصراع الفكري والإيديولوجي، والصراع السياسي لهم مع نظام البعث، وبالرغم من أن لنظام البعث مواقفَ تاريخيةً معهم، حيث قتَلَهُم في سنة ١٩٦٣م، نجد أنَّ هؤلاء - لافتقادهم الذكاء السياسي، وعدم إدراكهم لحقائق الأمور- دخلوا في جبهةٍ وائتلافٍ مع نظام البعث؛ من أجل مواجهة التيار الإسلامي والديني - أو ما كانوا يسمونه: بـ (التيار الرجعي) - فكانت النتيجةُ أن جاءَ البعثيون فذبحوهم وهم في هذه الجبهة والائتلاف مع العفالقة! وقتلوا واحداً وعشرين قائداً منهم، ولم يجرؤا الذين بقوا من قادتهم - بعد هؤلاء - أن ينبسوا ببنت شفةٍ، أو يتحدثوا بكلامٍ؛ لأنهُّم في الجبهة وفي الائتلاف.

وهكذا صنعت القوى السياسية الأخرى من مختلف القوى العلمانية، وحتى القوى الكردية التي لاقت ما لاقت من العفالقة البعثيين المجرمين، من عَنَتٍ وتدميرٍ وملاحقةٍ وقتلٍ ومطاردةٍ وإبادةٍ، فنجد - مع ذلك - أنّ هذه القوى كانت تتأرجح في مواقفها، منذ زمن

---

(١) العلمانية: هي النهج الحياتي الذي يستبعد أي تأثير أو توجيه ديني على تنظيم المجتمع، والعلاقات الإنسانية داخل المجتمع، والقيم التي تحتويها هذه العلاقات وترتكز عليها، ومن ثم فهي نهج حياتي مادي، تكوّن نتيجة لنمو الفلسفات المادية اللادينية. وهذا النهج هو الروح المحركة والموجهة في الحضارة الحديثة بجناحيها الرأسمالي والماركسي.

الإمام الحكيم، يعني: منذ بيان ١١ - آذار سنة ١٩٧٠م - (١٣٩٠ هـ)[١]، والإمام الحكيم كان مسجىً في الفراش في مستشفى لندن - ولم يتمكنوا أن يشخصوا بشكل واضح طبيعة هذا النظام، والموقف الفاصل الحاسم الذي يجب أن يقفوه تجاهه، وكان لهذا التأرجح والمواقف المترددة هذه النتائج التي عرفها الأكراد في مختلف مسيرتهم، حيث إنه في ضربة واحدة تمكَّنَ البعثيُّونَ أن يقتلوا أكثر من مئتي ألف كردي في عمليات الأنفال الأولى[٢].

وهذه الأرقام ليست مبالغاً بها، وإنما هي مُحصاةٌ بشكلٍ دقيقٍ من خلال الوثائق التي تمكَّن الأكراد أن يستولوا عليها بعدالانتفاضة الشعبانية، وكان علي الكيمياوي (علي حسن المجيد)[٣] هو المنفِّذ لمثل هذه الجرائم الواسعة الكبيرة تجاه المجتمع الكردي، حتى أن أكثر من ستة آلاف قرية أزيلت من الوجود بكل معالمها الإنسانية والزراعية والحياتية، ولم يبقَ لها وجودٌ أو أثرٌ غيرُ التدميرِ الهائل الذي حصل فيها، مع أنّ الأكراد كانوا يقومون في مجمل فهمهم السياسي لعلاقتهم مع النظام بحالة التأرجح، ففي يومٍ يدخلون في اتفاقٍ، وفي يوم آخر

(١) هو البيان الذي أوجد تفاهم السلطة مع الحركة الكردية، وعلى إثر ذلك منح الأكراد بعض الحقوق كصحيفة التآخي، وإنْ لم يدم ذلك التفاهم كثيراً...

(٢) قام النظام بمهاجمة الأكراد في شمال العراق في آذار ١٩٨٨ في عمليات عرفت بعمليات الأنفال.

(٣) وهو ابن عم صدام، لقبه العراقيون بـــ«علي الكيمياوي» بسبب ضربه منطقة حلبچة الكردية بالكيمياوي سنة ١٩٨٧.

يُفكُّ هذا الاتفاقُ، وفي يوم يدخلون في حرب، وفي يومٍ آخر يدخلُ هذا الجانبُ، ويدخل ذاك الجانب أو يخرج، فالعمليةُ كانت تدور بهذا الشكل وحتى يومنا الحاضر...

ونحن نلاحظ أنَّ هذا الإنسان الربانيَّ المرتبطَ بالله سبحانه وتعالى، والذي تربّى في الحوزات العلمية، وتربّى على فقه أهل البيت عليهم السلام وعلى فهمهم، تمكَّن أن يشخِّصَ طبيعةَ النظامِ البعثيِّ العفلقي منذ اليوم الأول، ويدرك بأنه سوف يؤول مآله إلى ما آلَ إليه.

لقد كانت خلفيات التغيير الذي حصل في السابع عشر من تموز[1] - الذي جاء بالعفالقة البعثيين في عملية مشبوهة، بل في عملية مكشوفة اشتركَ فيها العفالقة البعثيون مع مجموعة من رجال المخابرات الغربية، ومَن كانوا معروفين بعمالتهم وارتباطهم بالمخابرات الغربية، الأمر الذي أدى بالبعثيين إلى أن يعلنوا هذا الارتباط ويحاولوا أن يبرروه، بأنهم كانوا مضطرين للتعامل مع هؤلاء والارتباط بهم- مكشوفةً بالنسبة للمرجعية، وكان من الواضح لدى أولئك الذين يتواجدون في مركز القيادة للمرجعية المجاهدة أنَّ هذهِ العملية يُستهدف منها أولاً الإسلام وقضيته في العراق، وبالتالي مركز القيادة لهذه القضية وهي المرجعية، وهذه الحقيقة كانت واضحة في منظار المرجعية منذ مجيء البعثيين. ومن هنا نجد أنَّ المرجعية الدينية تقف موقفاً سلبياً من هذا النظام، وهو موقف التشكيك والمواجهة.

---

(١) في سنة ١٩٦٨م كان استيلاء حزب البعث على السلطة.

الإمام الحكيم يرفض التعامل مع البعثيين

حاول البعثيون بمختلف الأساليب - وأحمد حسن البكر بالخصوص - أنْ يأخذوا اعترافا شرعياً من قِبل المرجعية الدينية بوجودهم، لكنَّ المرجعية رفضت ذلك. وكان المراد من المرجع أن يوافق على استقبال رئيس الجمهورية ولو في بيته؛ ليكون بمثابة اعتراف بالنظام.

ولم يكن يُعرَفُ في تاريخ المرجعية في العراق أنْ يزور ملكٌ مِن الملوك أو رئيس من رؤساء الجمهوريات مرجعاً من المراجع أو عالماً من العلماء، غاية الأمر أنه كان يُطلَبُ من المرجع أنْ يجتمع بالملك- مثلا- في الحرم الشريف، أما أن يزوره في بيته، ويُقدِّمَ له الاحترام، ويتنازل إلى هذا المستوى، فهذا لم يكن معروفاً. ومع ذلك قاموا بذلك؛ ليكسبوا رضا المرجعية، لكنَّ المغفور له الإمام الحكيم رفض ذلك.

البكر في منزل الإمام الحكيم

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان، بينما كان الإمام الحكيم في داره، وإذا به يفاجأ بدخول (أحمد حسن البكر) إلى الدار بدون موعدٍ أو إذنٍ سابق، وكان أحمد حسن البكر يريد أنْ يكسب به اعترافا، ولو بهذا الشكل.

ومن هنا نجد أنَّ الصحف الخاضعة لتوجيه الحكومة العفلقية أعلنت - بعد خروج أحمد حسن البكر - من زيارته لدار الإمام الحكيم، بشكل وكأنَّ الإمام الحكيم قد رضي بهذهِ الزيارة، وذكَرَت ضمن مجموعة من الفعاليات التي قام بها، أنَّه قام بزيارةِ النجف الأشرف، وزار الجهة الفلانية والفلانية، وكأنّه ضمن برنامج مشخَّصٍ ومعيَّن. ونجد أيضاً أنَّ المرجعية الدينية وقفت موقف الرافض لمثل هذا

الإعلان، وأنا أتذكر أننا بَلّغْنا محافظ كربلاء - وكان النجف الاشرف قضاءاً مِنْ أقضية لواء كربلاء - أنَّ البيانَ إذا لم يُعدَّل بشكلٍ يذكر أنَّ الزيارة كانت بشكل مفاجئ، وبدون قرار سابق، فسوف تضطر المرجعية إلى إعلان تكذيب البيان. واضطر أحمد حسن البكر وأجهزته للرضوخ لهذا التهديد، وأعلن في اليوم الثاني في الجريدة بيان الزيارة بشكل يعبّر عن أَنَّ هذهِ الزيارة كانت بشكل مفاجئ، وبدون قرار سابق. وأَذكر هذا الموضوع كشاهد على التوجيه الذي كانت تعيشهُ المرجعية تجاه حكم العفالقة، وموقفها من حكمهم.

المخطط البعثي في مواجهة المرجعية

كانت هنالك مجموعة مِنَ الشواهد تدل على أنَّ العفالقة المجرمين كانوا بصدد ضرب الإسلام.ومن جملة هذهِ الشواهد: البيان الذي صدر عن المؤتمر القطري السابع لحزب البعث العفلقي، والذي يؤكد على ضرورةِ ضرب ما يسميه **بالتيار الفاطمي**، ويقصد الحزب من التيار الفاطمي: ذلك التحرك الإسلامي الواسع، الذي حصل في العراق، والذي تقوده المرجعية المجاهدة.

ويذكر هذا البيان مجموعة من الأحزاب والاتجاهات السياسية الموجودة في العراق، ولكن يعطي أهمية خاصة للتيار الفاطمي، ويفترض أنَّ هذا التيار تيارٌ طائفي؛ من أجل التضليل، وذر الرماد في العيون، وتشويه طبيعةِ الحركةِ الإسلامية في داخل العراق، وأنَّ هذا التحرك هو تحرك إسلامي، فيحاول أن يصمه بوصمة الطائفية.

هذا البيان يعير أهمية خاصة لهذا التيار، ويقول: نحن نحتاج إلى أَنْ

نتعامل مع هذا التيار بدقةٍ متناهيةٍ، من أجل عدمِ إثارةِ الجماهير الشعبيةِ التي تتعاطف مع هذا التيار.

ثم بعد ذلك أخذت بعض المنشورات التي تصدر عن الأجهزة الحكومية تلوّح بهذا الموقف تجاه الإسلام.

أساليب البعث لضرب المرجعية

والتكتيك الذي اتبعه البعثيون في هذهِ المواجهة، أنهم كانوا يحاولون أن يجرّوا المرجعية الدينية إلى معارك جانبية، ليخفوا الحقيقة عن جماهير الشعب العراقي، ويقولوا لهم: إنّ هذهِ المعركة ليست معركة إسلام وكفر، ولا معركة مرجعيةٍ مجاهدةٍ تتبنى الإسلام، ولامعركة عفالقةٍ يتبنَّون المصالح الاستعمارية، وإنما هي معارك ترتبط بقضايا جزئية خاصة، قد لاتهم كل أبناء الشعب العراقي.

وهي نفس الطريقة التي اتبعها العفالقة مع الجمهوريةِ الإسلاميةِ في إيران، عندما طرحوا قضية الحرب على أساس أنها معركةٌ على المياه مثلاً، أو على الحدود، أو على سيف سعد[1]، وما أشبه ذلك من الأطروحات؛ ليبعدوا الحقيقة عن المسلمين في العالم، ويقولوا لهم: إن المعركة ليست مع الإسلام والثورة الإسلامية والدولةِ الإسلامية، وإنما هي معركة على قضايا جزئية ذات طبيعة خصوصية،

---

(١) أحد المخافر الحدودية التي ادعى صدام أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية كانت تحتلها أيام الشاه. وكانت معاهدة الجزائر عام ١٩٧٥م قد نصت على أن تكون مخافر سيف سعد، وزين القوس، وخضر، وهيلة، ضمن الأراضي الإيرانية.

قد لاتهمُّ كلَّ أبناء العالم الإسلامي، وإنما هُم مجموعة معينة. ونجد هذا التكتيك يتمثَّل بمجموعةٍ من المفردات أو الاعتداءات، التي قام بها المجرمون العفالقة؛ ليصرفوا أذهان الجمهور عن هذه القضايا.

ومن هذه الاعتداءات أنّ الزوار الإيرانيين كان من المعتاد بعد الحج أَنْ يزورَ قسمٌ كبيرٌ منهم العتبات المقدسة، وفي تلك السنة[1] زار عدد كبير منهم العتبات المقدسة، فأخذ البعثيون يستفزون هؤلاء الزوار بطريقة لاإنسانيةٍ تثير الضجة، بحيث يكون - الاستفزاز - إشعاراً بأنَّ هناك قضية مرتبطة بخصوصهم.

والاعتداء الآخر الذي قام به العفالقة المجرمون، أنَّهُم قاموا باعتقال مجموعةٍ من الشخصيات التي لم يكن يعرف أبناءُ الشعب العراقي المسلم بخصوصياتها، لإيجادِ حالة استفزازية أيضاً للمرجعية.

والاعتداء الثالث الذي قاموا به أنهم صعّدوا الاعتداء، فأخذوا يُسَفّرون طلاب العلوم الدينية المتواجدين في الحوزات العلمية.

موقف المرجعية وتطور الأحداث

وبالنسبة للاعتداءين الأول والثاني فقد احتجت المرجعية بطريقتها الخاصة، وأبلغت المسؤولين احتجاجها، وأكدت في مختلف المناسبات أن هذا التصرف يمثل عدواناً.

كان الإمام الحكيم في كربلاء في يوم زيارة الأربعين، وسمع بحادث تسفير طلاب العلوم الدينية، فقرر الرجوع إلى النجف الأشرف؛ لأجل

---

(١) ١٣٨٩ هجري و١٩٦٩ميلادي.

مواجهة هذه القضية، الأمر الذي أثار حالة من الاستفسار عند جماهير الشعب العراقي، وبالفعل فعند عودة الإمام الحكيم حصلت ضجّةٌ اضطرت حكومةُ العفالقةِ معها إلى إرسالِ وفدٍ للنجف لمعالجة الموقف، وكان الوفد يتكوَّن من (حردان التكريتي) و(خير الله طلفاح) وآخرين معهما، حيث عقد الاجتماع يوم (١٩) صفر في دار الإمام الحكيم بحضور جمهور كبير من العلماء، وعندما طُرِحَت القضيةُ في ذلك الاجتماع، تصدّى (خير الله طلفاح) بطريقته التي يعرفها العراقيون للدفاع عن حكم العفالقة على أنه حكم إسلامي يمثل الإسلام والعروبة، وهو آنذاك كان محافظاً لبغداد، و(حردان) كان وزير الدفاع.

وأذكر أني قلت لخير الله طلفاح: إنّ هناك مجموعة من المنشورات التي تصدر عن جهات رسمية حكومة تؤكد أن حكومةَ البعث تقفُ موقفاً معادياً للإسلام، ومن أجل إحراجي في ذلك، فقد طلبَ مني هذه المنشورات، فأخرجتُ له المجلة التي تؤكد على ضرورة تحطيم المرجعية الدينية التي كانوا يصفون بها التحرك الإسلامي الموجود في النجف، والذي تقوده المرجعية المجاهدة، فانكشفت حقيقةُ البعثيين في هذا الاجتماع المحدود مما دفعهم ليتراجعوا عن موقفهم.

الاجتماع الجماهيري الذي دعا له الإمام الحكيم في ٢٧ صفر في الصحن الحيدري

في اليوم الثاني نكث البعثيون هذا القرار، الأمر الذي أدّى إلى أن يتخذ الإمام الحكيم قراره بعقد اجتماعٍ موسع في الصحن الشريف في السابع والعشرين من شهر صفر، فملأت الجماهير الصحن الشريف

وخارجه، ولم أرَ طيلة تواجدي في النجف اجتماعاً بمثل هذه الكثافة والضخامة..وقد كان الاجتماع انطلاقةَ المواجهة مع حكم العفالقة بالعراق منذ مجيئهم حتى اليوم.

...وكُلّف الشهيد الصدر من قبل الإمام الحكيم أن يكتب البيان، ويحدد النقاط الرئيسية، ثم يعرضه عليه ليقرّه، ومن ثم يلقى باسم الإمام الحكيم، فكتبه الشهيد الصدر وراجَعه الإمام، وعدَّلُه من حيث المضمون، ثم قُرىءَ على الجماهير المجتمعة في الصحن الحيدري الشريف.

وقام الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم بقراءته على الجماهير المحتشدة في الصحن بمحضر الإمام الحكيم والإمام الخوئي والشهيد الصدر والعلماء.

النقاط الهامة في بيان الإمام الحكيم

وكان هذا البيان يُؤكد على عدّة نقاط:

النقطة الأولى: انَّ قضية العتبات المقدسة في العراق ليست مختصة بجماعة معينة من الناس أو بحكم مُعيّن، وإنما هي ملك لكل المسلمين، ولهم الحق في أن يزوروها ويرتادوها، ويُعبروا عن عواطفهم اتجاهها في كل وقت وزمان. ولا يحق لأي حكومة مهما كان وضعها أَنْ تمنع أي زائر من زيارتها، والعتبات المقدسة من هذا الجانب تشبه الحرمين الشريفين - الحرم المكي، والمسجد النبوي - فهما ملك لكل المسلمين أيضاً.

النقطة الثانية: هي قضية الحوزة العلمية، وأن النجف الأشرف

وكربلاء والكاظمين وسامراء التي هي مراكز الحوزات العلمية، يجب أنْ تبقى مفتوحة لكل الطلاب من أبناء العالم الإسلامي، مهما اختلفت جنسياتهم وبلادهم؛ لأنَّ العلم ليس ملكاً لأحد أو جماعة من الناس. ولابد أنْ تبقى هذهِ الحوزات العلمية مصدراً لهذا العلم وهذا التوجه.

والنقطة الثالثة: هي التعامل الشرس الذي يقوم به النظام تجاه أبناء الشعب العراقي المسلم.

النقطة الرابعة: - وهي القضية الأساسية - قضية النظام والتشريعات والقوانين غير الإسلامية، التي تُشرّع من أجلِ أن تحكم المسلمين.

هذهِ القضايا الأربع، كانت القضايا المركزية التي تحدث عنها البيان بشكلٍ قاطع، ووضح أنَّ الموقف سوف يستمر على أساس هذهِ القضايا المركزية.

المواجهة المكشوفة

دخلت المرجعية بعد هذا البيان في مواجهة مكشوفة وواضحة مع نظام العفالقة، وكان هناك رأيان في أوساط المرجعية الدينية:

الرأي الأول: يقول: إنّ المرجعية الدينية التي أعلنت عن موقفها وعرفت الجماهير المسلمة به لتكتف بهذا الإعلان، وتترك قضية النظام للجماهير، والأحداث التي قد تؤدي إلى تبديل النظام، كما حصل في مناسبات سابقة، وبالتالي فالمرجعية لا تحتاج أن تصعّد الموقف أكثر من هذا المستوى..

والرأي الثاني: يقول: لابدَّ للمرجعية الدينية من أن تواصل طريقها

في كل لحظةٍ، وتعبّرَ عن موقفها الرافض للنظام بأيِّ أسلوبٍ كان، والمهمُّ أن تشعر الجماهير أن المرجعية واقفةٌ موقف الرفض للنظام؛ من أجل أن يبقى التفاعل بين الجماهير والمرجعية مستمراً..

وهذا الرأي يستند إلى قضيةٍ أساسيةٍ هي: انَّ القيادةَ يجب عليها أن تحدد الموقف للجماهير، وأقلُّ ما يمكنٍ أن تعطيها هو أن هناك موقفاً رافضاً لهذا النظام، لتستمرَّ الجماهيرُ في رفضها للنظام ومواجهته.

هذان الرأيان طرحا على المركز الأعلى للمرجعية، والذي كان يتمثل بالإمام الحكيم، وقد جاءت مجموعة من جماعة العلماء في بغداد إلى النجف لمقابلة الإمام الحكيم، والتباحث معه في هذا الموضوع، واتخاذ الموقف المناسب تجاه النظام، وفي اليوم التالي جاء رد الإمام الحكيم كما يلي:

((إني صمّمتُ وقررت السفر إلى بغداد))، وكان السفر يعني الدخول في مواجهةٍ مكشوفةٍ مع حكومة بغداد العفلقية، حيث ستكون هناك زيارات شعبية..

وجرت تمهيدات لهذا السفر وإذا به - رضوان الله عليه - يصابُ بمرض الحمّى مما جعله يتردد في سفره؛ لأنَّه كان يقصد من سفره لقاءَ الجماهير ومخاطبَتَهُم، ثم تحسَّنت حالتُه نوعاً ما، فجاءَ القرار منه وقال:

((أنا أشعر أن سفري إلى بغداد هو كسفر الإمام الحسينعليه السلام إلى كربلاء وأنا أشعر بمسؤولية شرعية لابد من أن أتحملها)).

....لم تكن القضية قضيةَ مصالحٍ أو جاهٍ وسمعةٍ واستقبال، بل كان يريد أن يصوِّرَ - بعبارة مختصرة - الموقف بكامله، باعتبار أن الحضور

كانوا يفهمون ويدركون معنى سفر الحسين إلى كربلاء، وحتى إننا لّما اتّصلنا ببعض العلماء في بغداد وأخبرناهم بعزم السيد الحكيم على السفر استغربوا كثيراً؛ لأنه كان بالأمس مريضاً، وقد عدل رأيه عن السفر، وهكذا كان سفره، وتتابعت الأحداث حتى ذهب إلى لقاء ربه..

هل كان موقف الإمام الحكيم حسنياً أم حسينياً؟!

وهناك يسألني بأن موقف الإمام الحكيم هل هو موقف حسيني أو حسني؟

وهذا لا معنى له؛ لأن الأئمة من نور واحد وموقفهم واحد، فالإمام يجب أن يطاع، سواء قال: قوموا، فيجب أن نقوم، أم قال: اقعدوا، فيجب أن نقعد.

فالقضية ليست هي موقف الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام، وإلّا إذا كان موقف الإمام الحكيم موقفاً حسنياً - وهو حسني في النسب - فلماذا يقول: إن خروجي إلى بغداد يشبه خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء؟ بل القضية هي تشخيص الظروف، فهو يرى هذه الرؤية عندما خرج إلى بغداد، ووصف هذا الوصف، وكان يعرف بأنَّ نظام البعث عدواني لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يتعايش مع الشعب العراقي، مهما كانت طوائف هذا الشعب، ومهما كانت قومياته ومذاهبه وانتماءات.

إذن، كانت الحوزة العلمية - لما تملك من حساسية عالية جداً، وفهمٍ عالٍ للإسلام وحقائقه - مدركة منذ اليوم الأول هذه الحقيقة، والتقطتها كما تلتقط الأجهزة الدقيقة بعض الأشياء المخفيَّة، كالأصوات المنتشرة في

الفضاء التي لا يسمعها الكثير منّا.

فكانت الحوزة العلمية في بداية المواجهة، ولكن بعد ذلك بدأت الأصناف والجماعات الأخرى - واحدةً بعد الأخرى - تتحسس هذه الحقيقة وتدركها، ووجدنا أن الناس بدأوا يدخلون بالتدريج في هذه المواجهات.

والسؤال الآخر في هذا المجال هو: انّ الإمام الحكيم - الذي كان مرجعاً عظيماً من مراجع الإسلام، وكان هناك رجوع عام له في العراق وفي مختلف مناطق العالم الإسلامي - لماذا لم يدخل في مواجهة مسلحة مع النظام؟.

إنّ الإمام الحكيم دخل في مواجهة، لكنها لم تصل إلى السلاح والقتال. فلماذا لم يعلن الجهاد في مقابل النظام، ويدخل في هذه المواجهة؟ هل إنّ المشكلة كانت مشكلة الإمام الحكيم؟ وهل كان رأيه حسنياً، كما يحاول بعض الناس أن يصفه بذلك؟ أي: أن عدم الدخول في المواجهة يُعدّ رأياً حسنياً؛ لأن الحسن عليه السلام بنى على الهدنة، أم أنه لم يدخل فيها لظروف أخرى ترتبط بالأمة والشعب؟ وأشير إشارة مختصرة إلى مضمون الجواب.

الإمام الحكيم كان يعتقد بضرورة المواجهة وأهميتها، لكنه يرى من خلال التجربة لامن خلال التحليل السياسي، بأن يجلس الإنسان في غرفته وراء الكتاب، ويحلل ويسمع الأخبار من بعيد، ويصل إلى رؤية، وإنْ كان في كثير من الأحيان يمكن للإنسان أن يصل لرؤية صحيحة بذلك، لكن ما وصل إليه الإمام الحكيم كان من خلال تجربته التي

خاضها مع النظام، وحاول أن يحرِّكَ هؤلاء الناس، وهيّأ كل الوسائل للتحريك، لكنهم لم يتحركوا لسببٍ من الأسباب كما صنع الإمام الحسين عليه السلام ذلك. وذكَرَت بعضُ النصوص التأريخية أنَّه عليه السلام لو تُرك كان من الممكن أن لايدخل في مواجهة، ولكن أُريد منه أن يذهب أسيراً بيد عبيد الله بن زياد، ويُسلّم إلى يزيد بن معاوية فلم يقبل بذلك. كما صُنع مع الإمام الحكيم - مثل ذلك - ورفض هذا الأمر.

وكانت ظروف النظام أضعف من أن يقوم بقتل الإمام الحكيم، فأبقى عليه محاصراً، وقد بدأ الإمام الحكيم بالمواجهة أوّلاً من خلال حركةٍ واسعةٍ أقامَ بها الحجَّة على أبناء الشعب العراقي جميعاً.

ولعدم وجود وسائل الإعلام والنشر والصحافة، ولوجود رقابة شديدة لاتسمح بانتشارها في الأسواق، انتهز الإمام الحكيم فرصة زيارة الأربعين في ذلك الوقت، والناس يأتون إلى كربلاء ليقيموا العزاء والمواكب، وحينها لم يبدأ النظام بمواجهة الشعائر الحسينية، كان يريد القضاء على المرجعية والقيادة، ثم يبدأ بعد ذلك بالشعائر، فالإمام الحكيم كان ذاهباً إلى كربلاء في زيارة الأربعين، وفي اليوم التاسع عشر من صفر أعلن احتجاجه على النظام تاركاً الزيارة أمام كل الزائرين الذين جاءوا من كل أطراف العراق، ورجع إلى النجف الأشرف، ثم جمع كُلَّ العلماء الموجودين فيها، وتحدَّث معهم في هذا الأمر، وبهذا أقام الحجة على الحوزة العلمية والعلماء، ثم لم يكتفِ بذلك حتى عقد ذلك الاجتماع الذي لا أعرف له نظيراً في ذلك الوقت في الصحن الحيدري الشريف في السابع والعشرين من صفر،

عندما كان الناس يأتون لزيارة الإمام علي عليه السلام بمناسبة وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وهو اجتماع عظيم جداً ودعا له العشائر العراقية الموجودة في منطقة الفرات الأوسط، وجاؤوا بمندوبيهم إلى الاجتماع، فبيّن رأيه وموقفه من النظام، والكلمة مطبوعة وموجودة يمكن مراجعتها، ألقاها نجله العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم من على المنبر، وكتبت بخط آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ورآها الإمام الحكيم وأبدى نظره فيها - كما أسلفنا - ثم لم يكتفِ بذلك من أجل إعلان موقفه وبيانه وتهيئة الناس وإعدادها لما جرى في داخل العراق حتى حمل نفسه إلى بغداد، وهو مريض في ذلك الوقت.

وصول الإمام الحكيم إلى بغداد

عندما أراد أن يتحرك إلى بغداد - وكنت أنا بخدمته ومجموعة من العلماء - قال: (إني الآن في حالة من المرض فينبغي أن أجلس في بيتي ولا أتحرك، ولكن أرى ذهابي إلى بغداد وسفري إليها كسفر الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة)؛ لأنه يعرف أن وراءه مخاطر وأذى ومحنة، ويعرف ما جرى للإمام الحسين، واحتمال التخاذل عنه وعن موقفه، حمل نفسه إلى بغداد وجلس يستقبل الناس والوفود. فلماذا جاء إلى بغداد؟.

كلُّ الناس يعرفون أنه جاء محتجاً على النظام الظالم؛ لأنه كان يقوم بحملة من الاعتقالات والتعذيب والمطاردة للناس. وبعد ذلك - والناس على مشهدٍ منه - شاهدوا كيف هوجم ابنُ الإمام الحكيم، واتهم بتلك

التهمة (الباطلة - الصحيحة)، الباطلة في ادعاء أن له ارتباط بالخارج، الصحيحة بأنه كان يدافع عن الأخوة الأكراد في منطقة كردستان، وقد كنا ندافع، والإمام الحكيم ما كان يخفي هذا الأمر، ولكن هل كان يدافع عن الأمريكان والإسرائيليين؟ ولا زال النظام يتحدث بمثل هذا الحديث أحيانا، فاتَّهَمَ العلامة السيد محمد مهدي الحكيم[1] في الإذاعة والتلفزيون، فانقطع الناس عن زيارة الإمام الحكيم في بغداد في اليوم الثاني لهذه التهمة انقطاعاً مطلقاً، بعد أن كانت الوفود تتوافد بالمئات وبالآلاف فلم يأت احد، وبعدها قام النظام بحملة اعتقالات لمجموعة كبيرة من الرجال المهمين الذين كان لهم تأثير في الوضع الشعبي من قبيل العلامة الفقيد - الذي لا نعرف ظرفه ووضعه إلى الآن - السيد

---

(1) اعتدَت سلطة البعث على مرجعية الإمام الحكيم عام ١٩٦٩م أثناء زيارته لبغداد واجتماعه بالعلماء في الكاظمية، وفي نفس ليلة الاجتماع حيث داهموا بيته بعد منتصف الليل بادعاء التفتيش، ومحاولة إلقاء القبض على ولده الحجة الشهيد محمد مهدي الحكيم (رحمه الله) وفتشوا البيت حتى غرفة الإمام الحكيم قدس سره بعدما عرضت على شاشات التلفزة العميد المتقاعد (مدحت الحاج سري) وهو يدلي باعترافات مفادها أن السيد مهدي الحكيم قد شارك في عدة اجتماعات هدفها قلب نظام الحكم بمساعدة الولايات المتحدة، وقد أخذ هذا الاعتراف من الأخير بالتهديد بالاعتداء على زوجته، إذ جاؤا بها أمامه وهددوه بها، وهذا الأمر مثبَّت في كتابةٍ كتَبَها بخط يده على نسخة من القران الكريم وأرسلها إلى أهله يقول فيها (إنَّ كل الذي قلته سواء ما يتعلق بشخصي أو ما يتعلق بالآخرين فانه لا واقع له)، ومضت عدة شهور على هذه الحالة والإمام الحكيم محتجب بداره في الكوفة احتجاجاً على هذا العدوان، وغيره من الأعمال الإجرامية بحق الإسلام، والحوزة العلمية والمؤمنين بشكل عام. وبقي السيد محمد مهدي مختفياً عن أعين السلطة طيلة ثلاثة شهور إلى أن تمكن من الخروج بسرية تامة من العراق..(**المؤلف**).

جعفر بحر العلوم[1]، والمرحوم البار السيد سعيد زيني، الذي كان أحد الأعلام والشخصيات في كربلاء، ومطاردة العلامة السيد مرتضى العسكري، الذي فر في اليوم الثاني، وخرج من العراق، والعلامة السيد محمد بحر العلوم، ومجموعة لا أحصيهم من هذه الشخصيات، ولم يحدث أي رد فعل رغم أن العلامة السيد جعفر بحر العلوم كان يعيش في منطقة عشائرية - وهي المشخاب - ومن العلماء الكبار الناجحين، وكان يتفاعل مع العشائر، وتخضع له، فيعتقل عالمهم دون أن ينبس أحد ببنت بشفة، وهذه الأمور يراها الإمام الحكيم أمامه.

ثم بعد ذلك حمل نفسه صبراً وجاء إلى النجف، واحتجب بالكوفة، فجاء الطلبة المؤمنون - وأكثرهم كانوا من المهاجرين من العراقيين والأفغانيين والباكستانيين واللبنانيين وأبناء الخليج - من أجل أن يزوروا الإمام الحكيم ويكسروا الحصار عنه، فمنعوا من ركوب السيارات وأصدر النظام الأمر أن لا يُحمل أحد منهم، فذهبوا مشياً على الأقدام وحوصروا في مسجد الكوفة وضُربوا واعتُقلوا وعُذِّبوا.

ثم في اليوم الثاني لم يمتنعوا فخرجوا مرة ثانية، ويا للمصيبة كان النظام يضربهم من ناحية، والأوباش والأراذل من ناحية أخرى، ممن كان يسكن النجف الأشرف من أصحاب الأحقاد، من أولئك الشيوعيين واليساريين والفلانيين، ولا أريد ذكر عناوين - لظروف معينة نعيشها لا نريد الدخول في مواجهات - ففي انتفاضة صفر كان موقف الحزب الشيوعي بجانب

---

(1) والان وبعد سقوط البعث اتضح أن السيد جعفر بحر العلوم من الشهداء الذين ضرجوا بدمائهم.

النظام في قمع الحسينيين، وأبناء هؤلاء هم الذين يتصدون الآن لكثير من هذه المنشورات، والكلمات، والتهم، والشعر، والهتك، والسب، والشتم للمراجع والعلماء، إنها أحقاد بدرية كما يعبر في التأريخ الإسلامي، تلك الأحقاد التي انصبت على الحسين عليه السلام وعيالاته وقطّعت أوصاله، تلك الأحقاد الموروثة ممن هم جهلة أو مغرضون، فبعضهم يدير المعارك هنا وهناك في مقالات وفي أساليب ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً**﴾[1].

ومن هؤلاء الذين أوذوا الشيخ (حسين بشيري) والشيخ (محمد جعفر شمس الدين)، وغيرهم ممن كانوا يعيشون القضية، ضربوا ولم يقم أحد بشيء. وأراد الشاه أن يمارس الضغط على النظام من أجل أن يتاجر بهذه القضية، وأعلن في يوم من الأيام في إذاعة الأهواز: ان الإمام الحكيم قطع عنه الماء والكهرباء وحوصر حصاراً كاملا، فماذا كان رد الفعل في كل العراق؟.

لم يكن هناك رد فعل في العراق كله - وأنا كنت موجوداً مع الإمام الحكيم منذ اللحظة الأولى وحتى دفنه فقد وسّدته بيدي - فلم يكن شيء من رد الفعل إلّا في السماوة، حيث حدث تحسس، واجتمع بعض الأشخاص، وكان هناك مسؤول البعث - أيضا - وهو من عائلة من العوائل الفلانية اجتمع بهم، وقال: هذا العمل ليس صحيحاً، إنما نبعث شخصاً للإمام الحكيم، ولانقوم بتظاهرات واجتماعات وتهديدات إطلاقا، فجاء شخص يسأل عن هذا الموضوع فقط، وأجبته بجواب يفهمه كل

(١) البقرة: ١٠

إنسان، وذلك لأرى ماذا يمكن أن يصنع هؤلاء، وكان الجواب به تورية، وتحدثت معه عن المحاصرة والأذية التي تعرض لها السيد، فذهب ولم يأت هو أو غيره إطلاقا.

ثم بقي الإمام الحكيم طيلة المدة الباقية[١]ينزل أسبوعياً لزيارة الحرم الشريف، ويدعو هناك بدعاء الفرج، لعل الناس يتحركون بعض الشيء، فلم يتحرك أحد، وهذه المدة سنة تقريباً، وكان من يستقبله في الصحن الشريف هم أولئك الذين يستقبلونه في الأسبوع الماضي، وهكذا بقي الحال سواء كانوا ثلاثين أم مئة أم مئتين، هذا هو العدد المحدود من الناس.

أ س با ب ا ل ت قا ع س

أما لماذا كان الوضع بهذا الشكل؟ وهل هذا هو الشعب العراقي الأبي الذي نتحدث عنه؟!

قد يقول قائل: هذا الشعب البطل المغوار الذي له تاريخ وهذا كله صحيح ولامبالغة فيه، ولكن كان الخوف قد ملك الناس، والخوف سياسة تبعها النظام ولا زال يتبعها[٢]، وكل هذه التضحيات والآلام

---

(١) هناك خصوصيات أخرى يأتي شرحها يوماً ما؛ لأنها قد تؤول أو تفسّر الآن بغير الصحيح. فأتركها إلى محلها..(**المؤلف**).

(2) كثير من القضايا قد تكون صحيحة كطلب العلم والشعر والأدب والتأليف والتحقيق وغيرها، فأنا لا أريد أن ألغي هذه القضايا، بل هي أمور صحيحة، لكن عندما نريد أن نتصدى إلى العمل يجب أن نركز على الأوليات والقضايا الأساسية الرئيسية ولاننشغل بالمعارك الجانبية والأقاويل، فأحياناً تُقرن بالأحقاد والتزوير خداعاً وتضليلا وافتراءً⬅

والمحن وهذا الصبر والصمود من أجل أن نكسر حاجز الخوف، فإذا سقط عندئذ يأتي اليوم الذي ينتهي فيه النظام.

إصرار الإمام الحكيم على المواجهة

وهناك ملاحظة يجب أن نلتفت إليها، وهي: ان الإمام الحكيم بقي مُصِرّاً على مقاطعة النظام، وإعلان الاحتجاج، فعند موت أحد أعضاء قيادة حزب البعث حضر صدام إلى النجف لتشييعه، وطلب بواسطة المرحوم الكليدار - السيد حسن الرفيعي - أن يأتي لزيارة الإمام الحكيم وقال: أنا مستعد لحل المشكلات، وكان يتصور أنها

➡وكذباً، فعلينا أن لا نتحول عن معاركنا إلى معارك جانبية ونترك الأمور التي أدت بنا إلى هذه الآلام والمأساة، وهي محاربة النظام لنا بسلاح الخوف والقمع. يجب التركيز عليها والمطالبة بها وكسر الحاجز والتعبئة لأجل المواجهة. وأما الكلام على العلماء والمراجع – المرجعية والحوزة العلمية والشهداء والمجاهدين – والطعن دون توقف فهذا أترك الحكم فيه إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى أهل العقل والحكمة والرشد، ولا أصدر أحكاما في هذا الموضوع، ولكن أنتم انظروا إلى هذه الحقيقة، فمواجهة مثل هذا النظام المجرم المعادي للإسلام وأهل البيت(عليهم السلام) والشعب بأساليبه المعروفة من أجل أن يبقى على الكرسي توجب علينا أن نحسب حساباً لهذه الأمور، ولذلك عندما سألت الإمام الحكيم – شهادةً لله وللتاريخ – لماذا لايتم الحكم بالجهاد؟ قال: لو كنت أشعر أنّ الشعب العراقي يستجيب لذلك الحكم كنت أفتي بالجهاد إن شاء الله، لكن أنا أفتي بالجهاد فتخرج مجموعة من الناس المؤمنين الطيبين فيقضي عليهم النظام. هذا جواب عن تجربة وتحليل وبه خطوات واحدة بعد الأخرى، فهو مرجع متصد قائدٌ يرى الناس ملكهم الخوف، وقتل مجموعة منهم سوف لا ينتهي إلّا لاستئصال للبقية الباقية من المؤمنين، فرأى الإمام الحكيم كقائد يدير هذه العملية أن يحافظ على البقية الباقية في هذه المرحلة. وهذه حقيقة كان يراها عن تجربته في عدم تحرك الناس..(**المؤلف**).

شخصية لمساس بكرامة الإمام الحكيم فيعظمه ويجلله، والإمام الحكيم رفض وقال: أنا لا أوافق إلّا أن يتراجعوا عن موقفهم تجاه قضية الإسلام والشعب، فإذا أعلنوا التراجع فأنا مستعد أن أبدأ، أما بدون ذلك فغير ممكن إطلاقا. ولم يستقبله، وبقي الإمام الحكيم على هذا الموقف الرافض والقطيعة مع النظام، وهو الموقف الشرعي الصحيح الذي انتهى أليه أولئك الذين كانوا يحدثون أنفسهم أحيانا: بأنه من خلال العلاقات مع النظام يمكن أن نتحرك ببعض الأعمال والقضايا، وكانوا يتصورون مثل ذلك، لكن انتهوا إلى نفس هذه النتيجة في مستقبل أمورهم؛ لأن النظام لايعرف إلّا هذهِ الأهداف.

ومن يكون مخلصاً سوف يرى أمامه هذه الحقيقة - عاجلا أم آجلا - كما رأى الإمام الحكيم ذلك منذ البداية، وبقي الشهيد الصدر بعد الإمام الحكيم عشرة سنوات لم يتحرك في مقابل النظام، وهذا الشهيد - قدس سره - لانشكُّ في تصدّيه، لكنَّه بقيَ كجدِّه الحسين عليه السلام عشرة سنوات بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام لم يتصد، لكن عندما جاءت الفرصة المناسبة بهذه الثورة العظيمة التي قامت في إيران، ووجود هذا الشعور والاندفاع والزخم العظيم في الأمة الإسلامية، وفي الشعب العراقي بصورة عامة، بدأ الشعب بالتحرك لوجود القاعدة الإسلامية، كالجمهورية الإسلامية وكان هذا شرطاً ضرورياً ومهماً في مثل هذه الحركة، لذلك تحرك الشهيد الصدر قدس سره من هذه الرؤية والمنظور وبهذا الفهم، وبهذه النصوص كان يتحدث وبهذا المنطق: (الآن عندنا فرصة يجب أن نستفيد منها وأن نبدأ بالحركة؛ لأنه توجد هناك قاعدة حتى لو

استشهدنا فهناك قاعدة يمكن من خلالها مواصلة العملية حتى نهايتها والأمور بيد الله سبحانه وتعالى) فهذه الحقيقة يجب أن نفهمها في تحليلنا للأوضاع العامة والوضع السياسي.

تصدي الإمام الحكيم للقضية الطائفية

مما تميزت به مرحلة المرجعية الدينية للإمام الحكيم هو موضوع الطائفية، أو ما يسمى بموضوع الوحدة الإسلامية. وكذلك يمكن التعبير عنه حسب منهج الإمام الحكيم بموضوع حقوق الشيعة في العراق.

وهذا الموضوع من الموضوعات الحية، حيث إننا نواجهه في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، سواء كان في بعده الطائفي أم في بعده الوحدوي، الذي له علاقة بموضوع الوحدة الإسلامية، وبطريقة تعبئة الأمة الإسلامية كأمة واحدة في مواجهة أعدائها. حيث إن هذه الأمة تواجه هجوماً عنيفاً من قبل الأعداء في مختلف مجالاتها الثقافية والفكرية والسياسية، مضافاً إلى التهديد العسكري الذي لازالت تواجهه هذه الأمة.

إذن، فقضية الوحدة الإسلامية التي نتحدث عنها هي من القضايا القائمة والمتحركة في العراق والبحرين، والمملكة العربية السعودية، وفي مناطق مختلفة في عالمنا الإسلامي، وحتى في تركيا طُرحت هذه القضية بشكل واضح من خلال ما يتعرض له الشيعة هناك، سواء منهم العلويون، أم البكتاشيون، أم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية الذين يرجعون بالتقليد إلى المراجع والعلماء.

وكذلك طُرحت هذه القضية - بشكل محدود - في أفريقيا، وخصوصاً المناطق العربية منها، حيث يواجه الشيعة حملة اضطهاد وحرباً شعواء

على مستويات مختلفه، وهم يطالبون بحقوقهم الطبيعية.

إذن، فهذا الموضوع من المواضيع الحية. ومن جملة القضايا الرئيسة التي تميزت بها مرجعية الإمام الحكيمقدس سره الاهتمام بمعالجة هذا الموضوع.

ولكي تتضح أهمية هذا الأمر نشير إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: إن بعض الأطراف في حركتنا الإسلامية لديها تحفظات كبيرة من قضية طرح موضوع حقوق الشيعة سواء في العراق، أم في أية منطقة أخرى.

وعندما أقول: الحركة الإسلامية أقصد الحركة الإسلامية[1] التي تعيش في وسط شيعة أهل البيتعليهم السلام وأتباعهم، وأما الحركة الإسلامية التي تعيش في الأوساط الأخرى فموقفها ليس موقف التحفظ، وإنما موقف العداء الكامل لهذا الموضوع.

الأمر الثاني: إنّ هذا الموضوع من الموضوعات التي تمَّ بحثها بشكل واسع ودقيق في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق؛ من أجل بلورة موقف واضح، ومن هنا يمكن أن نعرف أهمية مرجعية الإمام الحكيم التي كان لها موقف في هذا الموضوع، حيث طُرح هذا الموضوع في أوائل عقد الخمسينات الميلادية، ثم أصبح حالة سياسية في عقد الستينات.

وكان الإمام الحكيم يرى: انَّ مسألة المطالبة بحقوق الشيعة، ومعالجة الحالة الطائفية قضية رئيسية ومهمة، لابد للمسلمين أن يهتموا بها،

---

(1) فيما يتعلق بموضوع الطائفية، فمع الأسف نجد أن الحركة الإسلامية تخلت عن هذا الموضوع لربع قرن من الزمن – على أقل تقدير– ولا زالت الآن تراوح ولا تعرف كيف ترسم سياستها فيما يتعلق بهذه النقطة..**(المؤلف)**.

وكذلك قضية الوحدة الإسلامية، لكي يتمكن المسلمون من مواجهة أعدائهم من ناحية، وبناء ذواتهم بناءً قوياً ومحكماً من ناحيةٍ أخرى.

ومن هنا يُطرَحُ هذا السؤال: ما هو الخط الفكري الذي كان يلتزم به الإمام الحكيم؟ وما هو المنهج السياسي الذي يعتمد عليه؟

وللإجابة على هذا السؤال أشير إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: لابد أن تكون قضية التولي لأهل البيت عليهم السلام حقاً طبيعياً لشيعة أهل البيت عليهم السلام يمارسه الفرد المؤمن في المجتمع، وله الحق في التعبير عن هويته وأحاسيسه ومشاعره، ومن هنا نرى: انَّ هذه المرجعية اهتمَّت بهذا الأمر، فالإمامُ الحكيمُ كان يرى: انَّ هذه الممارسة كما يمكن أن تتم من خلال بناء العتبات المقدسة - التي قد يمارسها الحاكم أيضا - يمكن أن تتم من خلال زيارة العتبات المقدسة، وقد يقوم البعض - كما فعل الشاه محمد رضا - ببناء العتبات وجَعلِها جميلةً شبيهةً بالمناطق الأثرية القديمة، لكي يقصدها الزوار والسياح من كل مكان، الكفار وغيرهم، ومن ثم يأخذ الأجور على دخولها.

وقد رأى الإمام الحكيم أنَّ احترام العتبات المقدسة وزيارتها، وإقامة الشعائر الدينية، يُعبّر عن مضمون هذه العتبات المقدسة، وعن مضمون أهل البيت عليهم السلام فكان يحرص على إقامة هذه الشعائر والمهرجانات والخطابات في المناسبات العامة؛ لأجل تثقيف الأمة، ولم يكتفِ بذلك، بل كان يرى أن قضية الولاء لأهل البيت عليهم السلام لابدَّ أن تدخل بيت كلِّ شيعيٍّ من خلال الوسائل العامة، التي يملكها الناس، فمن حق السني والشيعي الحصول على هذه المعلومات عن طريق الوسائل العامة.

ولذلك طالب الإمام الحكيم أن تدخل هذه القضية في المناهج الدراسية، والراديو والتلفزيون والصحافة؛ لأنها حق من الحقوق الطبيعية للناس.

ومن الأمور التي تميز بها الإمام الحكيم تأسيس المكتبات في مختلف أنحاء العراق، وذلك ليتم التعبير عن الولاء لأهل البيت عليهم السلام والارتباط بهم ارتباطاً حقيقياً وثيقاً، وقائماً على أساس الفهم والإدراك.

وكانت هناك مناطق في العراق ترتبط بأهل البيت عليهم السلام ارتباطاً نسبياً، دون أن يكون هناك أيٌّ تعبيرٍ عن هذا الارتباط حتى في أوضح الأمور، كالمساجد أو الاجتماعات التي تُعقد أيام محرم وصفر، ومن خلال مرجعية الإمام الحكيم حدث تطورٌ كبيرٌ على المستوى الديني والثقافي والعشائري، وحصل هناك تعبير حقيقي في هذا المجال.

ولأجل تقديم الصورة الصحيحة لهذا التعبير شارك الإمام الحكيم شخصياً - وكذلك جهازُه المرتبطُ به - في هذه الشعائر، لكي تكون القضية واضحة، وجزءاً من الحياة.

ولم يسبق للمراجع السابقين أن يبعثوا وفوداً للمشاركة في هذه الشعائر، لكن الإمام الحكيم كان يبعث آية الله السيد محمد سعيد الحكيم- رحمه الله - وهو ابن عم المرحوم الإمام الحكيم، وأكبر منه سناً، وهو من العلماء الأعلام، وقد شارك أيضاً في مواجهة الغزو الانكليزي - وهو أكبر شخص في الجهاز المرجعي للإمام الحكيم - ممثلاً عنه لحضور بعض المواكب، وأنا كنت أحضر هذه المجالس وأشارك فيها بالخطابة وغيرها.

فقضية الارتباط بأهل البيت عليهم السلام تُعبّر عن الهوية تعبيراً صحيحاً منطقياً

عقلياً مرتبطاً بالمشاعر والأحاسيس الصحيحة، وهي قضية مهمة جداً مرتبطة بقضية المطالبة بالحقوق العامة للشيعة.

الصيغة الصحيحة للمطالبة بحقوق الشيعة

الأمر الثاني: لابد أن تأخذ الحقوق العامة صيغاً واضحة ومعينة في حياة الأمة، وكان الإمام الحكيم يرى أن هناك خللا في مواقع ثلاثة، في مجمل الأوضاع العامة للأمة:

هوية المواطنة

الموقع الأول: فالأمة في العراق أمة مختلفة، ففيها الشيعة والسنة، والمسيحيون، وكذلك بالنسبة للقوميات، ففيها العرب والأكراد والتركمان، وأقليات أخرى، وقد دخل التشيع إلى العراق منذ دخول الإسلام إليه، فهو يمثل أصلاً في مجمل الأوضاع العراقية، وهذه مدرسة الكوفة مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومراقد أهل البيت عليهم السلام، ووجود الولاة الأوائل كحذيفة بن اليمان أول وال للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وهو يعتبر من أكابر وأعلام شيعة أهل البيت عليهم السلام ثم جاء بعده سلمان الفارسي، ومن ورائه عمار بن ياسر، إلى غير ذلك.

فالتشيع ليس أمراً غريباً أو جديداً في هذا البلد، ومع ذلك فهناك مسألة تُثار وهي أنَّ هؤلاء الشيعة ليسوا من العراق، وإنما جاؤوا من خارجه، وقد جاءَت هذه التهمة من النواصب، وأعداء الشيعة، والحاقدين عليهم، ومن قبل العملاء المرتبطين بالاستعمار.

وملاحقةُ الشيعيِّ في العراق قائمةٌ على قدم وساق إلى يومنا الحاضر، وهناك مئات الآلاف من العراقيين هجروا وأخرجوا من

ديارهم ظلماً وقهراً وعدواناً، سواء من العرب أم الأكراد، تحت شعار أن هؤلاء من أصول فارسية.

فإذا كان الكلام في الأصول فلماذا لا يُبحَثُ عن الأصول التركية والأرمنية؟ فتركيا وإيران كانتا تتبادلان احتلالَ العراق، ولم تكن للعراق هويةٌ سياسية، فلماذا لا يُخرَجُ من العراق من كان منتسباً إلى تركيا، أو إلى أفغانستان؟ لماذا يُخرَجُ الإيراني ويستثنى الأرمَني؟ وهل الأرمَن أحق بالعراق من الشيعة؟!!!

فالقضيةُ إذن موجَّهَةٌ إلى طائفةٍ معينةٍ، ومن هنا تحدَّثَ الإمام الحكيم عن قضية الهوية، واعتبرها من المسائل المهمة الرئيسية، التي لابُد أن نعرفها في قضية حقوق الشيعة.

فمثلا عندما يتحدث أبناءُ البحرين عن قضيةٍ ذات علاقةٍ بدستورٍ معترَفٍ به من قبل الدولة يُتهمون بأنهم حركة من وراء الحدود؛ لأن الشيعة في البحرين يشكلون نسبة خمس وتسعين بالمئة، ثم حصلت عملية تغيير الوضع الإنساني والجغرافي فنزلت النسبة إلى خمس وثمانين بالمئة، وقد تنزل أكثر.

فعندما يطالبون بحقهم يُتهَمون بأنهم حركةٌ من وراء الحدود، ويلقون التبعة على إيران؛ لأنَّ أكثر شعبها شيعة، وهذا معناه الطعنُ بالهوية، وكأنَّ هؤلاء الناس لاينطلقون من مصالح ترتبط بأمتهم وشعبهم، وإنما ترتبط هذه المصالح بالخارج.

وما قضية الجنسية التي وضعها الاستعمار البريطاني إلا لأجل تمزيق الشعب العراقي وتفريقه إلى جماعتين، إحداهما مطعونة في هويتها،

والأخرى مضمونة الهوية، وبالتالي يبقى الصراع مستمراً.

وقد ركَّز الإمام الحكيم على هذه القضية تركيزاً كبيراً، ففي لقائه المعروف مع (طاهر يحيى) قال: أنا لا أقبل الحالة الطائفية في العراق، فإذا جاء شيعي ظالم فأنا أحاربه، وإذا جاء سني عادل أقبله وأؤيده، أنا لا أقبل أن يدخل العراقي إلى دائرة ما فيسأل عن اسمه، فإذا قال: اسمي عبد الحسين يُطرَد، لمجرد أنَّ هذا الاسم يعبِّرُ عن هويةٍ معيَّنةٍ، ولكن إذا كان اسمه اسماً آخر يُستقبَل وتُقضى حاجتُه.

الحضور السياسي للأمة

الموقع الثاني: قضية الحكم والحضور السياسي للأمة، ولقد اهتم الإمام الحكيم بهذه القضية، فإذا أريد للحكم أن يكون صحيحاً فلابد أن ينبثق من الأمة، ومن حاجاتها ومصالحها وأهدافها، فيجب أن يكون لهذه الأمة حضور في هذا الحكم.

وأما إذا تحكّم فردٌ أو حزبٌ أو طائفةٌ أو مدينةٌ فسوف يكون الحكمُ حكماً قمعياً ظالماً، وهذا ما حدث في العراق.

وعندما نتحدث عن حضور الأمة في الحكم لا نتحدث عنه بالمفاهيم الغربية؛ لأن مسألة حكم الأكثرية مرفوضة، فنحن لا نقول: إذا كانت الأكثرية شيعية فالحكم لها. نحن نقول: إن هؤلاء المواطنين كلهم عراقيون، فلابدَّ أن يكون لهم حضورٌ في الحكم.

وعلى مرِّ التأريخ رأينا الطغاة يسمون الأشياء بنقائضها، فالحكم الذي يكون تابعاً للاستعمار يسمونه حكماً وطنياً، والحكم الذي يكون وطنياً والذي يدافع عن مصالح الإسلام والمسلمين يسمونه

حكماً خارجياً وأجنبياً.

ومنذ اليوم الأول لمجيء الحكم الوطني إلى العراق فإن السياسات الطائفية تحكمه على اختلاف في درجات الشدة والضعف.

نلاحظ أنَّ الوزراء والمحافظين فيه - وكانوا يسمون المتصرفين سابقاً - وقوى الأمن الداخلي والجيش والمواقع الحساسة في الدولة، لا تشكل نسبة الشيعة في هذه المواقع - على أفضل تقدير - تمثل السدس أو الخمس.

وعندما كانت المحافظات أربع عشرة كان عدد المتصرفين الشيعة اثنين أو ثلاثة، وكذلك الوزارات - التي كانت تصل إلى أربع وعشرين وزارة - لايتجاوز عدد الوزراء الشيعة الأربعة أشخاص. وهكذا في قوى الأمن الداخلي والجيش والبعثات الخارجية، وقد يحدث أن تكون وزارة كاملة لايوجد فيها أي حضور شيعي، والقضية ليست قضية مناصب ومواقع، وإنما تنعكس الحالة السياسية على كل الأوضاع الأخرى للناس.

قضية الشعائر الحسينية

الموقع الثالث: لقد اهتم الإمام الحكيم بهذه القضية، فلماذا يُحارَبُ شيعةُ أهل البيتعليهم السلام في أخصِّ شعائرهم الدينية وأبسطها، وحتى الدول القمعية - التي تطارد كل إنسان في حياته - لم تتصرف بهذه الطريقة.

فقضية الشعائر إذن من القضايا المهمة التي تعبِّر عن وجود هذه الجماعة، ولقد طرح الإمام الحكيم هذه المواضيع الثلاثة، وبيّنها بشكل واضح - وما أقوله هو في مقابل دعاة الوحدة الإسلامية الذين يتوقفون في هذا الموضع خوفاً على الوحدة الإسلامية - وتمكَّن بسياسته وحكمته

ورشده المرجعي أن يطرح هذا الموضوع بقوة، بحيث لم يخلُ احتفال، أو مذكرة أو لقاء سياسي يعقده الإمام الحكيم عن طرح هذا الموضوع؛ لأنه موضوع حياتي ورئيسي.

وكان- قدس سره - يعتقد أنَّ الأمةَ في العراق لا يمكن أن تتحول إلى أمة قوية ومستقرة ما لم تُعالج هذه القضية، وبالفعل وجدنا أنه كلما أهملَ الناسُ هذه القضية كلما ازدادت المحن والآلام، فشملت المحنة الأخضر واليابس، القريب والبعيد، وأصبح الجميع يحترقون بهذه المحنة والسياسات، وليس الشيعة وحدهم.

بين حقوق الشيعة والوحدة الإسلامية

قام الإمام الحكيم ضمن المطالبة بحقوق الشيعة بأمور ثلاثة، تمكَّن من خلالها أن يحفظ المواجهة والوحدة والاحترام الذي كان يحظى به، فمن خلال سياسته تمكن من حفظ الاحترام الذي كان يحظى به حتى لدى الأوساط التي كانت تعادي هذا النوع من التحرك، فضلا عن الأوساط السنية العامة، واقصد الأوساط العلمانية والمسيحية.

والأمور الثلاثة التي قام بها هي:

الأمر الأول: انطلق الإمام الحكيم في موضوع المطالبة من قضية العدل، دون التعصب لطائفة وجماعة في مقابل جماعة أخرى، فالقضية - إذن - تحكيم العدل، التي عبّر عنها: (إنه إذا جاء حاكم سني عادل فأنا أكون إلى جانبه وأؤيده، وإذا جاءكم شيعي ظالم فأنا أحاربه).

ولذلك عندما ظُلم الأكراد السنة - كما هو معروف أن الأكراد

فيهم سنة وشيعة، ولكن الأكثرية للسنة - وقف الإمام الحكيم من أجل نصرتهم؛ لأنهم مظلومون، ومحاربة الظلم قضية إنسانية وإسلامية وإلهية ورسالية، وحسينية وعلوية، وهي مرتبطة بعمق جذورنا.

ولذلك نرى أن إحدى القضايا الرئيسية التي رفعها أئمة أهل البيت عليهم السلام في وجه الحكام هي قضية العدل، وهي من القضايا المهمة. ومن خلال العمل المتواصل أصبح واضحاً أن الإمام الحكيم يدافع عن المظلومين، ويطالب بإحقاق الحق وإقامة العدل، من دون فرق بين جماعة وأخرى.

وقد دخل في مواجهة عسيرة مع الحكام أمثال عبد السلام عارف، وعبد الرحمن عارف، وكذلك مع البعثيين في أول مجيئهم، ثم توفي - أو استشهد - من أجل الدفاع عن الأكراد والسنة، ولا زال الأخوة الأكراد يعرفون هذه الحقيقة، ولأجل توضيح هذه الحقيقة أذكر مثالا واحداً.

عقد مؤتمر في أيام عبد السلام عارف حضره شيخ الأزهر، وكل العلماء البارزين في العراق من إخواننا السنة، وحاولوا أن يضغطوا على النجف لأجل حضور هذا المؤتمر، إلا أن الإمام الحكيم رفض الحضور - وقد حضر بعض العلماء العملاء، وهم قلة - وأصدر هذا المؤتمر قراراً بأن الأكراد بُغاة، والباغي يجب أن يُقتل.

ولم يكتفِ الإمام الحكيم بعدم الحضور، بل عقد اجتماعاً في يوم الأربعين في صحن الإمام الحسين عليه السلام، وفي مقبرة المرحوم آية الله العظمى الإمام محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين، ودعا له جميع العلماء الذين حضروا لهذه الزيارة - وكما هو معلوم فإن زيارة

الأربعين تكتضُّ بالعلماء من كل صوب - وفي هذا الاجتماع أعلن:

أوّلاً: رفضه لهذا المؤتمر.

ثانياً: بيّن أن الأخوة الأكراد مسلمون ولايجوز قتالهم، ودماؤهم لها حرمة، ويجب أن تُحل قضيتهم بالطرق السلمية، وليس عن طريق الإبادة والقتل والتدمير للبلاد والعباد.

وبعد ذلك أخذ يفتي كل من يستفتيه ممن يشترك في الجيش العراقي بحرمة قتال الأكراد، بحيث خلق تياراً واسعاً وكبيراً.

وكانت التهمة التي وجهها البعثيون للشهيد العلامة المرحوم السيد مهدي الحكيم هي التعاون مع ملاّ مصطفى البرزاني، وبعد هذه التهمة بأشهر أعلن النظام بيان الحادي عشر من آذار، وبموجبه اتفق مع ملاّ مصطفى البرزاني، لكن التهمة ظلت باقية على السيد مهدي الحكيم.

لقد وضع الإمام الحكيم وجوده من أجل نصرة هذه الجماعة، ولاتوجد هناك أية علاقة بينهم وبينه من قبيل التقليد، أو الحقوق أو الجوار، ولكن القضية قضية العدل، التي تعتبر من المسائل المهمة.

الأمر الثاني: قضية الوحدة الإسلامية، فالامام كان يظهر محبته وعطفه ورعايتهُ للسنة، مع المحافظة على عدم التنازل، حتى أنَّ كلمة (اشهد أن علياً ولي الله) ولدت مشكلة في العراق؛ بسبب إصرار الإمام الحكيم على وجوب ذكرها في الأذان، باعتبارها شعار الشيعة، فقد وقف الإمام الحكيم ذلك الموقف الصامد أمام الذين أرادوا أن يمسخوا هوية أبناء الشعب العراقي بإلغائها من الأذان.

صحيح أنها ليست جزءاً من الأذان، ويذكر العلماء في رسائلهم العملية: ان الإتيان بها بعنوان الجزئية بدعة في عبادة شرعية. ولكن أين هذا مما يقوم به أبناء الشعب العراقي، حيث يأتون بها شعاراً يعبر عن هويتهم وارتباطهم بأهل البيت عليهم السلام.

لذلك نجد أن الإمام الحكيم وقف أمام كل أولئك المتخرصين الذين لايفهمون الإسلام، ولايعرفون استنباط الأحكام الشرعية، والمهرِّجين الذين يعتقدون أنَّ طريقَ التأثيرِ على جماهير الأمة يكون من خلال الخطابات والأحاديث والإثارت.

والحوزة العلمية تستند في ثقافتها ومفاهيمها وشعاراتها إلى الاستنباط الشرعي الصحيح من الكتاب والسنة والدليل المنطقي الذي يوصلها إلى الحق.

لذا وقف الإمام الحكيم ذلك الموقف من التيار الذي حاول أن يهز العراق في هويته.

ومع هذا التشدد كان يرعى السنة لحفظ حقوق عموم المسلمين أمام أعدائهم، فعندما تعرض السنة إلى القتل والإبادة أيام الشيوعيين في الأعظمية والموصل وكركوك ومناطق أخرى يتواجدون فيها، أفتى الإمام الحكيم بكفر الشيوعية ووقف إلى جانب السنة لنصرتهم.

كما اهتم الإمام الحكيم بقضايا المسلمين الكبرى، فكلما توجد قضية مرتبطة بالمسلمين نراه يضع ثقله فيها، ويدافع عنها.

والإمام الحكيم أول عالم يصدر فتوى بشرعية العمليات الفدائية، وجواز صرف الزكاة لها. مع أن ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية كان في ذلك الوقت متهماً عندنا، والذي يرجع إلى فتوى

الإمام الحكيم يرى ذلك؛ لأن عرفات إنسان متخاذل.

وهذا يعني دخوله في المواجهة والصراع مع إسرائيل، وأن الجهاد والكفاح هو الذي يعالج هذه القضية، وقد وضع الإمام الحكيم هذا الأساس.

وهكذا في قضية التيار الإلحادي الشيوعي، حيث وقف في قباله، وأفتى فتواه المشهورة ضده، في ذلك الوقت الذي من يتحدث فيه يكون مهدداً بأن يسحب هو وأقرباؤه بالحبال في شوارع العراق، فعندما تصدر الفتوى في مثل هذه الظروف يكون لها تأثير وقيمة.

وقد تمكّن الإمام الحكيم - وهذا ما يعترف به الجميع - من تحطيم هذا التيار، الذي كان يشكل خطراً ثقافياً وفكرياً على كل الأمة في العراق، بل على كل الأمة الإسلامية، وقد كان لهذا التيار تأثير في باكستان؛ لأن التيار كان ناشطاً، وكان ذو الفقار بوتو[1] - والد بنظير بوتو - يتبنى هذا التيار بشكل واسع، وكانت له قاعدة شعبية واسعة في مناطق أخرى، ومع كل ذلك فقد تمكن الإمام الحكيم من تحطيم هذا التيار.

الأمر الثالث: كان الإمام الحكيم يتبنى الحركة الإسلامية العالمية، حتى لو كانت هذه الحركة، أو الحزب سنياً، وذكرنا أنه عندما أجاز عبد الكريم قاسم تأسيس الأحزاب، تقدم الحزب الإسلامي - وهو أول حزب إسلامي تأسس في العراق، والذي كان يرأسه في ذلك الوقت

---

(١) ذو الفقار علي بوتو رئيس وزراء باكستان الأسبق.

نعمان عبد الرزاق السامرائي - بطلب تأسيس حزب، وحصلت ضغوط كبيرة من القوة العلمانية الموجودة داخل العراق من أجل منع هذا الحزب وتحجيمه.

لكن الإمام الحكيم وقف إلى جانب هؤلاء، لا لأنه يعتقد بأن مفاهيم هذا الحزب وأفكاره صحيحة، بل لأنه حركة إسلامية في مقابل الأعداء، وتمكن من خلال هذا الموقف أن يشكل ضغطاً كبيراً، فاضطرت المحكمة العليا في ذلك الوقت بأن تصدر حكماً لصالح هذا الحزب في قبال عبد الكريم قاسم.

وهناك قضية أخرى أود الإشارة إليها ألا وهي قضية المرحوم سيد قطب - كان يتناول أهل البيت عليهم السلام في كتاباته بقسوة - باعتباره شخصية إسلامية في مصر، وقف في قبالها تيار علماني يقوده عبد الناصر.

وكان لعبد الناصر تأثير كبير في العالم الإسلامي، فضلا عن العالم العربي، لكن الإمام الحكيم وقف هذا الموقف، وكان لموقفه تأثير كبير، فأدى إلى تشنج العلاقة مع عبد الناصر؛ لأنَّ عبد الناصر ثمَّن موقف الإمام الحكيم ضد الشيوعية، فضغط على شيخ الأزهر محمد شلتوت، فأصدرَ فتواه المعروفة بجواز التعبُّد بمذهب أهل البيت عليهم السلام، واعتباره أحد المذاهب الإسلامية.

ومن يرجع للتأريخ يجد أن فتوى محمود شلتوت كأنها لعبد الناصر، تثميناً لموقف الإمام الحكيم في مقابل الشيوعية، وإلّا فقد كانت هناك مساعٍ كثيرة من قبل المرحوم آية الله العظمى البروجردي، وجماعة التقريب التي كانت موجودة في القاهرة من أجل إصدار مثل هذه

الفتوى، لكنها لم تفلح؛ لأن شيخ الأزهر يخضع للسياسات العامة للحكومة - كما نعرف - ولم تكن الحكومة توافق على هذا الموضوع لوجود مجابهة - آنذاك - بين عبد الناصر وشاه إيران. لكن موقف الإمام الحكيم من الشيوعية عدَّل من هذا الموقف، وجعل شيخ الأزهر يُصدر هذه الفتوى بتوجيه من عبد الناصر، وهذه الحقائق يعرفها الساسة المصريون، وهناك بعض الأسماء يمكن أن تُذكر في هذا المجال.

أما الموقف الثاني لعبد الناصر فكان إبان إعدام سيد قطب والهجمة على الحركة الإسلامية في مصر، فقد تشنجت الأوضاع مع عبد الناصر بسبب موقف الإمام الحكيم من ذلك. لكن القضية كانت قضية الإسلام، فهناك حزب إسلامي يُضطهَد ويُقمَع في بلد إسلامي مثل مصر. ولم يكن ذلك يرتبط بالإمام الحكيم شخصياً، فلا يوجد له مقلِّدون في مصر، ولا يرجو شيئاً من أحد هناك، بل قد تكون هناك مواقف غير حميدة من بعض هذه الشخصيات تجاه الشيعة والتشيع، لكن الإمام الحكيم كان ينطلق من منظار الإسلام. وله مثل هذا مواقف كثيرة.

وهذا الخط - وهو نصرة الحركة الإسلامية أينما كانت - أوضح أن المطالبة بالحقوق ليست مسألة طائفية، بمعنى تعصُّبِ جماعة في مقابل أخرى - وفي ذلك تمزيق للأمة - إنما كانت[1] تعني وحدة الأمة.

وبذلك استطاع الإمام الحكيم أن يؤثر حتى على المسيحيين في العراق؛ لأنهم كانوا يتعرضون أحياناً للظلم، وكان يطالب برفع الظلم

---

(١) أي مسألة المطالبة بالحقوق.

عنهم.

ويجب أن نفهم نحن اليوم هذا الجانب من السياسة؛ لأننا نطالب بحقوقنا، ويجب أن نطالب بها، ولايمكن أن يستقر الوضع لا في العراق ولا في غيره، دون أن يحصل الناس على حقوقهم المشروعة في هذا الوجود. ولكن علينا أن نطالب بحقوقنا ضمن روح الأخوّة والوحدة وعلاقات المحبة والتعاون والتناصر والتراحم للوصول إلى الأهداف المشتركة الكبيرة التي نسعى إليها ضمن هذا الإطار، لا في إطار تغليبِ أو تسليطِ جماعةٍ على جماعة وظُلمها لها، كما هو الحال في النَّفَس والعقلية الجاهلية، أو الحمية (على حد تعبير القرآن الكريم)[1].

إن الحمية والعصبية الجاهليه تلتزم جانباً ولا تبالي بأي جانب آخر، أما النظرية الإسلامية فتلتزم موقع الحق والعدل، وتهتم بالعلاقات الأخرى.

والإمام الحكيم طالب باعتراف الأخ بأخيه، لا إلغاء الآخرين، وهي سياسة عامة اتبعها في هذا الموضوع. لا كما تفعل بعض الوجودات الآن في العالم الإسلامي، التي تريد أن تحقق الوحدة من خلال إلغاء الآخرين وقمعهم وإبادتهم.

إنَّ مثل هذه الوحدة القائمة على إلغاء الطرف الآخر وإبادته قد تحصل، لكن وراءها ما وراءها من إسالة الدماء والاضطرابات

---

(١) قال تعالى: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ الفتح: ٢٦

والمشكلات وتمزق المجتمع، وتسلّط الأعداء علينا وضعفنا. ولذا وقع المسلمون الآن فيما وقعوا فيه من همينة أعدائهم عليهم.

أما عندما تكون الوحدة من خلال الاعتراف بالطرف الآخر والقبول به، والتفاهم على المشتركات والقضايا الرئيسية الواحدة فعندئذ يمكن أن تعبّر هذه الوحدة عن قوة.

ولا يراد من الوحدة أن يتحول السني إلى شيعي، أو الشيعي إلى سني، فذلك من القضايا الشخصية، فمن أراد المطالعة والبحث عن الحقيقة فهذا شأنه، اهتدى أو لم يهتد، وهذا بينه وبين ربه.

أما الأمر السياسي الذي نطالب به من خلال الوحدة هو: ان يكون هناك احترام واعتراف وقبول من كل طرف للطرف الآخر، والاشتراك في القضايا الرئيسية الواحدة التي تهم الجميع، وتحقق الأهداف الإسلامية الكبرى.

وهذا ما يمثل عنصراً مهماً جداً من عناصر مرجعية الإمام الحكيم[1]، وهو عنصر فريد، لأنَّ الإمام الحكيم - بحسب ظروفه السياسية - تمكَّن أن يعيش هذه الحالة. أما المراجع الآخرون فإمّا أنهم لم يعيشوا مثل تلك الظروف السياسية، وإمّا أنهم عاشوا في بلاد أخرى ليس فيها هذا النوع من المشكلات والصراعات. وقد تمكَّن الإمام الحكيم أن يقدِّمَ نموذجاً حياً واقعياً عملياً من خلال حركته.

---

(1) وأنا أدعو الحركة الإسلامية أن تهتدي بمنهج الإمام الحكيم وتلتزم به، وأن تطرح هذا الموضوع بقوة في هذا العصر، وإلّا فإن الفرصة تفوتهم، وسوف تستمر هذه الأوضاع الجهنمية المأساوية التي يعيشها العراق بسبب السياسات الطائفية الملعونة..(**المؤلف**).

نتائج الحركة السياسية للإمام الحكيم

بمراجعة تأريخية بسيطة يمكن أن ندرك أن أبناء الشعب العراقي الذين يشكل أكثريتهم الشيعة، والأكراد في العراق - حيث إننا إذا أردنا أن نأخذ نسبة الشيعة في العراق التي لاتقل عن ٧٠٪، ونسبة الأكراد التي تقرب من ٢٠٪ من أبناء الشعب العراقي - كانوا بعيدين في أيام الحكم العثماني عن مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية التي كان يعيشها العراق، وعندما جاء الانكليز في الغزو العسكري، وبعد ذلك من خلال الأنظمة العميلة التي نصبها على أبناء الشعب العراقي نجد أن هؤلاء يستفيدون - إلى أقصى الحدود - من هذه الأوضاع المختلفة التي كان يعيشها العراقيون، حيث يعمل الانگليز على ترسيخ الفاصل الموجود بين أبناء الشعب العراقي المسلم من ناحية، وبين التدخل في الأمور السياسية والاجتماعية وكل الأمور العامة التي تعنيهم من ناحية أخرى.

وهذه السياسة كانت انتقاماً من أبناء الشعب العراقي الذين قاوموا الانكليز عند دخولهم إلى العراق، حيث ان أبناء الشيعة هم الذين قاوموهم، بالرغم من أن الحكم العثماني كان سنياً، لكن علماء الشيعة في النجف الأشرف وجماهير الشعب الشيعية في العراق، مضافاً إلى جماهير الأكراد، هم الذين قاوموا الانكليز - لمدة ثلاث سنوات - طيلة الحرب العالمية الأولى، وبعد ذلك هم الذين خططوا للقيام بثورة العشرين، ومن هنا كانت السياسة الانكليزية أن يحكم العراق مجموعة من العملاء المأجورين الذين لاينتسبون إلى أبناء العراق، وكانت الخطة الانكليزية هي:

أولًا: فصل الدين عن السياسة حتى يبقى العلماء وجماهير الشيعة في معزل عن القضايا السياسية.

ثانياً: محاربة الثقافة الإسلامية، حيث نجد أن الكثير من مناطق العراق لايوجد فيها العلماء وطلبة العلوم الدينية.

وثالثاً: إيجاد الفوارق والنزاعات بين أبناء الشعب العراقي، من أجل تحكيم الحالة الطائفية بينهم.

كانت هذه مجمل السياسة الانكليزية التي نفذها العملاء في العراق.

ومرَّت أربعة عقود على المسلمين في العراق، وخصوصاً أتباع أهل البيت عليهم السلام كانوا يعيشون فيها عزلةً سياسية واجتماعية عن مجرى الأحداث والقضايا.

والإمام الحكيم يمثِّل أوّل مرجع عام - بعد انتكاسة المشروطة[١] وانتكاسة ثورة العشرين في العراق[٢] - يتصدى للأعمال السياسية،

---

(١) المشروطة: وهي الحركة التي أيدها الآخوند الخراساني (صاحب كفاية الأصول)، وتعني (الملكية المقيدة بالمجلس النيابي أو الملكية الدستورية) بهدف تحديد سلطات ملك إيران في ذلك الوقت. وبدأت حركة المشروطة في إيران من جراء حادثة بسيطة حدثت في عام ١٩٠٥م..**(المؤلف)**.

(2) فقد أصيبت المرجعية بانتكاسة على المستوى السياسي والروحي؛ بسبب الظروف التي حدثت بعد ثورة العشرين، وقيام ما يسمى بالحكم الوطني، وتسفير كبار العلماء إلى خارج العراق، فأدى ذلك إلى حصول انكماش وانعزال عن الأحداث السياسية. وقد انعكس هذا الأمر على الحوزة العلمية، والأجهزة المرتبطة بالمرجعية. في تلك الفترة – سابقاً – أخذ تعهد كتبي من المرجعية بعدم التدخل في القضايا السياسية، وذلك بعد انتكاسة ثورة العشرين وتسفير كبار المراجع – الذين كانوا يتواجدون في النجف – إلى إيران،⬅

➥وبقاؤهم هناك فترة من الزمن، فلم يسمح لهم بالرجوع إلاّ بعد تعهدهم بعدم الدخول في القضايا السياسية للأمة. إذن، فهؤلاء الذين قدّموا التعهد قد يكونون معذورين في تعهدهم هذا، وقد يكون هذا التعهد صورياً وشكلياً لمواجهة الأوضاع التي كانت موجودة في العراق، إلا أنه أصبح اعترافاً رسمياً منهم بأن الدخول في القضايا السياسية عملية غير صحيحة، وعلى خلاف هذا التعهد. ولذلك نجد أن العلماء الذين أخذ منهم هذا التعهد – وهم يمثلون المراجع في ذلك الوقت – لم يتدخلوا في القضايا السياسية، إلاّ بشكل محدود من أجل الإبقاء على تلك الصورة. من هنا كان على الإمام الحكيم أن يتحمل مسؤولية كسر هذا القرار، وإرجاع الأوضاع إلى طبيعتها، بحيث تمكن هذا المرجع أن يباشر العمل السياسي من موقعه كمرجع معترف بمرجعيته، لا من موقعه كعالم من العلماء لا يُعترف له بالمرجعية. وأن يحدث هذا النوع من التغيير في موضع المرجعية، فمن خلال مسيرة العمل والتحرك الذي قام به تمكن أن يفرض على السلطات الحاكمة في العراق الاعتراف بمرجعيته ووجودها السياسي، بحيث اضطر عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية إلى أن يكتب كتاباً إلى الإمام الحكيم يستنجد به فيما حدث في معارك ٥ حزيران سنة ١٩٦٧، عندما دخلت البلدان العربية المعركة مع إسرائيل. لأول مرة يصدر مثل هذا الالتماس، وكان رؤساء الوزراء أو رؤساء الجمهوريات يصرون على زيارة الإمام الحكيم، وليست هذه زيارة مجاملة أو احترام – كما يزورون المراقد المقدسة مجاملة – بل هي زيارة الدخول في أحاديث سياسية، الأمر الذي جعل المرجعية تأخذ هذا الموقع الذي لم تكن أخذته من قبل. وعندما أذكر هذه الحوادث، لا أريد الإشارة إلى ما يُسيء إلى مقام أي مرجع من المراجع العظام الذين سبقوا الإمام الحكيم، فكل هؤلاء كانت لديهم تضحيات، وأخص بالذكر آية الله العظمى السيد أبا الحسن الإصفهاني، الذي كان من المراجع الكبار، وكان مخلصاً للإسلام ومضحياً من أجله. ولقد تعرض لكثير من الأذى من أجل الإسلام، وواجهته ظروف صعبة جعلته ينكمش بدرجة جعلته غير قادر على ممارسة هذا الموقع. وقد تعرض السيد أبو الحسن الإصفهاني للتسفير، وهذا يكشف عن موقفه السياسي، وإلّا إذا لم يكن له موقف سياسي من النظام فلماذا يُسفّر؟.

وعندما توفي السيد أبو الحسن الإصفهاني جاء أحد أعضاء الحكومة لحضور الفاتحة، وكانت هذه القضية من القضايا الغريبة والعجيبة في النجف، وقد تجاوب الناس مع السيد فقد شيعته➥

ويحاول أن يعبئ الأمة في عمل سياسي عام[1]، يجعلها تتطلع بشكل

➡بغداد بكاملها. وكان للسيد موظف في البلاط، وهو المرحوم السيد باقر البلاط، يتابع بعض الأمور. وقد كان الحكام – بشكل أو بآخر – يحتقرون مقامات المرجعية والعلماء، من أجل إبعادهم وعزلهم عن الأمة، وكان العلماء من جانبهم يحتفظون بمقامهم من هذا الموقع ولا يرضخون للذل؛ ولذلك حصلت قضية الانعزال. وكان العلماء السابقون للإمام الحكيم – بين فترة ثورة العشرين وانتكاسة المشروطة، وبين تصدي الإمام الحكيم، التي هي فترة أربعة عقود من الزمن تقريباً – يكتفون بالإشارات أو بالمساهمات العامة في المجال السياسي. فمثلا عندما تكون هناك قضية عامة وواسعة كقضية فلسطين، أو يكون هناك غزو كافر لبلد من بلاد المسلمين، كانوا يُطلقون الفتاوى ويُعطون الآراء العامة، أمّا التصدي على مستوى العمل السياسي في ميدان الأمة وتثقيفها، وبعثها في حركة سياسية واسعة، تجعلها تستهدف إقامة حكم الله في الأرض، وتحقيق الحكم الإسلامي في مختلف أنحاء العالم، فهذا الأمر يكاد يكون من الأمور التي تصدى لها الإمام الحكيم كأول مرجع عام يتصدى لذلك. وقد تكون الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت به جعلته يأخذ هذا الموقع الخاص، ويمكن أن نفترض أنّ هذه الظروف لو كانت قد تهيأت لمرجع قبله بكل خصوصياته وأطرافها لكان تصدى بنفس ذلك التصدي، ولكن على أي حال، لم تسمح مجمل الظروف إلاّ أن يقوم الإمام الحكيم بذلك..**(المؤلف)**.

(1) وأقول: «أول مرجع» ولاأقول: «أول عالم» لأنه كان في كل الفترات السابقة علماء قاموا بأعمال سياسية، مثلاً: في العراق كان الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رحمة الله عليه، وفي إيران السيد أبو القاسم الكاشاني رحمة الله عليه، وغيرهما من العلماء هنا وهناك، كانوا يقومون بأدوار في مخاطبة الأمة وتوعيتها وممارسة العمل السياسي، لكن هذا شيء، وهناك شيء آخر هو أن يكون المرجع الذي يرتبط به الناس بالتقليد والرجوع إليه وبلغ درجة عالية في أوساط الناس بالثقة والاعتماد من ناحية، وفي الارتباط به في مجمل الحركة الدينية والسياسية من ناحية أخرى، عندما يقوم بهذا العمل فذلك له مدلول آخر في الأمة والأنظمة الحاكمة، باعتبار قوة المرجعية وهيمنتها وصلاحيتها..**(المؤلف)**.

حقيقي وواقعي إلى قيام حكم الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، والشواهد على ذلك كثيرة.

وعندما تصدى رضوان الله عليه للمرجعية الدينية في العراق بعد الحرب العالمية الثانية عمل على معالجة هذه المشكلات الأساسية الرئيسية بين أبناء الشعب العراقي، فخطط من خلال برنامج واسع، كنشر المكتبات، وإقامة الاحتفالات والمهرجانات، وتأسيس المؤسسات الإسلامية، وبناء المساجد والحسينيات في مختلف أنحاء العراق، وحتى التنظيمات الإسلامية - التي عاشت في ظل هذه المرجعية - لسحب الأمة إلى التدخل في القضايا العامة والأعمال السياسية حتى تصبح هي المسؤولة عن أمورها في داخل العراق، وتمكن - من خلال مواجهته للشيوعية في فتواه المعروفة (الشيوعية كفر والحاد)، ومن خلال مواجهته للتيار القومي الذي كان يقوده عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف، وللتيار البعثي الذي يقوده حزب البعث، والدخول في صراع جماهيري وسياسي مع هذه التيارات[1] - من أن

---

(1) لقد اصطدم الإمام الحكيم بكل هذه التيارات، وحاول في هذه المعركة التي خاضها أن يحتفظ بعدة قضايا أساسية:

القضية الأولى: أن يحتفظ بالأمة، ويواكب مسيرتها، ولا يحمّلها أكثر من طاقتها، وإنما يحاول أن يسير مع مجمل حركتها. وهذا أمر مهم اقتبسه الإمام الحكيم من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتمكن أن يُخرج الأمة من عزلتها السياسية والاجتماعية والثقافية، ويحولها إلى أمة تدخل معترك الصراع.

القضية الثانية: الحوزة العلمية. فبالرغم من وجود مختلف القطاعات التي نهتم بها في هذه الأمة في مجمل وجودها، لكن تبقى الحوزة العلمية القاعدة الأساسية⬅

➡والمركزية المهمة، التي يجب أن نحافظ على دورها وحركتها في هذه الأمة **وحذارِ أن تنعزل الحوزة العلمية عن العمل السياسي، وأعظم خطر يواجه أهل البيت عليهم السلام أن تنعزل الحوزة، أو يكون لديها شعور بعدم الاهتمام بما يجري في الأمة والعالم.**

إن بقاء الحوزة مواكبة لحركة الأمة هو قضية أساسية. ومن هنا فإن أبناء مدرسة المرجعية التي عاشها الإمام الحكيم في النجف الأشرف – لازالوا إلى الآن في مختلف المناطق التي يعيشها أبناء مدرسة أهل البيت عليهم السلام – ينادون: بأن هذه القضية أساسية ومهمة، ولديّ شواهد حسية وتاريخية واضحة على أن حركة الإمام الحكيم – من خلال مرجعيته في النجف الأشرف – كان لها تأثير في مجمل التحرك السياسي والاجتماعي، حتى في إيران التي تمثل القاعدة العظيمة لأبناء مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ولا أريد هنا أن ألغي دور الآخرين– وقد كان لهم دور عظيم– لكن العمل الذي قام به الإمام الحكيم كان له الأثر الكبير في مجمل الحركة السياسية والاجتماعية من خلال الحوزة العلمية.

القضية الثالثة: الرعاية الواسعة التي كان يقوم بها لمجمل الحركة الإسلامية التي كانت تعيش في أوساط الأمة. فكان يستقبل الشباب – وهو شيخ كبير – في ظرف كان الناس ينظرون إليهم وكأنهم مرتدّون، وذلك عندما دخلوا الجامعات والكليات. لكنه كان يرعاهم بنفسه، ويرى حقيقته فيهم، ويعطيهم مكتباته، ويسلمهم – أحياناً – بعض المؤسسات؛ لأنه يرى أن الأمة يجب أن ترعى هذا التحرك، فتهتدي من خلاله، وذلك شرط أن تكون هذه المؤسسات والأحزاب والجمعيات والمنظمات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحوزة العلمية والمرجعية، وتحت إشرافهما ورقابتهما، لتتمكن هذه الحركة الواسعة للأمة أن تتكامل من خلال التزامهما. وهذه من أهم المسائل التي اهتم بها السيد الحكيم، وتمكن من خلالها أن يحدث هذا التغيير، في الأمة في العراق..**(المؤلف)**.

العلماء والمرجعية، وبضرورة إقامة الحكم الإسلامي، وأن يحدث نقلة في التأريخ السياسي للعراق. حتى على مستوى العالم الإسلامي، وخصوصاً في الأوساط التي تتبنى مذهب أهل البيت عليهم السلام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. لقد أُدخل الشعب في القضية السياسية، وأخرجه من العزلة التي عاشها طيلة العقود السابقة لمرجعيته.

وهذا الموضوع يعتبر من أهم الموضوعات التي نواجهها في هذا العصر، وهو أن يتصدى مرجع تعترف كل أبناء الطائفة الشيعية في العالم بمرجعيته على الإطلاق لقضية ارتباط الدين بالسياسة، ولا يتصدى على مستوى الشعار والمفهوم، وإنما يعمل ويحمل مختلف الآلام والمعاناة من أجل تجسيد هذا الشعار كواقع يتحرك على الأرض في ساحة المسلمين، ليس في العراق فقط، وإنما في لبنان، وإيران، وباكستان، والخليج، والمناطق الأخرى من العالم الإسلامي. وهذا الحديث يحتاج إلى مؤرخ من أجل أن يسجل القضايا والمواقف التأريخية، ويقدِّم الوثائق والمستندات، وهي موجودة إلى حد كبير في بلاد المهجر، فضلا عن تلك الموجودة في النجف وهو بحاجة إليها. ولا يسع الوقت لتقديم كل هذه المستندات، ولكن هذه حقيقة من الحقائق.

إنَّ حركة الإمام الحكيم في عقد الستينات الميلادية - عقد الثمانينات الهجرية - كان لها أثر كبير جداً على نجاح الثورة الإسلامية في إيران، وأذكر بهذا الصدد كلمة سمعتها من الإمام الخميني عندما كان يقول:

((إني كنت أنتظر، من خلال ما شاهدته من هذه الحركة قيام الحكم الإسلامي في العراق قبل قيامه في إيران)) من خلال طبيعة التحرك الذي كان يقوده الإمام الحكيم، هذا التحرك السياسي الواسع كان له تأثير في مختلف العالم الإسلامي، ففي لبنان نجد حركة الإمام الصدر التي نجد الآن امتداداتها على مختلف الساحة اللبنانية، وكانت - أيضاً - تحت رعاية السيد الإمام الحكيم، وقد تمكن السيد الصدر في لبنان أن يصل إلى النجاحات التي وصل إليها نتيجة الإسناد والدعم من الإمام الحكيم، ولا زالت الرسائل المتبادلة بين السيد موسى الصدر والإمام الحكيم شخصياً موجودة تحت تصرفنا، والحركة الإسلامية في باكستان كان للمرحوم الإمام الحكيم دورٌ كبيرٌ جداً في وضع بذرتها التي بدأت بحركة نامية متصاعدة في أبناء الشعب الباكستاني، وهم يعرفون هذه الحقائق. ويمكن أن نقول هذا الكلام بالنسبة لأفغانستان، ومناطق أخرى من العالم الإسلامي.

وقد تمكنت مرجعية الإمام الحكيم ليس فقط أن تطرح الإسلام كنظرية في مقابل تلك النظريات، كما يطرح في الكتب والمدارس والجامعات والندوات أو في الحدود العلمية الضيقة المحدودة، وإنما تمكنت أن تطرح الإسلام كخط جماهيري يعيش بين الناس، وكتيار شعبي إسلامي يهتف باسم الإسلام وقيادة العلماء والمرجعية، وتمكنت أن تستقطب الجماهير إلى جانب الإسلام، بعد أن كانت مهددة بالتيارات الأخرى كالتيار الشيوعي.

وتمكنت أن تستقطب كل الجماهير في العراق. حتى إن أبناء السنة

كانوا يحترمونها ويدينون لها بالولاء، مضافاً إلى كل القطاعات الأخرى في العراق، كالعرب والأكراد والتركمان.

عاش الإمام الحكيم هذه الفترة الصعبة فكان (مرجع العصر)[1] كما يعبر عنه الامام الخميني، وهو المرجع الوحيد الذي تصدى بشكل واضح علني واسع للعمل الثقافي والاجتماعي والسياسي، فضلا عن العلمي والفتوائي والديني، وقد تصدى آخرون لمثل ذلك، لكنهم لم يكونوا مراجع للأمة بكل قطاعاتها.

إن الإمام الحكيم هو المرجع الوحيد الذي تمكّن أن يُخرج المرجعية من سباتها، وظروفها الصعبة التي عاشتها بعد الحرب العالمية الأولى إلى عالم اليوم، ويدخل معترك الحياة السياسي والاجتماعي والعلمي.

جذور النهضة الإسلامية المعاصرة

ولاشك إننا الآن نعيش نهضة إسلامية كبيرة جداً، هي أكبر عنوان وأعظمه، ولعل أعظم سبب وتأثير لهذه النهضة هو قيام هذا الكيان السياسي المتمثل بالدولة الإسلامية بقيادة وتأسيس عالم رباني، ومرجع من مراجع الإسلام.

وهذه النهضة لم تأتِ من العدم، أو كانت بلا جذور، أو جاءت صدفة، وإنما لها جذور عميقة، والإمام الخميني صاحب هذه النهضة

---

(1) ولا زلت أتذكر أن الإمام الخميني عندما يتحدث عن الإمام الحكيم كان ينعته بأنه «مرجع العصر». وعندما يتحدث الإمام الخميني عن المرجعية فإنه لايتحدث عنها بمفهومها الضيق، وإنما يفهم دورها، وما يمكن أن يكون لها من أثر في أوساط الأمة..(**المؤلف**).

وقائدها كان يؤكد كثيراً على مسألة هذه الجذور، حتى لا يغفل الناس عنها، ويفترضوا بأنَّ هذه النهضة كأنها مقتطعة من التأريخ وليس لها جذور ولا نسب ولا جماعة ولا أمة، وكأنها جاءت من العدم، وقام بها الإمام.

نحن نعرف أنه في مسيرة تاريخ الأنبياء لا يوجد هناك عمل أعظم من عمل رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، والقرآن الكريم ـ أيضاً ـ هو الكتاب المحفوظ من الله سبحانه وتعالى، والذي بقي سالماً بين أيدينا يمثل الوحي الإلهي دون بقية الكتب السماوية، والرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، لكن مع ذلك نجد أن القرآن أكد كثيراً على مسألة جذور الإسلام وارتباطه بالرسالة السماوية السابقة، كارتباطه بإبراهيم وموسى، وعيسى، ونوح، عليهم السلام، وكل الأنبياء، وأنّ هذا هو الدين الذي نزل من السماء.

وكان رسول الله ﷺ أخذ من المسيحية واليهودية، والكتب السماوية الأخرى، باعتبار هذا التأكيد من القرآن الكريم على ارتباط الإسلام بتلك الجذور، وهذه الجذور تمثل أولاً عمق هذه النهضة، وثانياً الضوء الهادي فيها، وهي تهدي إلى الأهداف والنهايات، وتهدي الإنسان في مسالك هذه النهضة باعتبار ارتباطه بالجذور.

وإنّ مرجعية الإمام الحكيم تمثل جذور النهضة في عالمنا الإسلامي وليس في العالم الشيعي فحسب، وهناك مجموعة من الشواهد والقرائن تؤكد هذه الحقيقة:

أولاً: من جملة القضايا التي يمكن أن تلاحظ بشكل واضح، أننا

إذا نظرنا إلى رجال المسلمين المنتشرين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، الذين يرتبطون بالنجف الأشرف ومرجعيته ومدرسته في فهمها السياسي وحركتها السياسية، نجد هذا الأمر واضحاً وبيّناً في مجموعة من الأشخاص، كان لهم تأثير في إيران ولبنان والخليج وباكستان والهند، فضلا عن تأثيرهم في العراق، وهذا الأمر يشكل نقطة مهمة جداً في هذا المجال.

ثانياً: احتضان المرجعية الدينية في النجف الأشرف لنهضة الإمام الخميني، حيث كان هناك مخطط رسمه شاه إيران، يستهدف أن يكون الإمام الخميني في النجف على أن يُسحق فيها. ولكن الإمام الحكيم يحبط مخطط الشاه، ولذلك نجد أن انتقال الإمام الخميني من تركيا إلى النجف لم يكن انتقالا عفوياً، وإنما تم ذلك بالاتفاق بين حكومة تركيا وحكومة شاه إيران، وحكومة العراق، وهؤلاء كانوا يخططون لسحق الإمام في النجف في زحمة الصراعات والتناقضات والادعاءات والكلمات المختلفة، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن حوزة النجف الأشرف في ذلك الوقت ومرجعيته كانت الأولى حتى في إيران لافي العراق فقط، فعندما يكون الإمام هناك ويتعرض إلى مثل هذه المشاكل التي يمكن أن تجدوا نماذج لها في بعض الأوساط، وعندما تحدث الصراعات وتشتبك الشعارات والادعاءات والعناوين في أوضاع سياسية مختلفة تضيع الحقيقة ضمن هذا الضجيج.

ونجد أن الإمام الحكيم يقوم بعمل عظيم رائع جداً في إفشال هذه الخطة، التي رسمتها هذه الحكومات الثلاث من خلال التصرف

الرشيد والسياسة الحكيمة التي قام بها، والتي وجدت في الوقت نفسه إعجاباً عظيماً جداً في نفس الإمام الخميني، عندما وجد هذا الموقف. ويمكن أن نُذكر لذلك شواهد تاريخية.

ثالثاً: هو المد الجماهيري الذي تمكن الإمام الحكيم من تحريكه في الأمة.

وظروف الأمة في العراق تختلف عن ظروف الأمة في إيران، وفي وقت كان الشاه قد تمكن - ولو بحسب ادعائه - من سحق المد الجماهيري الذي بعثه الإمام الخميني في إيران، من خلال سحقه لحركة (١٥ خرداد) والطريقة القمعية التي استخدمها في سحق هذه الحركة، وحصول حالة من الركود والجمود، ولو بشكل ظاهري في مجمل الأوضاع التي كانت تعيشها إيران. وهذا الأمر عندما يراجعه الإنسان في الحركة السياسية يجد إن الشاه وصل إلى استنتاج وهو: أنه أصبح جزيرة آمنة والوضع مستقر في إيران، وكأنه لاتوجد مشكلة فهناك حركة سياسية معارضة، وهنا الإمام الخميني وجماعته وأصحابه، والمشردون والمهجرون من الذين كانوا يطاردون في إيران، ويلجأون إلى النجف، يشاهدون عن كثب حركة سياسية جماهيرية واسعة، تتفاعل معها الأمة، ويقودها مرجع من مراجع الإسلام. حتى أن الإمام قال لي في لقاء من اللقاءات: أنا كنت أتوقع أن يقوم حكم الإسلام في العراق قبل إيران، من خلال ما شاهدته من حركة جماهيرية في العراق.

وهذا أيضا له تأثير مهم على الوضع النفسي والروحي ومجمل

التصورات.

وما شاهده الإمام الخميني عن كثب يرتبط ببعض النقاط التي لا مجال لذكرها أو نشرها الآن، في فهم الحركة الإسلامية السياسية لطبيعة الأنظمة العربية القمعية، التي كانت ترفع شعارات فلسطين أو التحرر، وهذا لم يكن مفهوماً عند السياسيين الإسلاميين في إيران، وكانوا يأخذون هذه الشعارات كقضايا مهمة، ويعتبرون أن هذه الأنظمة وكأنها تدافع حقيقةً عن فلسطين وتناضل من أجل التحرر ومكافحة الاستعمار والاستكبار، وهناك أمثلة لا أريد أن أذكرها تؤكد هذه الحقيقة.

ومن خلال المعايشة الميدانية للإمام الخميني ولجماعته لهذه الأنظمة وطريقة تعاملها ومواقفها الحقيقية تجاه هذه القضايا، أصبحت هناك رؤية واضحة، وهذه شكلت بعد ذلك ضمانة مهمة جداً ودرجة عالية جداً من الحذر والوعي لطبيعة هذه التنظيمات، التي لها غطاءات وشعارات صحيحة بحسب شكلها، ولكن لها جذور سيئة فاسدة مرتبطة بالاستكبار العالمي، مثل شعارات منافقي خلق، وأمثالهم الذين عرفناهم هنا في إيران، وعرفهم الإيرانيون كذلك.

إن الفضل في فهم هذا النوع من الحقائق كان لمرجعية النجف الأشرف وللحركة السياسية للنجف الأشرف، وأصبح هذا الموضوع من القضايا الواضحة على أقل تقدير لدى الإمام الخميني والوسط القريب منه.

إن الإمام الحكيم كان قائداً لعملية معقدة قادها في المجتمع العراقي، وتمكن من أن يخرج الأكثرية الساحقة من أبناء المجتمع العراقي عن

عزلتهم السياسية إلى الدخول في العمل السياسي - وهذا شيء من أكثر الأمور تعقيداً في العمل السياسي - وقام بإعطاء الوجه الصحيح للحركة الإسلامية، وميزها بشكل واضح عن الخط اليساري المتمثل بالشيوعيين، والخط القومي المتمثل بالبعثيين والخط الليبرالي وغيرها، لا من خلال المفاهيم؛ لأن قضية التمييز بالمفاهيم سهلة؛ لأن الإنسان يجلس في مكتبه أو غرفته ويتمكن أن يميز هذه المفاهيم بعضها عن بعض، وإنما تمكن الإمام الحكيم - وهذا هو الشيء الذي يمتاز به السياسي عن المفكر والمنظِّر - إن يميز هذا من ناحية العمل الواقعي الحركي الخارجي، أي: في التعامل اليومي السياسي الخارجي، فتمكن أن يميز الخط الإسلامي في مواقفه عن الخطوط الأخرى، ويشكِّل في تمييزه قدرة تهزم باقي الخطوط، ويصبح الخط الإسلامي يوماً بعد يوم هو الخط الأقوى والأكبر في ظروف لم تكن ظروف النهضة، وإنما كانت ظروف جذور النهضة، يعني كانت أيام المد اليساري والقومي، وكان عبد الناصر موجوداً بقدراته وإمكاناته الهائلة، والاتحاد السوفيتي كذلك، في مثل هذه الظروف يتمكن الإمام الحكيم أن يلحق هزيمة بكل هذه الخطوط في الشارع على مستوى العمل السياسي، على أقل تقدير، وقد كان الإمام الحكيم يرى أنه حقق هذا الشيء، وهذا لا يمكن لأحد أن ينكره.

وقد يطرح هذا السؤال: لماذا لم يستفد الإمام الحكيم من هذه الفرصة؟ أي: مادام استطاع أن يلحق هزيمة بأعدائه على هذا المستوى، فلمَ لم يستفد من الفرصة؟

والجواب: إن الإمام الحكيم كان قائداً، ومن حق القائد أن يشخص هو الموقف السياسي، لا أن نأتي نحن بعده بربع قرن من الزمن، ونفترض بأنه لم يكن قادراً على تشخيص الموقف السياسي.

الإمام الحكيم بما أنه يعيش المعركة، لذلك عرف أن الموقف السياسي يتمثل بأحد ثلاثة فروض: إما الاستسلام للنظام، أو إبقاء المقاومة مع عدم تصعيدها إلى المقاومة المسلحة، أو الدخول في مواجهة ومقاومة مسلحة، وقد اختار الإمام الحكيم الخيار الثاني من بين هذه الثلاثة، فهو لم يستسلم، وتحمل من أجل عدم الاستسلام آلاماً ومعاناة كثيرة، وكانت فيها شهادات أيضاً، ولكن في الوقت نفسه لم يرَ تصعيد الموقف إلى المواجهة المسلحة مع النظام؛ لأنه كان يرى أنّ الأمة، وان كانت من الناحية السياسية قد تصاعد موقفها في ولائها السياسي، إلّا أنه من الناحية التنظيمية وقدرتها العملية للمواجهة المسلحة تحتاج ليس فقط إلى وعي سياسي - بخلاف العمل السياسي العام كتظاهرات مثلا أو اعتصامات أو احتفالات أو انتخابات أو غير ذلك - وإنما يحتاج إلى تنظيم سياسي قوي قادر على إدارة العمل المسلح، وكان الإمام الحكيم يرى - في تشخيصي - أن الأمة لم تكن منظمة بإمكاناتها وطاقاتها وقدراتها بطريقة بحيث تكون قادرة على الدخول في هذه المواجهة العسكرية المسلحة.

وفي الوقت نفسه شخص أن النظام كان مستعداً لأن يدخل في عملية قمع واسع للأمة، ومن خلال هذا التشخيص أتخذ قراره.

وتوجد عندي أرقام كثيرة بالأيام وبالأسماء والخصوصيات - تدل

على أن الأمة لم تكن قادرة على الدخول في مواجهة عسكرية مسلحة؛ لأنها لم تكن منظمة، ولعلها تشكو إلى الآن الكثير من المشاكل في هذا الجانب.

إنَّ التحرك الجماهيري العظيم الذي أوجدته مرجعية الإمام الحكيم في الأمة دعا الإستعمار البريطاني والأمريكي أنْ يخطط لمجيء حزب البعث للعراق، من أجل ضرب المرجعية الدينية وضرب التحرك الجماهري وقمعه بمختلف الوسائل، ولذلك نجد البعثيين بدأوا أولاً بضرب الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وتهجير العلماء والطلبة، واعتقال العلماء وقتلهم والتضييق عليهم، وجعل الفواصل بينهم وبين بقية الجماهير. وبعد ذلك حدثت سلسلة طويلة جداً من الاعتقالات والإعدامات التي قام بها حزب البعث، من أجل أن يقمع هذا التحرك الجماهري الذي قاده الإمام الحكيم، وكان من قدر العراق - هذا البلد العريق بالإسلام - أن يتوفى الله سبحانه وتعالى الإمام الحكيم في أول معركة خاضها مع البعثيين، فبعد سنة واحدة من الصراع الذي بدأه توفاه الله سبحانه وتعالى ودعاه إلى جواره، وبقيت المرجعية الدينية في النجف الأشرف خالية من هذه القيادة الحكيمة التي كانت تدعمها الجماهير نحو الإسلام وحبّه، ولكن بالرغم من كل الآلام والمعاناة التي عاشها الشعب العراقي نجد أبناءه يستمرون في مواصلة طريق آية الله العظمى السيد الحكيم، وسوف يستمرون حتى إقامة الحكم الإسلامي.

الفصل الخامس

حـــوارات

حـول الإمـام الحكيـم

نشأة الإمام وشخصيته

س: نود إعطاءنا فكرة تفصيلية حول الشخصية الكبيرة المشرقة للإمام آية الله العظمى السيد محسن الحكيم، دراسته، أساتذته في مراحل حياته العلمية، ثم مراحل تدريسه، وطلابه...ثم مرجعيته العامة وخصوصياته الأخلاقية...ومواقفه البارزة من حكام زمانه؟.

ج: بدأ الإمام الحكيم حياته العلمية والمعروفة في السنة السابعة من عمره، حيث بدأ بقراءة القرآن الكريم وحفظه في هذا السن.

وفي السنة التاسعة بدأ بدراسة العلوم الدينية المعروفة في ذلك الوقت، فشرع ﴿قدس سره﴾ بالدرس عند أخيه السيد محمود الحكيم الذي يكبره بعشرة سنوات، والإمام الحكيم آنذاك كان قد فقد والده في السنة السادسة من عمره.

وعندما طوى مرحلة المقدمات والسطوح انتقل إلى بحث آية الله العظمى الشيخ الآخوند الخراساني في سن (١٨) سنة، وبعد ثلاثة سنوات توفي الآخوند الخراساني، فانتقل إلى درس المرحوم الشيخ ضياء الدين العراقي في بحث الأصول والفقه، ومن زملائه المبرزين آية الله الكاشاني.

كما حضر الإمام الحكيم درس الشيخ علي باقر آل صاحب الجواهر، والمحقق ذي الفقاهة المعروفة بحوزة النجف الأشرف.

وحضر الإمام الحكيم عند آية الله الشيخ حسين النائيني الذي استفاد منه في الجانب الفقهي كثيراً.

أما فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي والعرفاني فقد استفاد الإمام الحكيم من حضوره عند أستاذه وصديقه وصديق والده، آية الله السيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان من طلاب ميرزا حسين قلي الهمداني العارف المشهور.

كما كان الإمام الحكيم من أصدقاء المرحوم الشيخ باقر القاموسي، رغم أن الحبوبي والقاموسي كانا يكبران الإمام الحكيم بفارق كبير من العمر، إلاّ أنهما لازماه باعتباره يتيماً من ناحية، وانهما من أصدقاء والده من ناحية أخرى. فلذلك نال منهما رعاية خاصة منذ الطفولة.

ومن الذكريات في هذا الموضوع، أن أحد أرحامنا من كبار السن كان يقول: كنا في عرس خال أولاد السيد الحكيم - واسمه أيضاً السيد محسن الحكيم - وكنا آنذاك أطفالا وكان عمر السيد محسن آنذاك بين السابعة والثامنة، وكنا نلعب فوق السطح، وفجأة افتقدنا السيد محسن في الليل، فأخذنا نفتش عنه في السطوح - إذ كانت أسرة الحكيم أسرة كبيرة وتمتلك مجموعة من البيوت وهي وقف من أجدادهم، وتتصل سطوح هذه البيوت مع بعض- من سطح لآخر، وهناك عادة معروفة في النجف وهي وضع ستارة في السطح؛ لأجل الستر، فرأيناه واقفاً في زاوية من زوايا أحد السطوح في الظلام يصلي صلاة الليل. لقد تعجبنا ونحن أطفال صغار والناس يلعبون في ليلة العرس.

الشيخ حسين الحلي - الذي تتلمذ على يده السيد السيستاني وآية الله السيد محمد سعيد الحكيم والسيد علاء الدين بحر العلوم - يقول: عندما كنا شباباً وبدأنا بالدرس، كان النموذج الذي نتأسى به

بدراستنا وسلوكنا بشكل خاص هو السيد محسن الحكيم.. ويقول: كنت أخرج من بيتي أتقصى مسير السيد محسن؛ لأجل أن أرى طريقة مشيه والسلوك الذي كان يلتزم به.

س: ما هي النظرة الفلسفية عند الإمام الحكيم؟

ج: ما كان الإمام الحكيم يظهر لنا شيئاً في هذا الموضوع، إذ كان اهتمامه بخصوص الحالة الفقهية والأصولية، ولكن بعد التطورات التي حصلت في الوضع السياسي والفكري في العالم الإسلامي، وكذلك الغزو الذي حصل للحالة الفكرية كان الإمام الحكيم يشجع على دراسة الحكمة والفلسفة، ويشجع على الكتابة بهذا الموضوع من أجل مواجهة هذه التيارات الفكرية، وهكذا حتى وجد الشهيد الصدر التأييد الكبير من قبل الإمام الحكيم، وكذلك الشيخ صدرا اليعقوبي، عندما كان يدرّس الفلسفة، ووقعت له مشكلة في النجف، باعتبار وجود التيار المضاد، فوقف الإمام الحكيم إلى جانبه فيما يتعلق بهذا الموضوع.

وعندما بلغ الإمام الحكيم سن السادسة والعشرين كتب رسالة فقهية في إرث الزوجة، وقدمها لأستاذه السيد الحبوبي، فأعجب بها إعجابا كبيراً قائلا للإمام الحكيم: نحن لم نعرفك حتى الآن...! وذلك لشدة إعجابه بهذه الرسالة.

وفي سن الحادية والثلاثين من عمر الإمام الحكيم بدأ بتدريس الخارج، وهو بداية لكتابته (مستمسك العروة الوثقى) فبحث أولا الأصول، وخلاصة نظرياته وأفكاره في الأصول كتبها في حاشيته على

كفاية الأصول للآخوند الخراساني. ثم بدأ بتدريس الفقه على كتاب (التبصرة) للعلامة الحلي وكتب حاشية مختصرة على الكتاب...ثم انتقل لتدريس العروة الوثقى، وأعاد البحث للدورة الثانية للعروة الوثقى حتى كان هذا (المستمسك) المتداول في الأسواق ككتاب فريد ونادر في حياته.

ومن زملاء الإمام الحكيم السيد اليثربي والسيد حسين الإصفهاني صهر آية الله العظمى السيد أبي الحسن الإصفهاني، والسيد هاشم النجف آبادي الميردامادي، جد السيد الخامنئي لأمه.

س: وماذا عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وتزعُّم الإمام الحكيم لها، وتطويره لأوضاعها عموماً؟.

ج: جاء الإمام الحكيم في فترة قاسية مرت بها الحوزة العلمية في النجف الأشرف، والفترة التي عاشها هي فترة ما بعد الغزو الانكليزي وسيطرته على العراق...

وفي ذلك الوقت كانت الحوزة في النجف مسيطراً عليها من الناحية السياسية خلال الاحتلال الانكليزي وبعد الاحتلال، والظروف التي واجهها المسلمون في العراق كانت ظروف حرب وجهاد، وهنا نجد مرة أخرى حصول حركة في العراق من أجل تحريره وإخراج الانكليز منه وهي الحركة التي سُميت بحركة ثورة العشرين، التي شرعت ليلة الخامس عشر من شعبان، ليلة ولادة الحجةعجل الله فرجه الشريف، ومن كربلاء كانت انطلاقتها تحت قيادة علماء ذلك العصر.. وكان للسيد محمد كاظم اليزدي - صاحب كتاب العروة الوثقى - موقف يختلف عن موقف الثوار في حركة ثورة العشرين، وكان هو المرجع العام وموقفه كان يخالف

موقف المرحوم آية الله الآخوند الخراساني في قضية المشروطة والاستبداد الذي عمّ إيران...

موقف الإمام الحكيم من ثورة العشرين وتداعياتها

س: هل كان نشوء خط الانعزال بعد ثورة العشرين بسبب عوامل ذاتية للمرجعية في تلك المرحلة، أو أنها عوامل موضوعية فرضت على المرجعية هذا الانعزال؟.

ج: إن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث، ولا إشكال في وجود عوامل موضوعية، وأما العوامل الذاتية، فنحتاج إلى بحث في شخصية كل واحد من هؤلاء المراجع، لكي نعرف هل يوجد عامل ذاتي أو لا؟ لكن العوامل الموضوعية موجودة يقيناً، أما الذاتية فلا أعلم بها.

س: تأييد الشيخ عبد الكريم الجزائري لانقلاب بكر صدقي[1]، وتأييد محمد حسين كاشف الغطاء، والسيد أبي الحسن الإصفهاني لحركة مايس[2]، هل ينسجم مع التفسير القائل: إنّ المرجعية كانت معزولة عن المشاركة في الحياة السياسية؟.

---

(١) قائد أول انقلاب عسكري عرفته الأنظمة العربية في تاريخها المعاصر. تدرج في الرتب العسكرية حتى درجة (فريق). درس الأركان في لندن. اتصل بالملك غازي عام ١٩٣٣ واتفق معه عام ١٩٣٦ على إزاحة رئيس الوزراء ياسين الهاشمي. ودبر مع الملك خطة انتهت بالإطاحة بالهاشمي وحل محله حكمت سليمان.اغتيل بكر صدقي في مطار الموصل على يد أحد الجنود الأتراك، بينما كان يهم بالمغادرة إلى تركيا.

(٢) هي الحركة التي قادها رشيد عالي الگيلاني عام ١٩٤١ لطرد الإنگليز من العراق.

ج: قلت: إن المراجع عندما انعزلوا عن الحياة السياسية لم ينعزلوا عنها برغبة منهم، وإنما كانت هناك ظروف ألجأتهم لذلك، وقد أشرت إلى بعض الاستثناءات الخاصة، ومن جملتها المورد الأخير، وهو تأييد السيد أبي الحسن الإصفهاني لحركة مايس، أما التأييدات الأخرى فلا أعرف محتواها.

س: ما هو بالتحديد موقف السيد اليزدي من الحركة ضد الانكليز؟.

ج: كان رأيه الاحتياط في مثل هذه الأعمال الواسعة، ولديه شكوك وشبهات حول الأشخاص المتحركين في ميدان هذا العمل، فكان يرى أن هناك تداخلاً واختلاطاً بين ما نسميه الآن بالموقف الإسلامي والموقف الوطني، فكان يقف موقف الحذر والاحتياط، ولم يدخل في قيادة العمل...

وماذا عن الإمام الحكيم؟

لقد نشأ الإمام الحكيم في مثل هذه الظروف، وعندما قامت ثورة العشرين وقرر الانكليزي إعطاء الحكم الوطني جاؤوا بالوطنيين ولم يأتوا بالمسلمين، الأمر الذي أدى إلى أن يقوم العلماء جميعاً بالاحتجاج على الحكم الجديد، في حالة شبيهة بحالة إيران عندما جاؤوا برضا شاه بعد حركة المشروطة، وحصلت الانتكاسة، وعلى هذا الأثر قام الحكم في العراق بإخراج العلماء والمراجع في النجف الأشرف، من بعد وفاة السيد الشيرازي الذي وافته المنية أثناء الثورة، فتولى قيادتها من بعده شيخ الشريعة الأصفهاني، ثم توفي أيضاً، فبقي العلماء من قبيل النائيني وأبي الحسن الإصفهاني، وضياء الدين

العراقي، وغيرهم من علماء العرب كالشيخ مهدي الخالصي والمرحوم جواد صاحب الجواهر، هؤلاء العلماء أتخذ قرار بإخراجهم ونفيهم من البلاد، فنفي قسم منهم إلى إيران، وقسم إلى الجزائر التي كانت مستعمرة لبريطانيا...

أبعد القسم الأول إلى إيران تحت حكم رضا خان، فرأوا أنَّ حكمه أشد وأقسى من الحكم في العراق، وعلى أثر هذا الموضوع أُخذ قرار وتعهد من العلماء على أن لايتدخلوا في الشؤون السياسية، فرجع العلماء بتعهدهم هذا إلى العراق، وحصلت حالة من الركود في حوزة النجف التي انكمشت انكماشاً كبيراً، سواء على الصعيد السياسي أم العلمي، ولشدة قسوة النظام الحاكم في إيران وبطشه وقمعه فقد هاجر بعض العلماء من إيران إلى العراق، ففي مثل هذه الظروف نستطيع أن نقيّم مرجعية الإمام الحكيم الذي تزعم المرجعية، في وقت كان هناك تعهد قد أخذ على كبار العلماء والمراجع - ومنهم أساتذته كالنائيني والعراقي - في أن لا يتدخلوا في أمر من الأمور الاجتماعية العامة والأمور السياسية، وعليهم الانصراف إلى الدرس والبحث...

ويمكن تشخيص بداية مرجعية الإمام الحكيم سنة ١٣٥٥ هـ.ق(١٩٣٥م) وهي السنة التي توفي فيها الميرزا حسين النائيني، ورغم أن الإمام الحكيم كان يدرس عند النائيني، إلاّ أنه لم يكن محسوباً على تشكيلات المرجعية للشيخ النائيني، وإنما كان محسوباً على الشيخ النائيني علمياً وبحثياً، وتعامل الإمام الحكيم مع الحكم في العراق كان يختلف عن تعامل

وسلوك المرجعية في ذلك الوقت، فكان تعامله مقاطعة الحكم من ناحية العلاقة والارتباط، فمثلا كانت سفارة الانكليز في العراق تمثل الحكومة الهندية؛ لأنها لم تكن مستقلّة والشأن الهندي كله يدار عن طريق السفارة الانكليزية.

لقد كان هناك وقف في الهند لطلاب حوزة النجف يدعى (وقف أوده) ومنذ القديم توزع الأموال على العلماء والطلبة في حوزة النجف من قبل هذا الوقف، فكان يأتي شخص من السفارة الانكليزية (هندي الأصل) يعطي الأموال لشخص من فضلاء حوزة النجف ليوزعها، وعندما توفي هذا الشخص كان شخص آخر من وجهاء الحوزة يقوم بالمهمة ذاتها، وآخر من نعرفهم في هذه المهمة هو المرحوم السيد جعفر بحر العلوم... ومن المتعارف عليه في الحوزة أنَّ الوجهاء والفضلاء والطلبة يأخذون هذه الأموال باعتبار أنَّ الواقف رجل شيعي متدين، غاية الأمر أن الطريق الذي تمرّ به هذه الأموال هو ما ذكرته...

أما الإمام الحكيم فلم يأخذ من هذه الأموال شيئاً، وكان يقول: **(مادامت هذه الأموال تمر بهذا الطريق غير النظيف فأنا لاآخذها)**.

إنّ الانكليز في الحرب العالمية الثانية أخذوا يقومون بأعمال من أجل ترويج وضعهم في حوزة النجف مقابل الجبهة النازية، فقاموا بصرف الأموال على مجالس العزاء، وعلى بعض المؤسسات، فتصدى لهم الإمام الحكيم وأعرب عن امتعاضه من سلوك الانكليز ومن أموالهم، وأمر الناس بعدم استلام هذه الأموال.

بداية المرجعية

وعندما رحل الشيخ النائيني عن الدنيا تصدّى طائفة من المؤمنين وطلبوا أن يصلي الإمام الحكيم مكان الشيخ النائيني في الصحن الشريف، فرجع بعض مقلدي النائيني إلى الإمام الحكيم، لأنهم سمعوا؛ من الشيخ النائيني نفسه شهادة بحق أعلمية الإمام الحكيم وفضله وقدرته، كما تصدّى بعض علماء العرب المعروفين بالفضل والوجاهة للترويج لمرجعية الإمام الحكيم، بعد أن قطعوا شوطاً في البحث والاستفسار من قبل العلماء الذين قدّموا الإمام الحكيم في هذا الأمر.

كان المرجع العام في ذلك الوقت هو السيد أبو الحسن الإصفهاني، وكذلك كان على قيد الحياة ضياء الدين العراقي وهو من أساتذة الإمام الحكيم، والشيخ محمد حسين الإصفهاني موجود أيضاً.

وعليه فلم يتصدَّ الإمام الحكيم للتقليد خلال هذه الفترة، ولم يوافق على طبع رسالة عملية له، أو أن يطرح نفسه مرجعاً، ولكنه كان يكتب لمقلديه بشكل خاص، وبخط يده حاشية على رسالة المرحوم النائيني، وبقي على هذه الحالة قرابة عشرة سنوات، حتى توفي السيد الإصفهاني سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م)، فحصل فراغ كبير في حوزة النجف الأشرف، وطُرِحَت أسماء عديدة كمراجع، بعضهم كان يتقدم على الإمام الحكيم من حيث السن والقدم في مراحل الدراسة، وحصلت متغيرات هامَّة في المرجعية، ففي العراق حصل رجوع واسع وكبير لتقليد الإمام الحكيم لشهرته بين الناس على ما مرّ الحديث، ونيله الاحترام الواسع من قبل العلماء والمراجع، وحدثت

مسألة في هذا المجال تخصُّ ثبوت هلال العيد لشهر رمضان المبارك إبّان مرجعية السيد الأصفهاني العامة والذي كان يتصدى لهذا الأمر، فمرض السيد الأصفهاني وسافر قبل شهر رمضان إلى بعلبك، فتصدى الإمام الحكيم لمسألة إثبات الهلال والعيد، باعتبار أن الناس لا يبقون بلا تكليف، فثبت العيد عنده، وأعلنه للناس...

بعض الناس أخذ يشكك في صحة هذا الإثبات، ونشبت صراعات داخل المرجعية، وصار البعض يشيع كلمات كثيرة حول هذا الموضوع، وفي اليوم التالي تبيّن صحة الثبوت من حيث ارتفاع الهلال متزامناً مع شهادات أخَر، الأمر الذي روج للإمام الحكيم تروجاً كبيراً في أوساط الشعب، وبعد وفاة السيد الإصفهاني - بعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة - صار الإمام الحكيم يصلي مكانه في مسجد (عمران). وخرج بعض أطراف المراجع بتشكيكات ودعايات أودت إلى أن ينكمش الإمام الحكيم على نفسه.

وصادف أن قدِمَ خلال هذه الفترة أحد علماء الأفغان المعروفين وهو محمد حسن المزاري، الوكيل الأول للمرحوم السيد الأصفهاني، في أفغانستان، جاء لزيارة السيد الإصفهاني وكان يحمل معه حقوقاً ليسلِّمها له، وكان السيد الإصفهاني آنذاك مريضاً ثم توفي، فظل هذا العالم متحيراً في أمره، فصار يبحث عن المراجع بطريقة إعداد (٤٠) سؤالا من الأسئلة العلمية وزّعها على المراجع المطروحين والمحتملين ليكتشف الأفضل والأعلم من بينهم، ولم يعط للإمام الحكيم شيئاً من الأسئلة، فأشار عليه بعض الطلبة الأفغان الدارسين عند الإمام

الحكيم بذلك، ولما تحول بأسئلته تلك إلى الإمام الحكيم حصل على قناعة كافية بأن أفضل هؤلاء العلماء هو الإمام الحكيم، وعليه فقد رجع ٩٠٪ من أبناء شيعة أفغانستان في تقليدهم للإمام الحكيم...

ونفس الأمر حصل في لبنان باعتبار علاقة الإمام الحكيم الحميمة مع السيد شرف الدين وأبناء لبنان، وفي إحدى سفرات الإمام الحكيم كان السيد شرف الدين هو المسؤول عن عملية الاستقبال، وترتيب أوضاع الزيارة، علماً أن السيد شرف الدين أكبر سناً من الإمام الحكيم، وهذا وغيره أدى إلى رجوع عام في لبنان لمرجعية الإمام الحكيم.

أما في إيران فقد حصل تطور بمجيء السيد البروجردي إلى قم، ورجوع الناس له في إيران، وكذلك رجوع بلاد أخرى له كباكستان والهند والوسط الإيراني في بلدان الخليج، وبعض أوساط حوزة النجف، باعتبار وجود الأموال الكثيرة وتوزيعه (الراتب) على الطلبة وما أشبه ذلك، وفي الوقت نفسه كانت تتسع كثيراً قاعدة الإمام الحكيم ويزداد الرجوع إليه.

وفي تطور آخر، وذلك لما توفي الشيخ رضا آل ياسين وهو أكبر وأقدم من الإمام الحكيم ويرجع له عدد كبير في مناطق الأحساء والقطيف والبصرة والكاظمية، باعتبار أنَّ أصله من الكاظمية، حيث عاد قرابة ٩٠٪ من مقلديه إلى تقليد الإمام الحكيم.

وكذلك عند وفاة السيد محمود الحجة، صاحب مدرسة الحجتية المعروفة في قم المقدسة، فقد رجع عدد كبير من أهالي آذربايجان من مقلديه إلى الإمام الحكيم، وحتى في زمن المرجع السيد البروجردي

عاد الكثير في مدن تبريز وخوي وأردبيل إلى الإمام الحكيم.

ومن بعد وفاة السيد البروجردي حصل رجوع واسع جداً في إيران وأفريقيا والهند وباكستان للإمام السيد محسن الحكيم.

س: لِمَ كان التقليد أوسع للمرحوم البروجردي؟.

ج: كان ذلك باعتبار أن الحوزة الإيرانية هي الأقوى نفوذاً في هذه المناطق، وأنَّ العلاقات الثقافية الموجودة بين إيران والهند وباكستان قوية ومتينة.

س: وماذا عن أفريقيا؟

ج: إنّ التشكيلات الحوزوية التي كانت ترتبط بالسيد الإصفهاني ارتبطت بالسيد البروجردي، والخوجة الاثنا عشرية في أفريقيا كانوا يرتبطون بهذه التشكيلات، ولذلك كان رجوعهم للسيد البروجردي. ثم أصبح الرجوع إلى الإمام الحكيم من بعد وفاة السيد البروجردي، والسيد الشيرازي الذي لم يطل به العمر بعد السيد البروجردي إلا سنة واحدة وعدّة أشهر وتوفي في إيران.

ومرجعية الإمام الحكيم العامة لم تنف وجود مراجع آخرين في قم والنجف، إلاّ أنها مرجعيات مقتصرة ومحدودة، والمرجع العام كان هو الإمام الحكيم، وكما يعبّر عنه مرجع العصر في ذلك الوقت.

الإمام الحكيم وقضايا العالم الإسلامي

س: عودة ثانية إلى فعاليات المرجع الفقيد الإمام الحكيم وخدماته لعموم المسلمين والشيعة منهم على وجه الخصوص، في البلدان التي

لا تزال تنشد الاستقلال من نير الاحتلال الأجنبي، وكذلك للأقليات المسلمة في البلدان غير الإسلامية. ثم جهوده المضنية وخدماته لمسلمي فلسطين المغتصبة. حبذا لو تقدمون لنا التوضيحات اللازمة حول مجمل النشاطات والجهود التي قدمتها مرجعية الإمام الحكيم، وبالخصوص فيما يتعلق بالشأن الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية آنذاك؟.

ج: السؤال يتشعب إلى عدة نقاط:

الأولى: ترتبط بالإمام الحكيم وخدماته فيما يتعلق بالأوضاع الإسلامية العامة التي يعيشها العالم الإسلامي، فالإمام الحكيم ومنذ بداية تصديه للعمل وهو في سن العشرينات اشترك في حرب الجهاد ضد الانكليز عندما غزو العراق وحاولوا السيطرة عليه، فكانت معارك المجاهدين مقابل قوات الغزو الإنگليزي بقيادة العلماء والمراجع آنذاك، أمثال المرحوم آية الله العظمى السيد مهدي الحيدري، والسيد محمد سعيد الحبوبي، وكان الإمام الحكيم يشترك مع السيد الحبوبي باعتبار وجود العلاقة الخاصة معه، سواء العلاقة الروحية أم العلمية، وكانت هناك علاقة صداقة ومحبة بين والد الإمام الحكيم والسيد محمد سعيد الحبوبي، جعلت أن يكون الإمام الحكيم أشبه شيء بموضع الأمين العام لحركة السيد الحبوبي...

موقفه من قضية فلسطين

ثم واجه العالم الإسلامي بعد ذلك مشكلات كبيرة، من قبيل قضية فلسطين التي كانت من أهم مشكلات العالم الإسلامي بعد الحرب

العالمية الثانية...

وكانت بداياتها قبل الحرب العالمية، لكن تطور هذه المشكلة والعدوان على فلسطين وشعبها كان بعد الحرب العالمية الثانية، وهنا نجد أن الإمام الحكيم يتصدى لهذا الموضوع بكل أبعاده، وفي مختلف المراحل، سواء في بداية هذه القضية، حيث ساهم مع بقية العلماء بإدانة العدوان الصهيوني ضد فلسطين، وطالب بنصرة الشعب الفلسطيني والوقوف إلى جانبه، أم عندما تطورت الأحداث فأصدر فتاوى في إسناد العمل الفدائي الفلسطيني ودعمه بكل الوسائل والإمكانات.

وكان أول مرجع عام يصدر فتوى صريحة وواضحة في إسناد هذا العمل الجهادي، وجواز المشاركة في الجهاد ضد الصهيونية.. ثم أردف فتواه بفتوى أخرى يجيز فيها صرف الزكاة والحقوق الشرعية في العمل الفدائي...وأنا لا أعرف أن هناك مرجعاً عاماً من مراجع شيعة أهل البيت عليهم السلام أصدر مثل هذه الفتوى في ذلك الوقت لدعم العمل الفدائي.

وبعد أن تجاوز الصهاينة على القدس الشريف واستولوا على الحرم الشريف نرى الإمام الحكيم يرسل مندوبين عنه للمشاركة في المؤتمرات، ويصدر بيانه بذلك الشأن يستنكر فيه كل الأعمال الصهيونية الشنيعة.

وكان السيد مهدي الحكيم مندوب الإمام الحكيم في مؤتمر الأردن بعد دخول الصهاينة إلى الحرم الشريف، وقدم تحليلا كاملا عن

الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي بشكل عام والعالم العربي بشكل خاص، والأسباب التي أدت إلى وقوع هذه الحادثة، ودعا المسلمين بشكل واضح وصريح إلى الرجوع للإسلام، وتحكيمه باعتباره المنقذ الوحيد لما يمرّ به المسلمون من مآس، وأودع تحليله هذا في كرّاس يوضح فيه الأطروحة بشكل كامل، مضافاً إلى النداء الذي وجهه الإمام الحكيم في هذا المجال.

كما تبنى الإمام الحكيم المنظمات الفلسطينية المجاهدة العاملة في الساحة الإسلامية، وعلى وجه الخصوص العاملة منها في العراق، بحيث أنَّ مندوبي وممثلي منظمة التحرير كانوا يراجعون الإمام الحكيم في شؤونهم، وقمنا آنذاك بحملة واسعة لجمع التبرعات لإسناد العمل الجهادي الفلسطيني في العراق إلى أن جاء العفالقة وحكموا العراق...

أخذ البعثيون في العراق يضيّقون على الفلسطينيين وعلى العمل الجهادي الفلسطيني، وحاولوا حصر الأمور بيدهم، فلم يسمحوا لأية جهة بالتحرك ليسيطروا على الوضع الفلسطيني، ولا زلت أذكر أن مندوب منظمة التحرير الفلسطينية وفَدَ على الإمام الحكيم وهو يبكي، حاملا كتاباً سرياً كان قد صدر من (مجلس قيادة الثورة) معمماً إلى جميع دوائر العراق الحكومية يبيّن فيه حدود العمل الفلسطيني، فطلب المندوب من الإمام الحكيم أن يتوسط لدى الحكومة ويضغط عليها من أجل رفع يدها عن هذا الأمر، فطرح الإمام الحكيم هذا الموضوع خلال اللقاء الذي جرى بينه وبين رئيس الجمهورية آنذاك.

وكانت قضية فلسطين من القضايا الرئيسة والمهمة التي دعا إليها

الإمام الحكيم، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار الموقع الفلسطيني المجاور لمنطقة جبل عامل في لبنان التي يقلد جميع أبنائها الإمام الحكيم، وكان السيد موسى الصدر في بداية ذهابه إلى منطقة جبل عامل وقتذاك وكيلاً للإمام الحكيم في هذه الحركة، ووجدنا أنَّ أبناء جبل عامل يستضيفون الفلسطينيين إلى درجةٍ بحيث أصبح الفلسطيني هو صاحب المنزل وله القدرة والمنزلة هناك، في الوقت الذي لم يقبلهم الأردن ولا سوريا ولا مصر، ولا أيةُ جهةٍ أخرى، ما خلا أبناء الشيعة في جبل عامل. حتى أصبح مركز منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، مع كون مركزها الأول كان في البدء في القدس الشرقية، ثم في الأردن ثم انتقلوا إلى لبنان.

فكان للإمام الحكيم الدور الكبير في هذا الأمر...

دوره في دعم مسلمي الهند وباكستان

الثانية: للإمام الحكيم أدوار هامة ومواقف بارزة في قضايا المسلمين في باكستان والهند، كما هو الأمر في قضية كشمير واستيلاء الهند عليها، فكان موقف الإمام الحكيم هو إسناد المسلمين في مقابل الهنود، سواء على المستوى السياسي ـ إذ كان حديثه مستمراً مع الحكومة والسفارة الهندية ورعاية الشأن الإسلامي في كشمير ـ أم في الموقف العام المعنوي والروحي في مواجهة هذا الاحتلال الهندي لكشمير، وكان المرجع الثاني لمنطقة شبه القارة الهندية أيام المرحوم السيد البروجردي كما ذكرت.. فكانت هذه البلدان تشترك في المرجعية الدينية بين الإمام الحكيم وبين البروجردي.

الثالثة: مواجهة التيارات الإلحادية التي عمت العالم الإسلامي بسبب ظروف الصراع بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي، باعتبار أنَّ الغربيين كانوا يسيطرون ويتسلطون على العالم الإسلامي، وكثير من المستضعفين كانوا يجدون أن الملجأ لمواجهة الاستعمار والاستكبار الغربي هو الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وهذا اللجوء لم يكن سياسياً فقط، بل كان في كثير من الأحيان ينجر - بسبب حالة الوقوع تحت التأثير الفكري للشيوعيين والماركسية - إلى الإلحاد ومحاربة الدين..

فهؤلاء يحاولون أن يقدِّموا المساعدة للناس في التحرر من الاستعمار الغربي، لكنهم سقطوا تحت تأثير الأفكار الإلحادية التي يتبناها الشيوعيون.

فكان للإمام الحكيم دور كبير ودقيق في هذه المسألة؛ لأنه من ناحية يحاول أن يحافظ على المواجهة مع الغربيين والدول الاستعمارية، ومن ناحية أخرى يحافظ على دين الناس وثقافتهم وأوضاعهم العامة، وتمكن من ذلك في العراق وانعكس الأثر الكبير على كل من أفغانستان، وباكستان، ولبنان، وإيران، جرّاءَ الفتوى الكبيرة التي أصدرها فيما يتعلق بتحريم الانتماء للحزب الشيوعي، والتي جاء فيها: (الشيوعية كفر وإلحاد) أو ترويج للكفر والإلحاد.. فكان لهذه الفتوى الأثر الكبير في عزل الحزب الشيوعي من ناحية، ومن ناحية ثانية أخذ يتصدى للأمور السياسية العامة لمواجهة الحكومات العميلة

للغرب وللاستكبار، وقد صدرت هذه الفتوى عام ١٩٥٩م.

موقفه من الاشتراكية

وعندما جاء البعثيون إلى الحكم في العراق أصدر الإمام الحكيم فتواه بتحريم الاشتراكية عام ١٩٦٥م وكذلك عندما عاود البعثيون حكمهم للعراق عام ١٩٦٨م أفتى في مقابل هذا الحزب.

كان لفتاوى الإمام الحكيم أثر كبير جداً في العالم الإسلامي، فبدأت الحركة مقابل الشيوعية في أفغانستان بزعامة السيد محمد سرور الذي استشهد، وهو المعروف بالواعظ وهو من كبار علماء أفغانستان..

كان السيد سرور في النجف الأشرف ومن طلاب الإمام الحكيم وتبنى خطَّه، ثم ذهب إلى أفغانستان في وقت كانت الشيوعية نشطة هناك، ولما جاء داود خان للحكم قاومه السيد سرور حتى يوم اعتقاله...

وكذلك كان الأمر مع الشيخ محسن آصف ودوره في هذا الموضوع.

وفي لبنان انطلق السيد موسى الصدر، والسيد محمد حسين فضل الله، والشيخ شمس الدين، وغيرهم من العلماء لمحاربة التيار الشيوعي مع المحافظة على المواجهة مع الحالة الغربية..

ونفس الأمر كان في باكستان، إذ جاءها السيد مهدي الحكيم، وكان الرائج في الأوساط الشيعية في باكستان هو تبني الأفكار اليسارية والاشتراكية، وكانت القاعدة الواسعة لحزب الشعب الذي يرأسه ذو الفقار علي بوتو (والد بينظير بوتو) من الشيعة..

ودخل الإمام الحكيم إلى باكستان من خلال نجله السيد مهدي

الحكيم، الذي قام بحملة واسعة من الخطابات والبيانات، وجمع العلماء ليشكل جبهة دينية إسلامية مقابل التيار الشيوعي في باكستان.

الرابعة: النقطة المرتبطة بالمناطق الشيعية التي كانت تمثل أقليات، بل كانت مجهولة في العالم الشيعي...

الترويج للمذهب

وكنموذج لذلك منطقة شمال العراق، باعتبار أنها كانت منطقة محكومة للعثمانيين من ناحية، وقريبة من تركيا من ناحية أخرى، وهي منطقة سنيّة وفيها أقليات شيعية، وبالتدريج - ونتيجة لعوامل شتى- نُسيت هذه الأقليات، والبعض من أبنائها انحرف في فكره الشيعي، وصارت منهم مجموعة تسمى بـ(الشبك)، ومجموعة بقيت على التشيع، لكنها لاتمارس أي واجب من الواجبات الإسلامية العامة، فلا يوجد عندهم مساجد وصلوات ولا حج، كما يمارس ذلك أتباع أهل البيت عليهم السلام، فبرز دور الإمام الحكيم وتوجهه الخاص لهذه المناطق، وتمكن أن يقوم بحركة مهمة جداً وسعي دؤوب متواصل، ومن خلال علاقاته القوية التي أقامها مع الأوساط السنية وعلمائها، حيث أوجد عدة مراكز شيعية هناك، في تلك الظروف الصعبة باعتبار أن الحكومة كانت تمنع إقامة مساجد للشيعة في تلك المناطق...

أما بالنسبة للمناطق المعزولة كمنطقة الموصل، ففي منطقة (تلعفر) أقيم مسجدان، وفي - سنجار- وهي المنطقة المشتركة بين اليزيدية و السنّة، وفيها أقلية شيعية صغيرة أقيم مسجد، وصارت تعقد في هذه

المساجد صلوات الجماعة وانتشر أثرها بين أوساط الشيعة هناك، حتى بلغ الأمر أن يؤدوا العبادات كالحج، وأن يبعثوا بأبنائهم إلى مدينة النجف الأشرف لطلب العلم، ويوجد من أبنائهم الآن في هذه المناطق بعض العلماء والمبلغين ويمارسون النشاط السياسي...

ومن نماذج هذا العمل منطقة العلويين في سوريا، وهم من أصول شيعية إمامية اثني عشرية، ولكنهم تعرضوا لمشاكل تأريخية وعُزلوا بسبب ظلم العثمانيين، وقبلهم في زمن الأمويين، ثم صلاح الدين الأيوبي، وما تعرضت له سوريا من مشاكل كثيرة، أدّى كل ذلك إلى عزل هؤلاء العلويين في الجبال ثم أصبحوا تدريجياً بعيدين عن كل المعالم الإسلامية، فلاوجود لمسجد في بلادهم ولاصلوات أو ممارسات دينية، وكانوا يعرفون أسماء الأئمة فقط، لكن لديهم أفكاراً غريبة جداً، نتيجة هذا البعد الثقافي وهذه العزلة...فتحرك الإمام الحكيم باتجاه هذه المنطقة، وأرسل قبل كل شيء الشريف عبد الله، وهو من سادات حضرموت، فأسس الجمعية الاثني عشرية، وقد أعطاه الإمام الحكيم وكالة، ثم أسس لهم مسجداً، وبعده أرسل الشيخ حبيب آل إبراهيم، وهو من كبار علماء لبنان الذي بالغ في اهتمامه بهذه المنطقة، وطلب إرسال أبنائها إلى النجف للدراسة في حوزة النجف الأشرف...

هذه القضية مرّ عليها (٤٥ عاماً) وبالفعل قدم منهم عشرة، إلاّ أنه لم يتمكن إلاّ شخص واحد منهم من مواصلة درسه في النجف، وذلك لظروف المعيشة وأوضاعهم السياسية والاجتماعية والدينية، وهكذا حتى قدم عشرة آخرون فبقي منهم اثنان وهكذا.. إلى أن

تطورت الحالة الدينية لدى العلويين بفضل هذه الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام الحكيم.

والنموذج الثالث لهذا الموضوع هو ما حصل في أفريقيا، فالإمام الحكيم ومن خلال علاقاته بشيعة أفريقيا، سواء الخوجة الاثنا عشرية وهم بالأصل مهاجرون من بلاد شبه القارة الهندية لأفريقيا الشريقة، أم علاقاته بالشيعة اللبنانيين الذين هاجروا إلى منطقة غرب أفريقيا..

وطلب الإمام الحكيم من كلتا الجماعتين الاهتمام بقضية الشيعة والتشيع في القارة الأفريقية، واذكر أنه قبل سنتين (١٩٩٥م) كانت لي زيارة للعراقيين الشيعة في لندن، فكان الملا أصغر رئيس الخوجة، ذكر في خطابه خدمات الإمام الحكيم قائلا: **(هو أول عالم طلب منّا أن نفتح على الشيعة وننشر التشيع خارج حدود الخوجة الاثني عشرية)**، ثم عرج يذكر التطور الكبير الذي حدث في أفريقيا من الناحية الشيعية منذ شروع الإمام الحكيم في هذا المجال.

وحصل نفس الشيء في مناطق سيراليون، وساحل العاج وغينيا، وكينيا الشرقية وأوغندا، وتنزانيا (كانت تسمى رنجانيق وزنجبار سابقاً، ثم اتحدتا في تنزانيا الحالية) حيث أصبح التشيّع في جميعها ظاهرة واضحة في أفريقيا بسبب العمل الذي قام به الإمام الحكيم.

تعريف التشيع للعالم السني

أما فيما يتعلق بالشق الثالث للسؤال، وعن تعريف التشيّع إلى العالم السني؟.

فالإمام الحكيم قام بحركتين رئيسيتين:

الأولى: في لبنان باعتباره بلداً يشترك فيه الشيعة والسنة وكذلك الوجود المسيحي، والشيعة لديهم الحرية باعتبار وجود الاعتراف الرسمي بوجودهم في لبنان كما للبقية أيضاً.

فمن خلال وكلائه قام الإمام الحكيم بالتحرك على المؤسسات السنيَّة المعروفة في لبنان، ومنها على سبيل المثال **(جمعية المقاصد الإسلامية)** وهي أكبر جمعية إسلامية في لبنان على الإطلاق، فأرسل مجموعة كبيرة جداً من الكتب للمكتبة العامة الموجودة في هذه الجمعية، كما كان له نفس التحرك على المكتبة الوطنية اللبنانية للتعريف بمذهب وفقه أهل البيت عليهم السلام، حتى صارت المصادر الشيعية ميسورة التناول هناك.

الثانية: التحرك على مصر، وخصوصاً جامع الأزهر والمؤسسات التابعة له في مصر، ولأول مرّة يتمّ إدخال المصادر الشيعية إلى هذه المكتبات لتكون في متناول الأيدي، وذلك بفضل جهود الإمام الحكيم، وكذلك إرساله الطلاب من العراق من خريجي كلية أصول الدين والفقه للدراسة في القاهرة، مما شجع على التعريف بالتشيع وساهم فيه أيضاً.

كان للإمام الحكيم دور كبير في صدور فتوى الشيخ محمود شلتوت في موضوع الاعتراف بمذهب الإمام جعفر الصادق كمذهب يصح الأخذ به وهو مبرئ للذمة.

وسبق لي وأن ذكرت في مقابلات ولقاءات أخرى بأن الإمام

البروجردي كان له دور سابق في هذا المجال، من خلال تأسيس دار التقريب بين المذاهب في القاهرة، وكذلك الشيخ محمد تقي القمي، وكان لهما دور التمهيد، إذ بقي الموضوع في حدود الأبحاث العلمية والنشر في الصحافة، حتى صدرت الفتوى.

وما قام به الإمام الحكيم من خلال مواقفه في العراق حيث كان هناك صراع بين الشيوعيين والقوميين داخل العراق، ومعروف أن عبد الناصر كان يتبنى التيار القومي، فالإمام الحكيم باعتبار موقفه من الشيوعية والشيوعيين في إصداره فتواه عام ١٩٥٩م كان له انعكاس كبير على القاهرة، وعبد الناصر بشكل خاص.. وهو ما دفع بعبد الناصر لأن يعطي الضوء الأخضر لشلتوت بإصدار الفتوى، وكما هو معروف فإن شيخ الأزهر يرتبط عادة بالحكومة وسياستها ولا يمكنه أن يتخذ قراراً كبيراً دون أنّ يكون هناك ضوء أخضر من الحكومة، وهذا الموضوع صرّح به أحد معاوني ومساعدي عبد الناصر بقوله: انّ هذه الفتوى صدرت بعد الحوادث التي وقعت في العراق وبعد موقف الإمام الحكيم منها.

ولذلك نجد أن حكومة شاه إيران بعد إصدار فتوى الإمام الحكيم - وتحديداً في عام ١٩٦٠ ميلادي - وافق على فتح مكتب تجاري لإسرائيل في طهران.. وهنا يبعث الشيخ محمود شلتوت ببرقية إلى الإمام الحكيم - مع وجود السيد البروجردي في إيران وهو المرجع الأكبر آنذاك - ويطلب من الإمام الحكيم التدخل في هذا الأمر، فيرسل الإمام الحكيم برقية لعلماء إيران - وقتها كان الميرزا أحمد

الاشتياني في طهران - للتدخل في إغلاق ذلك المكتب، وكذلك التحدث مع حكومة الشاه خلال الوسائط المتعددة باحتجاج شديد، ولا أعرف على مستوى النشر والإعلان أي مرجع آخر احتج على هذا الموضوع آنذاك، ولعلّ مرض السيد البروجردي كان السبب في عدم تدخله واحتجاجه..

فالإمام الحكيم هو المرجع الوحيد الذي تصدى لهذه الحادثة وهي مهمة جداً لعالم التشيع والعالم الإسلامي؛ لأنه لم تكن هناك دولة إسلامية تعترف بإسرائيل إلاّ تركيا..

كما أن للإمام الحكيم خطوات أخرى كتحركه على المملكة العربية السعودية، وبالخصوص أيام (فيصل) الذي كان يعد من الملوك أصحاب الحس الوطني ولو بقدر محدود، والملك فيصل له الدور الأكبر في الحرب التي نشبت عام ١٩٧٣م ضد إسرائيل، وهو الشخص الأول الذي ساند مصر، ويقال أنّ الملك فيصل إنما قتل (اغتيل) بتخطيط من الـ **(C.I.A)** لموقفه ضد إسرائيل.

الإمام الحكيم كان يشخص الحالة من خلال مستشاريه أمثال: السيد موسى الصدر، ومعرفته بأنَّ الملك فيصل له وضع يختلف عمَّن سبقه، فحاول أن يفتح علاقات مع الملك فيصل؛ لأجل التعريف بالشيعة والتخفيف من الضغوط التي كانت تمارس ضدهم في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية كالأحساء والقطيف..

كانت للإمام الحكيم تجاه الحركة الوهابية مواقف كثيرة تأتي ضمن المواقف العامة لعلماء الشيعة، وكذلك مواقفه باعتبار وجود العدد

الكبير من الشيعة في مناطق المملكة، وهم يرجعون إليه بالتقليد، وهناك قضية مهمة أخرى هي مسألة البقيع وبناء مراقد أئمة البقيع عليهم السلام فكان الإمام الحكيم يسعى وبشكل خاص إبّان فترة حكم الملك فيصل إلى ذلك، فاجتمع السيد موسى الصدر والسيد مهدي الحكيم بالملك فيصل وتباحثا معه الأمر، فكان يبدي انفتاحه ورغبته في العلاقة مع الشيعة إجمالاً، والموجودين في القطيف والأحساء خصوصاً، وأعطى وعوده في أن يحصل تغيير وتحويل تجاه التعامل مع مسألة مقبرة البقيع، فقاموا ببناء سور البقيع ولأول مرة تبنى المظلة التي كانت عند المدخل قبل عشرين سنة، ليقف تحتها الزوار خارج البقيع، لتحميهم من حرارة الشمس..

كل هذا مع ما تعرفونه من أن علماءهم (السعودية) يمنعون ذلك ويرون أنه حرام، فدخل فيصل في صراع مع علماء الوهابية، فهو من جوانب أخرى أراد أن يوجد بعض التحولات في الوضع الداخلي للمملكة كتعليم البنات مثلا، وهم يحرمون تعليم الإناث، فأسس مدارس للبنات في أيام حكمه، وهي فرصة أوجدت هذا النوع من التطورات الأخرى.

التحرك السياسي للإمام الحكيم

هناك محوران آخران هما:

الأول: فيما يتعلق بالتحرك السياسي للإمام الحكيم في الأحداث والتحولات السياسية التي مرّ بها العراق آنذاك...

والثاني: حول علاقة الإمام الحكيم بالنهضة المقدسة للشعب الإيراني، وولاية العلماء الشيعة وتحركهم في إيران..

في هذا الموضوع كان الإمام الحكيم يرى ضرورة ووجوب إقامة الحكم الإسلامي، ومن الأمور المهمة في التأريخ السياسي للإمام الحكيم‌قدس‌سره أنه اشترك شخصياً في جهاد ومقارعة الانكليز، لكنه لم يشترك في الثورة العراقية عام ١٩٢٠ ميلادي.

وإذا أردنا أن ندقق في مسألة عدم اشتراكه في الثورة هذه نجد أن ذلك يعود إلى أنه كان يرى بأن الثورة العراقية ثورة وطنية ولم تكن إسلامية، وهو ما تبيّن بعد ذلك بشكل جلّي وواضح من خلال مجريات الأحداث، فلقد ذهب الانكليز، لكنهم جاؤوا بالملك فيصل من الحجاز، وفيصل هو ابن الشريف حسين داعية القومية العربية في العالم العربي، وفي الوقت نفسه هو الذي دخل في حرب ضد الدولة الإسلامية العثمانية تأييداً وانتصاراً للإنكليز..

أقول: كان هذا هو رأي الإمام الحكيم في ثورة العشرين، وإنّ هناك من العلماء من اشترك أو أيد الثورة تصوراً منهم بإخراج الكافر الإنكليزي والإتيان ببديله الإسلامي، فكان هناك اختلاف فيما بين العلماء والمراجع بخصوص هذه الواقعة..

الإمام الحكيم كان يعرف جيداً أن عملية إخراج الإنكليز لم تكن بالضرورة ملزمةً لمجيء حكم إسلامي، بل يمكن أن يأتي أشخاص آخرون غير الإنكليز، دون أن يكون حكمهم إسلاميا.

موقفه من المشروطة

س: وفيما يتعلق (بالمشروطة) في إيران؟.

ج: الأمر يختلف عما كان في العراق، ففي المشروطة طرحت - ومنذ بداية الأمر- مسألة أن يكون هناك حكم دستوري ومشروط بالدستور والقوانين..

أما في العراق فكان المطلب الأول هو إخراج الإنكليز، ولكن العلماء اختلفوا من بعد الثورة بفترة قصيرة، فمنهم من انسحب كشيخ الشريعة، وآخرون حرّموا الدخول في الانتخابات والإتيان بالملك، ثم حاربهم الملك وأخرجهم ونفاهم وأبعدهم من العراق، ولم يبق منهم إلاّ الشيخ مهدي الخالصي ومجموعة من علماء الكاظمية..

كان الشيخ مهدي الخالصي رجلاً متديناً، لكنه قال: أنا أشترط على الملك شروطاً، منها أن يعمل وفق أحكام الإسلام وغيرها، فإذا قبل بها الملك فانا أكون معه، وإذا لم يقبل فسأكون ضده، فقبلوا بهذه الشروط، وعندما استحكم أمر الملك نقض الشروط.

المقصود من كل هذا هو أن الإمام الحكيم كان يشعر ومنذ البداية أن هذا الحكم ليس إسلاميا، وإنما هو حكم وطني، وعليه لم يشترك في موضوع الثورة.

ن ظ ر ي ت ه في ا لحك م

كان الإمام الحكيم يرى أن الفقيه له الولاية من باب أن المجتمع لا يبقى بدون حكومة ويجب أن يكون الحكم إسلاميا والحاكم فيه هو الفقيه، ومن هنا كان يؤيد الأحزاب الإسلامية الداعية إلى إقامة

الحكم الإسلامي، و لذلك أيَّد الأحزاب الإسلامية السنية.

ففي أيام عبد الكريم قاسم تأسس حزب إسلامي سني في العراق - وقادته كلهم من السنّة - فاستقبلهم الإمام الحكيم وأظهر معهم نوعاً من العلاقة المتضمنة تأييدهم عملياً من خلال سلوكه معهم.

وهكذا حاله مع بعض الأحزاب الإسلامية الشيعية الداعية إلى إقامة الحكم الإسلامي، فقد أيدها، ولكنه اشترط أن تكون قياداتها معروفة لدى الناس لئلا يقعوا في انحراف أو ضلال وما شابه ذلك.

فالإمام الحكيم كان يؤيد هذا النوع من التحرك الإسلامي، ولكن يشترط أن يكون على رأس الحكم الفقيه الجامع للشرائط، وفي بياناته - أو ما يعبر عنه بالخطاب السياسي - ما يدل بوضوح على تأكيده الكبير بخصوص إقامة الحكم الإسلامي. وهذا الأمر مثبت في بياناته المطبوعة، وفي الخطابات التي كانت تلقى بالنيابة عنه، ومنها ما هو موجود في تقارير السفارات في العراق..

فقبل أيام كنت أقرأ أحد تقارير السفارة البريطانية التي بعثتها لوزارة الخارجية البريطانية سرّاً - والذي نشر مؤخراً - جاء فيه الحديث عن حركة الإمام الحكيم السياسية ودعوته لإقامة حكم إسلامي في العراق، وكذلك يظهر هذا التقرير قلق البريطانيين من هذا التحرك آنذاك.

الإمام الحكيم كان يرى بأن هناك ثلاث خطوات من الناحية العملية الواقعية للوصول إلى الهدف الإسلامي، باعتبار وجود التعقيدات داخل الوضع العراقي، والتي لاتشابهها الحالة الموجودة في

إيران أو مصر مثلاً..

الوضع في العراق يتشكل من عدة طوائف، الأكثرية فيها هي الشيعة، لكنها مستضعفة محكومة طيلة قرون، وليست كشيعة إيران الأكثرية الساحقة الحاكمة..

وهناك طوائف في العراق منها السنية والكردية ونسبتها كبيرة في العراق بالقياس إلى سنة وأكراد إيران، فالسنّة في إيران تبلغ - على أكثر تقدير - ١٠٪ أما وجودهم في العراق فهو يتراوح بين ٣٥ - ٤٠٪..[1].

ولذلك اتخذ الإمام الحكيم عدة خطوات لتوضيح نظريته في الحكم وهي:

الخطوة الأولى: أن يخرج أبناء الشيعة من عزلتهم عن الحالة الاجتماعية، ويدخلوا في العمل السياسي.

فقد كان أبناء الشيعة معزولين نتيجة لظروف القمع والهيمنة من قبل الحاكمين، وكانوا يهتمون بشعائرهم الدينية وممارساتهم الحياتية دون الدخول في مسائل الحكم، فكان الإمام الحكيم يرى ضرورة إرجاع الحالة الشيعية إلى الاهتمام العام وإخراجهم من العزلة.

الخطوة الثانية: المطالبة بالحقوق، كالحقوق الدينية، والثقافية والمدنية والسياسية، فشرع الإمام الحكيم يطالب ويشجع على المطالبة بهذه الحقوق المهضومة للشيعة.

الخطوة الثالثة: تنشيط الحالة السياسية الشيعية حتى في العناصر غير المتدينة؛ لحثِّهم على المطالبة بالحقوق المشتركة بالنسبة لكل أفراد

---

(١) هناك تقديرات حديثة تقول: إن نسبة العرب منهم تصل ١٠٪أو أقل..(**المؤلف**).

الشيعة، فنهض بتنشيط وتشجيع هؤلاء، وإدخالهم في العمل السياسي المشترك بين المتدينين وغير المتدينين.

فهو يرى أن هذه الخطوات، هي التي توصل إلى الحكم الإسلامي. وأما على مستوى الشعار والمفهوم السياسي فكان الإمام الحكيم يطرح إقامة الحكم الإسلامي وتحكيمه، ويخاطب بذلك دول العالم الإسلامي، وتحرك وفق ذلك.

آلية التحرك عند الإمام الحكيم

أما الوسائل التي كان يراها مناسبة في هذا التحرك فهي:

الوسيلة الأولى: تشكيل المجموعات السياسية المتحركة في الساحة على شكل أحزاب أو جمعيات.

الوسيلة الثانية: تصدِّي العلماء في البلاد الإسلامية المختلفة للقضايا السياسية، كتصديهم للقضايا الدينية والثقافية وأمور الناس الأخرى.

الوسيلة الثالثة: تثقيف الأمة على القضايا السياسية من خلال إقامة الاحتفالات العامة والمهرجانات والمسيرات الاحتجاجية، وهذا ما يؤدي إلى تحريك وتفعيل الأمة.

الوسيلة الرابعة: تخصيص بعض الشخصيات للعمل السياسي، كإشراك الحالة الحوزوية في القضية السياسية ومتابعتها.

الوسيلة الخامسة: إيجاد روابط وعلاقات في الأوساط السياسية الأخرى، كإيجاد العلاقات مع الأكراد والمجموعات العربية السنيّة على مستوى العلماء والأحزاب والشخصيات السياسية...

هذه الوسائل استخدمها الإمام الحكيم وفعّلها في خطوات للوصول إلى الأهداف.

إخراج الأمة من عزلتها

عندما تصدَّر الإمام الحكيم المرجعية العامة كانت الأمة في العراق تشكو من مشاكل وقضايا عديدة تأتي في مقدمتها عزلة الأمة عن الأوضاع السياسية داخل العراق؛ لأن الشيعة رغم أنهم الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب العراقي إلاّ أنهم كانوا يعتبرون أقلية في الدولة العثمانية الحاكمة، وكانوا يتعاملون مع الشأن السياسي العراقي من موقع الأقلية، وبقيت هذه الحالة - إلى حد كبير - حاكمة على أوضاع الأمة في العراق، خصوصاً بعد إخراج العلماء ونفيهم من العراق على ما ذكرت آنفاً.

هذا الأمر كان سبباً في السعي والعمل لأجل المسك بمواضع القدرة، وهو يحتاج إلى البرمجة والتخطيط الدقيق، وأن يكون تدريجياً للوصول إلى النتائج المطلوبة، وعليه فقد أقدم الإمام الحكيم على تعبئة الأمة وإخراجها من حالة العزلة إلى الاهتمام بالقضايا السياسية، ثم بدأ يطرح ضرورة أن يكون الحكم في العراق حكماً إسلاميا، والإسلام هو الحاكم..

وانطلق الإمام الحكيم ينظم أبناء الشعب العراقي، لأجل تحقيق هذا الهدف، معتمداً على عدة خطوط أهمها:

أولا: تأسيس الحركة الإسلامية في العراق ورعايتها.

ثانياً: تنظيم أبناء العشائر العراقية الذين يمثلون القوة والقدرة الشيعية التي يمكن أن تكون هي القوة المواجهة للحكم، ولذلك تأسست أيام الإمام الحكيم حركة (أبناء ثورة العشرين).

ثالثاً: قام الإمام الحكيم بتحريض وحث الشخصيات السياسية ذات الطابع الوطني في العراق للتصدي ومواجهة الحكم، وأبرز مثال على ذلك دعوته الشيخ محمد رضا الشبيبي وهو من الشخصيات العلمية والوطنية المعروفة والبعيدة عن الارتباط بالاستعمار أو الحكام الجائرين، ولكنه توفي في بداية تصديه لهذا العمل.

هذه الحركة بمجموعها جعلت للأمة القدرة على المواجهة، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن النظام كان يمثل نظام الأقلية بالعراق، وهم السنّة العرب، وكذلك كان الجيش يمثل القوة التي يستخدمها النظام للسيطرة والهيمنة على الشعب..

ولمعالجة موضوع الطائفية وقدرة الأقلية في ذلك قام الإمام الحكيم بإيجاد علاقات حميمة مع الأوساط الدينية السنية، فأقام علاقات مع علماء السنة العرب، ومع أوساط الحركة الإسلامية السنية المنظمة من قبيل الحزب الإسلامي الذي تأسس في العراق، وكذلك أوجد علاقات مع بعض رؤساء العشائر العراقي السنية للتأثير على نظام الحكم في هذا الخصوص..

هذه الأعمال والنشاطات التي مارسها الإمام الحكيم جعلته يبدو أمام الناس أنه أصبح قريباً من استلام الوضع في داخل العراق، وأتذكر كلمة للإمام الخميني في هذا المجال، وذلك حين قمت بزيارته

في إيران، حيث قال: (**إني كنت أنتظر من خلال ما شاهدت من حركة شعبية، أن يقوم الحكم الإسلامي في العراق قبل قيامه في إيران)**.

ولكن الاستعمار كان يخطط، والأعداء جاؤوا بحزب البعث العفلقي الكافر للحكم؛ لأجل ضرب هذه الحركة والقضاء عليها، ولذلك قام حزب البعث بالأعمال الشنيعة، وتصفية الحوزة العلمية، ومحاصرة العلماء وتهجيرهم، وغيرها من الممارسات الوحشية...

وهناك مجموعة من الوثائق التي نشرت مؤخراً من قبل وزارة الخارجية البريطانية بعد مضي (٣٠ سنة) من الزمن عليها تتحدث عن هذه الفترة ما بين سنة ١٩٦٣م إلى ١٩٦٧م، وعدد الوثائق كان يتراوح ما بين ٦٠ إلى ٧٠ وثيقة، تؤكد على أن الإمام الحكيم كان يسعى للوصول إلى القدرة داخل العراق، وكان له سعي متواصل في هذا المجال انعكس على الأوضاع الشعبية، وعلى مستوى السفارات والديبلوماسيين في العراق.

س: وهل هناك ما يؤكد نشاط الإمام الحكيم في هذا الخصوص غير الوثائق المنشورة من قبل الخارجية البريطانية؟.

ج: حديث الإمام الحكيم هو من جملة القضايا الواضحة بهذا الشأن، فكل من يقرأ ويقف على حديثه مع طاهر يحيى رئيس الوزراء العراقي آنذاك - والذي جاء يزور الإمام في الكوفة - يجد أن ما طرحه الإمام الحكيم كان واضحاً وبشكل قوي وصريح، حيث قال: **(نحن نسعى لإقامة الحكم الإسلامي ولانرتضي غيره بديلا، والشعب العراقي لايرضى إلاّ هذا الأمر)** وهذا الحديث نشر وقتذاك من قبل

الإمام الحكيم.

إن فعاليات الإمام الحكيم السياسية وما قام به من إنجازات يحتاج إلى حديث طويل جداً ومفصل؛ لأنه من الموضوعات المهمة جداً، خصوصاً إذا ما عرفنا أن له جذوراً تمتد إلى ما قبل مجيء حزب البعث العفلقي للعراق بحوالي ٢٠ عاماً، من سنة ١٩٤٨م - ١٩٦٨م، وخلال هذه الفترة كانت أحداث العراق تتوالى وتتصاعد بتحولات سياسية هامة، كتحول الحكم من الملكي إلى الجمهوري، ومجيء جمال عبد الناصر للحكم بعد سقوط الملكية في مصر، وكذلك التحولات التي حدثت في إيران من خلال مجيء حركة محمد مصدق، وآية الله كاشاني، ثم حركة الإمام الخميني عام ١٣٤٢ هـ ش (١٩٦٣م)، وهنا أشير إلى بعض القضايا الرئيسية والمهمة في هذا الموضوع

مؤامرة المجيء بحزب البعث

أولاً: إنّ حزب البعث - وبعد أن تمكن عبد الناصر من الهيمنة المعنوية على الأوضاع في البلاد العربية - وُجد وجيء به من قبل الاستعمار كبديل يتمكن أن يواجه عبد الناصر من داخل الحركة القومية العربية. وجيء بهذا الحزب البديل لأسباب متعددة أهمها:

أ) إنّ حزب البعث يعتمد في فكره النظري على الفلسفة الماركسية الشيوعية، ولذلك تمكن أن يستقطب الاتجاه العربي اليساري المرتبط بالماركسية والتي كان لها نفوذ في المنطقة العربية.

ب) إنّ حزب البعث يعتمد من الناحية الفكرية على النظرية

الاشتراكية الإصلاحية التي تتبناها أوروبا الغربية، وهي فكرة الأحزاب الاشتراكية الأوربية التي تتبنى الإصلاح لا الانقلاب والثورة، كما يتبناهما الماركسيون، وعليه كان حزب العبث تركيباً من الفلسفة الماركسية والأفكار الغربية الإصلاحية التي يدعو لها الاشتراكيون الغربيون؛ ليتمكن من كسب الرأي الغربي، والرأي العربي اليساري - كما ذكرت - فحزب البعث حاول أن يجمع بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الغربي الديمقراطي ليدخل العالم العربي..

ثانياً: تمكن حزب البعث أن يستهوي مجموعة كبيرة من أوساط الشباب من الطبقة الوسطى في المجتمع العربي، **وهذه الطبقة تعتبر من الطبقات المتنفذة في المجتمع الإسلامي الذي يختلف عن المجتمع الغربي والمجتمعات الوثنية، والفارق بين الطبقات كبير جداً، إذ إن هناك طبقة نبلاء وأشراف وإقطاعيين، وطبقة عبيد ومسحوقين وفقراء..**

أما في المجتمع الإسلامي فالطبقة الوسطى هي القوية النافذة فيه، باعتبار وجود عدالة الإسلام وتأريخ هذه العدالة واستمرارها، فالإسلام تمكن أن يردم الهوة بين جميع الطبقات ويوجد الطبقة الوسطى..

ثالثاً: إنّ النظرية التي قام عليها حزب البعث استبطنت سحب القدرة من الجيش بالدخول إلى صفوفه في البلاد العربية، ثم اعتماد الجيش على الأقليات الموجودة في هذه البلاد..

وإذا أردنا أن ندرس هذه الظاهرة في العراق وسوريا فسوف

نلاحظ وضوحها في دخول الحزب إلى الجيش واعتماده على الأقلية العلوية في سوريا، والسنية في العراق، ومن هنا وجدنا حاجة الاستعمار وشعوره بضرورة وجود حزب البعث لملء الفراغ، ومن ثم دعم الاستعمار لحزب البعث من أجل مصادرة القدرة في بلاد العرب حتى تمكّن أن يستلم الأمور في سوريا ويصل إلى منابع القدرة في العراق، وكان يفترض أن يتعاضد ويتعاون هذان الجناحان للقيام بالمهمة ذاتها في بقية البلدان العربية، ولكن مشيئة الله تعالى اقتضت أن يختلفا فيما بينهما وتضعف هذه القدرة.

وعليه فعندما قام البعثيون بمحاولة قتل عبد الكريم قاسم ركَّز الاستعمار على الحدث، ودعَمَه إعلامياً من دون بقية المحاولات الكثيرة الرامية إلى القضاء على عبد الكريم قاسم..

موقف الإمام الحكيم من البعثيين والاشتراكية

الإمام الحكيم كان له موقف منذ البداية تجاه حزب البعث، حتى في الوقت الذي كان يقف فيه هذا الحزب في صف المعارضة لعبد الكريم قاسم، والإمام الحكيم كان يقف إلى صف معارضة عبد الكريم، بحيث إن الشيوعيين كانوا يتهمون الإمام الحكيم في موقفه هذا...

ثم جاء البعثيون إلى الحكم في العراق عام ١٩٦٣م، فتصدّى لهم الإمام الحكيم وكان المعارض الرئيس والقوي قبالهم، وكانوا يعتقدون أن الذي قضى على حكمهم عام ١٩٦٣ هو الإمام الحكيم الذي اكتسحهم بحركته إبان الاختلاف الذي حصل فيما بينهم وبين عبد

السلام عارف، هذا أولاً، وثانياً: إنَّ الأمر الذي نهض به الإمام الحكيم - والذي لم يقم به أحد من العلماء طيلة السنوات السابقة - هو العمل على مواجهة الاشتراكية وإدانته للفكر الاشتراكي..

فالفكر الشيوعي أدين من قبل العلماء، ومن قبل شخص الإمام الحكيم في فتواه الشهيرة، لكن الاشتراكية كمذهب سياسي واقتصادي لم يجرؤ أحد من المراجع والعلماء على أن يبدي فيها رأياً واضحاً في معارضتها، وذلك لنفوذها في الناس بشكل عام، فكان يؤيدها المعسكر الشرقي من ناحية، والغربي من ناحية أخرى، ثم وجود الأحزاب الكثيرة في العالم العربي والإسلامي، وهي تدعو للاشتراكية، وكذلك وجود الكثير من المصلحين ممن كان يدعو لها، حتى وجد منهم من خلط بين الإسلام والاشتراكية، قائلا: إنّ الإسلام اشتراكي أيضاً وهو (المصلح)، بصدد تعريف الاشتراكية..

فالإمام الحكيم هو المرجع الوحيد من علماء الإسلام جميعاً الذي أدان الاشتراكية وأصدر فتواه الواضحة، ثم قام بحركة سياسية كبيرة جداً ضد الاشتراكية، فلما أعلن عبد السلام عارف نظامه الاشتراكي في العراق تصدى له الإمام الحكيم بحركة سياسية على مستوى إصدار البيانات والبرقيات، وعلى مستوى إيجاد التظاهرات والاجتماعات العامة، وتلك الحركة معروفة ولها وثائقها وأسانيدها، ومن جملتها الرسالة التي كتبها الإمام الحكيم إلى السفير المصري عندما دُعي إلى المشاركة في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية، فقد تضمنت رسالته بيان أن الاشتراكية أمر غير صحيح، وكما ذكرت - سالفاً - فإنَّ البعثيين

تبنّوا الاشتراكية في حكمهم وجعلوها جزءاً من الدستور العراقي المؤقت الموجود إلى الآن..

وهناك موقف ثالث قام به الإمام الحكيم، هو القيام بعمل واسع من الناحية السياسية والثقافية لملء الفراغ في القاعدة التي يتحرك فيها البعثيون، وهي الطبقة الوسطى من الناس، فتمكن من كسب هذه الطبقة، وعليه فقد وجد البعثيون أنفسهم في عزلة من الناس عندما جاؤوا للحكم مرة ثانية في العراق، وكانت قدرتهم في وسط الجيش فقط، فلم تكن لهم قدرة حقيقية في أوساط الناس، حتى قيل: إنّ مجموع الذين جاؤوا للحكم في المرة الثانية لا يتجاوز ٧٠ شخصاً، كان لهم نفوذ قوي في الجيش، ومن خلال هذا النفوذ تمكنوا من بسط حكمهم وتوسيع دائرة حزبهم مستغلين الإجبار والقهر وإلزام الناس بالانتساب لحزب البعث..

فجاء البعثيون للحكم عن طريق الانقلاب العسكري مستفيدين من علاقاتهم بآمر الحرس الجمهوري لعبد السلام عارف[1]، الذي لم يكن بعثياً، لكنهم أقنعوه بتعاونهم معه في إصلاح الأمور وإشراكه في هذا المشروع، وبالفعل أصبح وزيراً للدفاع، وكذلك مع شخص آخر في الاستخبارات العسكرية هو عبد الرزاق النايف، الذي أصبح رئيساً للوزراء على أساس أن يكون الحكم مشاركة، ومن أجل إصلاح الأوضاع.. لكنهم (البعثيون) وبعد (١٣ يوماً) قاموا بانقلاب آخر،

---

(١) حماد شهاب التكريتي الذي قتل فيما بعد في محاولة الانقلاب التي قادها ناظم گزار عام ١٩٧٣.

وأخرجوا هؤلاء المتعاونين معهم، واستفردوا بالحكم بهذه الطريقة.. ثم استخدموا أسلوب القمع والإرهاب، وفي أول يوم بدأوا عمليات الإعدام والقتل وتوسيع دائرة إرهابهم بين الناس..

المواجهة

دخل الإمام الحكيم في صراع ومواجهة مع البعثيين منذ اليوم الأول، إذ لم تكن هناك جهة سبقت الإمام الحكيم في مواجهة البعثيين، فبدأ الصراع، لكن الموت خطف الإمام الحكيم وتوفي بعد مجيء البعثيين بأقل من عامين، ولفترة من هاتين السنتين الأخيرتين كان الإمام الحكيم طريح فراش المرض الذي ألمّ به.

وقد جرت أحداث المواجهة المعروفة فيما بين الإمام الحكيم وبين البعثيين بعد أن أعلن رفضه لهم، وعُقد اجتماع كبير جداً في الصحن الحيدري الشريف للإمام علي عليه السلام في اليوم السابع والعشرين من شهر صفر[1] وذلك لاجتماع الناس في (٢٧، ٢٨ من شهر صفر) كل عام بمناسبة وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وألقيت كلمة الإمام الحكيم، ألقاها في ذلك الحشد الغفير ولده حجة الإسلام والمسلمين السيد مهدي الحكيم قدس سره، معلناً فيها عن رأي الإمام الحكيم في الحكم ونظام الحكم..

ثم أعلن الإمام الحكيم بعد ذلك المواجهة، وسافر إلى بغداد وأتته هناك الوفود من كل مكان، فاضطر النظام الحاكم أن يرسل الشخص

---

(١) سنة ١٩٦٩م.

المدعو (حماد شهاب التكريتي) وهو أحد الخمسة الذين كانوا يسيطرون على الحكم آنذاك في العراق..

وفي اجتماعه بهذا الشخص أوضح الإمام الحكيم رأيه صراحة، فجاء في معرض بيانه له: **(إذا كان الناس قد أخرجوكم من الحكم في المرة السابقة وتركوكم أحياءً، ففي هذه المرّة وفي حال أخرجوكم مجدداً من الحكم سيقطعونكم قطعة قطعة)**.. فأشار حماد شهاب وبلهجة التهديد للإمام الحكيم أنَّه في حال استمراره بهذا الموقف فسوف يُقدِمُ البعثيون على اعتقال أصحابه وإيداعهم السجن، وبالفعل فقد صدر أمر بعد ثلاثة أيام من هذه المقابلة باعتقال حجة الإسلام والمسلمين السيد مهدي الحكيم بتهمة تعاونه مع الأكراد، ولفَّقوا له تهمةً، فأظهروا شخصاً كان تحت التعذيب، هو رفعت الحاج سرّي، من على شاشة التلفزيون لأجل أن يتحدث بهذا الموضوع..

بدأت المواجهة، وحوصر منزل الإمام الحكيم، ثم دخلوا منزله ببغداد يفتشون عن السيد مهدي الحكيم، فرجع الإمام الحكيم إلى النجف الأشرف واستمرت المواجهة مع البعثيين حتى توفي الإمام الحكيم.

استمرار المواجهة مع العفالقة من بعد رحيل الإمام الحكيم

بعد وفاة الإمام الحكيم اختلفت أوضاع المرجعية في النجف الأشرف، لكن بقي هذا النفس، نفس المواجهة يتبناه بشكل ما الشهيد الصدر وبعض أبناء الإمام الحكيم، مثل السيد مهدي الحكيم باعتباره كان موجوداً في الخارج، وأنا كنت في العراق وتعرضت مرتين للاعتقال، ومرة

ثالثة اقتادوني إلى السجن.. وهكذا استمرت المواجهة بوجود آية الله العظمى السيد الصدر.

س: ما **هو نظر المغفور له (السيد الحكيم) في حكومة عبد الكريم قاسم؟.**

ج: كان يرى أن حكومة عبد الكريم قاسم حكومة كافرة، وكان يشك في دين عبد الكريم قاسم؛ لأنه قنن قانوناً يخالف القرآن الكريم بشكل صريح، وبقي مصراً عليه[١].

س: لو سمحتم أن تعلمونا: هل كنتم أحد أعضاء جماعة العلماء، وشكراً لكم؟

ج: لم أكن أحد أعضاء جماعة العلماء؛ لأنهم في ذلك الوقت كانوا من كبار السن - وهم في سن الأجداد - ومن كبار العلماء في ذلك الزمان، ولكن كنا نخدم في مجال عملهم، وأنا كنت أحد الأشخاص العاملين في خط جماعة العلماء.

س: ذكر سماحتكم أن العلماء والمراجع اتخذوا مواقف سياسية، ونحن لا نسمع عنهم أي شيء بالنسبة لقضية المواجهة السياسية، فهل كان هؤلاء العلماء يجابهون الطاغية بقلوبهم، ونحن نرى أن الحديث الشريف يذكر أن أضعف الإيمان المواجهة بالقلب[٢]راجياً تبيان الموقف تجاه هؤلاء

---

(١) القانون الذي سنه عبد الكريم قاسم كان يخص المواريث، وأن نصيب المرأة كنصيب الرجل خلافاً لقوله تعالى: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾ النساء:١

(2) روي عن رسول الله ﷺ انه قال:((**من رأى منكم منكراً فيلغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الايمان**))، ميزان الحكمة:٣: ١٩٥٠

العلماء؟ وماذا يمكن أن نسمي سكوتهم؟ وإذا قلنا: إن العالم الفلاني يعرف حكمه فيجب أن لا نعتب على كل إنسان ساكت عن الظلم؛ لأنه كما يقال: حفظ النفس واجب شرعي، أرشدونا مأجورين والسلام عليكم؟.

ج: لقد بينت التصور الإسلامي الذي أعتقده تجاه هذه القضية، فالعالم الساكت إذا كنا نحتمل أن يكون لديه عذر بينه وبين الله سبحانه وتعالى فحينئذ نحمل عمله على الصحة، ونقول: هو معذور، ونقول أيضاً: إن هذا الموقف غير صحيح، لكن لعله معذور عند الله سبحانه وتعالى، فقد يكون موقفه موقفاً شخصياً لاموقفاً للأمة، وبالتالي يكون معذوراً، ولكننا لا نرى هذا الموقف صحيحاً.

أما إذا لم نحتمل فيه ذلك فنقول: إن هذا الموقف غير صحيح، وإنه غير معذور. ولكنني أوصي في مثل هذا المجال أن لانتبع أساليب التهجم والتجريح والهتك، وما شابه ذلك، بل نتبع الأسلوب الموضوعي الرصين، لنبين الموقف الشرعي بشكل عقلائي دون أن يؤدي هذا الأسلوب إلى كلمات غير مناسبة.

س: هل يمكن القول: إن السيد الحكيم سلك مسلكاً إصلاحياً مع الحكومات السابقة، في حين أنه سلك مسلكاً ثورياً مع حزب البعث بعد انقلاب ١٧ تموز؟.

ج: هذا الموضوع من المواضيع التي أجلنا البحث فيها، وهناك بحث فيه عدة مفردات منها العمل على مستوى الحوزة العلمية والأمة بشكل عام، وموقف السيد الحكيم ﭬ من هذه الحكومات، وسيأتي الحديث عنه في

المستقبل إن شاء الله، وسوف نتحدث عن علاقة السيد الحكيم بالتحرك الإسلامي العالمي، وكذلك علاقته بالثورة الإسلامية في إيران.

س: سماحة السيد: ذكرتم أن جماعة العلماء التي تأسست في النجف تحت رعاية ودعم السيد الحكيم فشلت - هكذا إذا لم أكن مشتبهاً - وانتهت العملية بعد ثلاثة أشهر من تأسيسها، في حين أننا نلاحظ أن التجربة الحركية لحزب الدعوة نجحت في الاستمرار، بالرغم من تشابه الظروف الصعبة التي واجهت كلا التجربتين. ما هو تعليلكم لذلك؟.

ج: لا أعرف كيف أصيغَ السؤال بهذه الطريقة، ولا أدري إن كنتم تعنون أصل الأطروحة، فجماعة العلماء ليست حركة وتأسيساً بذاك المعنى، وإنما هي عمل ضمن الحوزة العلمية، والحوزة العلمية لم تفشل في تحركها، بل استمرت، والمرجع بقي مستمراً في عمله، والعلماء الذين كانوا في النجف كانوا يساندون المرجع في هذا التحرك.

فالمرجعية بقيت مستمرة في العمل ولم تفشل، بل بقيت تناضل، والاختلاف بين جماعة العلماء وبين حزب الدعوة - وأي حزب آخر - في قضية السرية والعلنية، فجمعية العلماء لو كانت سرية فمن الممكن أن تبقى وتستمر. وحزب الدعوة لم يكن يتصدى لما كانت تتصدى له جماعة العلماء من إصدار منشورات ومواقف سياسية وغير ذلك. وكل ما كان يتصدى له الحزب أنه كان - حسب فهمه - يمر بتجربة ثقافية.

س: لماذا كان المغفور له الإمام الحكيم يؤكد على قيادة جماعة العلماء، بالرغم من وجود تنظيمات أخرى منذ زمن؟.

ج: لم يكن السيد يؤكد على قيادة جماعة العلماء المجاهدين، بل كان يؤكد على قيادة المراجع والعلماء المجاهدين.

س: إذا كان السيد الحكيم قد حقق نقلة نوعية في القيادة، وهي تحكيم قيادة العلماء، فبأي رؤية كان يعمل العلماء السابقون، الذين تصدوا في فترات سابقة للإنكليز، أو ما يسمى بالحكم الوطني؟.

ج: قلت: إن هذه النقلة بلحاظ ما بعد ثورة العشرين، لا بلحاظ كل تاريخ العلماء، فقبل ثورة العشرين، وإليها وما بعدها بقليل كان العلماء يتصدون، بدليل أن قادة ثورة العشرين هم المراجع، لكن بعد ثورة العشرين كانت هناك انتكاسة في وضع المرجعية أدت إلى حالة الانفصال، واستمرت هذه الانتكاسة عدة عقود، لكن السيد الحكيم أرجع المرجعية لذلك الوضع.

س: عندما قام الإمام الحكيم بتحركه السياسي المشهور لغرض تحدي النظام، ماذا كان موقف التنظيمات الإسلامية قبل قيامه بهذا التحرك وبعده؟.

ج: كان موقفها السكوت، وأعني التنظيمات لا أفرادها، فالتنظيم بعنوانه جهاز، وكان لكثير من أفراده مواقف إيجابية جيدة.

س: قرأت فتوى للمرجع الإمام الحكيم (أنه لايجوز اتباع القيادة المجهولة)، فكيف يكون موقفنا من الحركة الإسلامية العراقية، والحال أن قيادتها سرية مجهولة؟.

ج: الجواب واضح من نفس السؤال، ورأيه أن الانتماء للحزب يجب أن يكون بهذا الشكل، ولكنه كان يحتمل أن يكون بقية الأفراد مقلدين لأشخاص آخرين، وبالتالي فهم معذورون أمام الله سبحانه وتعالى. من قبيل أن السيد الحكيم كان يفتي بطهارة أهل الكتاب، وقد يكون هناك شخص يقلد من يقول بنجاسة أهل الكتاب. فرأيه في المسألة واضح، ولكن لا ينبغي أن نأخذ موقفاً عدائياً لتلك التنظيمات، فقد يكونون معذورين أمام الله سبحانه وتعالى.

س: ما هو تقديركم لنسبة النجاح التي حققها السيد الحكيم في نقل الأمة إلى حالة المواجهة ضد السلطة؟.

ج: في تصوري نسبة جيدة وعالية، ولكنها تحتاج إلى شرح لكي يتبين ذلك.

س: يقول السيد سعيد الخطيب: إنه كان متردداً في الذهاب مع قافلة الحجاج للحجاز كموجّه ومبلّغ، فجاء للسيد الحكيم وقال له ذلك، فقال له السيد: قم يا سيد سعيد وصلّ لأصلي وراءك، ماذا تريد، اذهب ومن الله التوفيق؟.

ج: أحسنت، وتوجد في هذا الموضوع شواهد، وقد اهتم السيد الحكيمقدس سره بالبعثات الدينية للحج، فكان يبعث هيئة لتغطية أوضاع الحجاج والاتصال بهم وتشجيعهم، وكان يطلب من طلاب العلوم الدينية العراقيين أنْ يبقوا بعمائمهم في الحج لكي يعرفهم الحجاج المستضعفون، الذين لا مبلغ لهم فيسألونهم.

مرجعيّة الإمام الحكيم...والإمام الخميني

س: ما هو مدى اهتمام الإمام الحكيم بنصرة التحرك الإسلامي في إيران، وما هو موقف الإمام الحكيم من نفي الإمام الخميني إلى تركيا ؟

ج: كان للإمام الحكيم مواقف من نصرة الحركة السياسية الثورية في مواجهة النظام الشاهنشاهي، وكانت هناك ثلاث نقاط مهمة ترتكز عليها هذه النصرة:

الأولى: إنقاذ وحماية المواقف التي كانت تقفها هذه الثورة في مواجهة النظام الشاهنشاهي، والمطالبة بالإصلاحات التي كانت تصدر من الإمام والعلماء والمراجع في إيران.

الثانية: سعي الإمام الحكيم في تخليص وإنقاذ مَن كان يتعرض للظلم والأذى من قبل الشاه.

الثالثة: حماية ونصرة طلبة العلوم الدينية الذين كانوا يتعرضون للمحاربة والتشريد والمجيء إلى النجف الأشرف.

أما بالنسبة إلى موقف الإمام الحكيم في فترة إبعاد الإمام الخميني ونفيه إلى تركيا وحتى مجيئه إلى النجف الأشرف، فأنا لا أتذكر شيئاً خاصاً في ذلك، وعدم تذكّري لذلك لايعني أنه لم يكن هناك شيء؛ لأن جهاز الإمام الحكيم كان جهازاً تُقسّم فيه الوظائف والواجبات - بشكل عام - على الأشخاص العاملين فيه، ومن خصائص الإمام الحكيم أنه كان يعمل بشكل منظم في جهازه، ولذلك لم يكن لي شخصياً دور فيما يتعلق بالقضايا ذات العلاقة بإيران والمناطق الأخرى، ودوري الرئيسي يتعلق بالقضايا ذات العلاقة بالأوضاع

السياسية التي تجري في العراق، وإنْ كنت أطلع أحياناً على أمور أخرى، أو كانت هناك قضايا مشتركة - أحياناً - نساهم فيها، ولكن بشكل مباشر لم يكن لي اختصاص في هذا الموضوع. وكان الذين يتولون العمل التنفيذي والإداري الذي يتعلق بموضوع إيران، هم - على ما أتذكر -:

١ ـ سماحة المرحوم الشيخ محمد الرشتي النجفي[1]، نجل آية الله الشيخ عبد الحسين الرشتي.

٢ ـ سماحة الشيخ محيي الدين المامقاني[2] نجل آية الله العظمى الشيخ عبد الله المامقاني.

٣ ـ سماحة السيد محمد الهاشمي[3]، نجل آية الله العظمى السيد جمال الدين الگلپايگاني الهاشمي.

---

(١) الشيخ محمد بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ عيسى (١٣٩٤هـ). عالم جليل مجتهد فاضل محقق، أديب عالم بالرجال والمطبوعات والمخطوطات. تتلمذ على والده، والسيد الحكيم، والسيد الخوئي.

(٢) الشيخ محيي الدين بن الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن ولد ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢م. عالم جليل مجتهد محقق، من أساتذة الفقه والأصول. اجتاز مقدمات العلوم ومراحل السطوح وحضر أبحاث والده، ثم تتلمذ في الفقه والأصول على السيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد الحكيم، والسيد الخوئي. وهو الآن يقيم في مدينة قم.

(٣) السيد محمد بن السيد جمال الدين بن السيد حسين الگلپايگاني النجفي (١٣٩٧هـ). عالم كامل مجتهد جليل، كاتب مؤرخ متتبع شاعر أديب كبير، من أساتذة الأدب العربي. وأصبح في الرعيل الأول من شعراء العراق، أكثر من الكتابة والتأليف والنظم. وتولّى التدريس في الفقه والأدب العربي.

٤ ـ السيد إبراهيم اليزدي[١]، نجل آية الله السيد علي اليزدي، حفيد آية الله العظمى السيد محمد كاظم اليزدي، وهو أيضاً صهر الإمام الحكيم.

وكان هناك أشخاص آخرون يساعدونهم في ذلك، ولكن الذين كانوا يقومون بهذا العمل بشكل رئيسي هم هؤلاء الأربعة. وكانت هناك أيضاً طبقة من المستشارين للإمام الحكيم في هذه المناسبة أو تلك هم على إطلاع في ذلك، منهم:

١ ـ آية الله السيد جعفر المرعشي[٢].

٢ ـ آية الله السيد علي الخلخالي[٣]. وغيرهما...

ولذلك لايوجد في ذهني الآن شيء من المواقف فيما يتعلق بموضوع (تركيا)..

س: ما هو موقف الإمام الحكيم من مجيء الإمام الخميني إلى العراق؟

ج: عندما جاء الإمام الخميني إلى العراق كان هناك حديث في أوساط الحوزة العلمية بشكل عام، ولا أقول: في وسط المرجعية، وهو:

---

(١) يراجع ترجمته من كتاب الإمام الحكيم والمرجعية الدينية

(٢) السيد جعفر بن السيد محمد بن السيد سلطان علي (١٤٠٧هـ). عالم عامل فاضل مجتهد جليل، محقق متتبع كامل ورع صالح متواضع من أساتذة الفقه والأصول. حضر على الشيخ ضياء الدين العراقي. والشيخ محمد حسين الإصفهاني. والسيد أبي الحسن الإصفهاني. واستقل بالبحث والتدريس.

(٣) السيد علي بن السيد محمد بن السيد زين العابدين(١٣٩٣هـ). عالم جليل مجتهد فاضل، من أساتذة الفقه وأئمة الجماعة والتقليد والفتيا. تتلمذ على الميرزا محمد حسين النائيني. والشيخ محمد حسين الإصفهاني.

أولاً: في أي مكان يستقر الإمام؟ هل في النجف، أو كربلاء، أو مكان آخر؟!

ثانياً: ما هو الموقف الذي سوف يكون من قبل العلماء في النجف الأشرف تجاه الإمام الخميني؟ خصوصاً أنه كان هناك سؤال يقول:

ما هو هدف نظام الشاه الذي أبعد الإمام إلى تركيا من الموافقة على مجيئه إلى النجف الأشرف، مع أن الإمام في تركيا يبدو أنه أصبح معزولا عن العالم بشكل عام، باعتبار الوضع في تركيا..، وخصوصاً إنّ هذه الموافقة تمت مع حكومة العراق التي لها مواقف مضادّة من حكومة إيران؟!.

فما هو الذي يجمع بين هاتين الحكومتين؟!.

أما ما يخص الحديث الأول وهو استقرار الإمام في النجف أو كربلاء، فكان البعض يميل إلى استقراره في كربلاء؛ لأن في ذلك - حسب ما يقول هؤلاء - مصلحة من ناحيتين:

الأولى: إن كربلاء أصبحت خالية من مرجع مهم بعد وفاة المرحوم السيد ميرزا مهدي الشيرازي الذي كان شخصية علمية معروفة في كربلاء، وهجرة المرحوم السيد محمد هادي الميلاني[1] إلى مشهد واستقراره فيها.

---

(١) السيد محمد هادي بن السيد جعفر (١٣١٣ - ١٣٩٥). فقيه أصولي كبير، ومجتهد محقق بارع، وزعيم ديني خبير، ومن أئمة التقليد والفتيا وأساتذة الفقه والأصول والحكمة الإلهية والتفسير والبيان، وفي طليعة قادة الحركة الإسلامية الكبرى في إيران ١٣٨٣هـ. بعد أن نشطت الحركة العلمية في كربلاء هاجر عام ١٣٧٣هـ إلى مشهد للزيارة، غير أن الهيئات العلمية والطبقات الشعبية طلبت منه الإقامة بين ظهرانيّهم، فاستجاب لهم وواصل جهاده العلمي والفكري، وقام بمآثر خالدة.

وذا فراغ مهم حيث يُراد المحافظة على حوزة كربلاء وعلى هذا الوجود في العراق، خصوصاً وأنَّ العراق يتعرَّض لمشكلات في مقام الضغط على الحوزات العلمية. فوجود الإمام في كربلاء يعطي لحوزتها - هذه الحوزة العلمية التأريخية - قوةً كبيرةً جداً.

الثانية: إن ذلك يجنِّب الإمام المشكلات التي يمكن أن تنشأ من وجوده في النجف الأشرف، وذلك من خلال الاحتكاك بينه وبين العلماء الذي قد يحصل، باعتبار وجود الاختلاف في الرأي إجمالا بين منهج الإمام والمنهج العام السائد بين بعض العلماء في النجف الأشرف..

وهذا الحديث هو ترجيحات تُذكر - على كل حال - في وسط الحوزة، لتحليل الوضع العام، وليس حديثاً كان يُراد أن يُطرح على الإمام، حيث كان يُرى أنه شخص عنده إرادة واستقلال في الرأي وهو يتخذ القرار.

س: ماذا كان رأي المراجع والإمام الحكيم بشأن هذا الموضوع؟

ج: كان الحديث في الأوساط الحوزوية في مقام التحليل والتنبؤ والاستحسان، يعني أن صاحب القرار هو الإمام الخميني، والعلماء المراجع لم يتحدثوا فيما بينهم حول هذا الموضوع، وهم لا يجتمعون فيما بينهم ليتداولوا مثل هذه الأمور. وفي حوزة الإمام الحكيم لم أسمع حديثاً خاصاً يرتبط بهذا الموضوع، وأنهم كانوا يرجحون استقرار الإمام في هذا المكان أو ذاك؛ لأنهم كانوا يشعرون بأن الإمام هو الذي يتخذ القرار، ولا يوجد هناك رأي يمكن أن يلقى إليه أو يقال له...

س: ما هي دوافع نظام الشاه من نفي الإمام الخميني إلى النجف؟

ج: أما ما يخص الحديث الثاني الذي كان يجري في الحوزة، وهو ما

الهدف من مجيء الإمام إلى النجف؟ أو بتعبير أدق: ما هو هدف نظام الشاه من الموافقة على مجيء الإمام إلى النجف الأشرف؟ لأن الإمام عندما جاء إلى النجف لم يكن بإرادته، وإنما كان بموقف من نظام الشاه..

فكان هناك تخوف في الأوساط الحوزوية أن يكون الهدف هو أن يقع صراع بين العلماء في النجف من خلال وجود الإمام هناك، وهذا الصراع إما أن ينشأ من العلماء، في محاولة لمحاصرة الإمام وتطويقه وجعله غير قادر على الحركة، أو ينشأ من مهاجمة الإمام للعلماء باعتبار أن الإمام كان له رأي ومواقف، فيهاجم العلماء في مواقفهم.. وهذا يستفيد منه الشاه على كل حال؛ لأنه كان يظن:

أولاً: إنّ الإمام سوف يضعف من خلال هذا الصراع.

ثانياً: اختلاف العلماء والمراجع فيما بينهم يخدم نظام الشاه وقدرته.

موقف الإمام الحكيم

وكان القرار في الجهاز المرجعي للإمام الحكيم هو:

أولاً: إنّ الإمام يجب أن يُعامل عندما يأتي إلى النجف معاملة كريمة يُتجنب فيها أي عمل يؤدي إلى حدوث صراع من قبل المرجعية مع الإمام، فالأمر مرهون به- قُدِّسَ سِرُّهُ - في ما يتخذه من موقف، أما من قبلهم فكان القرار الرئيسي هو أن يُكرّم الإمام بالطريقة المتعارفة.

ثانياً: أنْ لايكون هناك حديث في داخل الجهاز ضد الإمام أو أنصاره وأعوانه، ويُعامل كمرجع من المراجع المحترمين، دون أن يكون هناك موقف سلبي تجاهه.

ومن هنا نجد أن الإمام الحكيم - الذي كان يحسب حساباً دقيقاً في

مسألة الزيارات - قام بزيارة الإمام الخميني عندما جاء إلى النجف، وذلك لإعطاء هذا التصور، وهو أنهم يعاملون الإمام معاملة إيجابية. وأخذ يزوره كذلك بشكل مستمر، بين حين وآخر.

ثالثاً: كان الإمام الحكيم هو المرجع العام في الحوزة آنذاك، وكان موقفه يؤثِّر - إلى حد ما - على مواقف العلماء والطلبة والوجهاء، وكل هؤلاء الذين كانوا يرتبطون بحوزته ارتباطاً وثيقاً، من الذين كان بعضهم في جهازه، وبعضهم قريبين منه ويتأثرون به، سواء كانوا من الفرس أم العرب أم الأفغان..

فكان هؤلاء أيضاً يعاملون الإمام الخميني معاملة الاحترام، فيترددون على بيته ومجلسه ويزورونه في المناسبات، إلى غير ذلك من الأمور، باعتبار هذا القرار بمعاملة الإمام كمرجع له كامل الصلاحية والاحترام. وهناك وجوه ممن كان يزور الإمام الخميني، أذكر منهم:

١ـ الشيخ محمد جواد الشيخ فاضل الذي كان جزءاً من حوزة الإمام الحكيم. وهو المسؤول عن إجابة الاستفتاءات.

٢ ـ الشيخ هادي القرشي(١).

٣ ـ الشيخ باقر القرشي(٢).

---

(١) الشيخ هادي بن الشيخ شريف ولد ١٣٤٣ هـ -١٩٢٥م. عالم جليل مجتهد فاضل. من أساتذة الفقه والمنطق والمعاني والبيان والعربية. وممن تتلمذ عليهم: السيد علي شبر، والسيد الخوئي، والسيد الحكيم.

(٢) الشيخ باقر بن الشيخ شريف ولد ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م. علامة محقق، ومؤلف متتبع، وكاتب كبير جليل، تناول في تآليفه الجوانب الإسلامية والأخلاقية. وممن قرأ عليهم: السيد علي شبر، والسيد الخوئي، والسيد الحكيم...

وغيرهم من الأسماء المعروفة التي كان لها ارتباط وثيق جداً بحوزة الإمام الحكيم وجهازه، وكانوا يترددون على الإمام ويقومون بالصلة بحسب المناسبات، وهكذا المناسبات العرفية، كمجلس الفاتحة مثلا، وغير ذلك.

موقف الإمام الخميني

وكان موقف الإمام من ناحيته يتسم بالحكمة أيضاً. وأنا وإن لم يوجد لدي اطلاع في هذه المسألة، لكنه كان يبدو من السلوك العام للإمام أنّ عنده قراراً بتجنب الاحتكاكات مع العلماء إلى حد كبير - وهذا الأمر أدركناه في ذلك الوقت ولم نسمعه من أحد - حيث إنه كان لا يتصدى لبعض الأمور والشؤون العامة من أجل أن لا تحدث هذه الاحتكاكات، فكان لا يتصدى إلى بعض القضايا التي كان المراجع عادة ما يتصدون لها، من قبيل إقامة مجالس الفاتحة عندما يموت مرجع مثلا، كان كثيراً ما يقلل ويخفف.

هذا الأمر كنا نفهمه أنه لايريد أن يدخل ميدان المنافسة.

وكان يعامل الآخرين معاملة الاحترام. ولم يُسمع منه ولا من حوزته الخاصة كلام غير مناسب، باستثناء ما نُسب إلى بعض الأشخاص الذين كانوا يُحسبون على حوزته، من تحامل على المراجع ومنهم الإمام الحكيم، كما هو الأمر فيما نسب إلى آية الله رضواني، أنَّه في مرة من المرات تحامل على الإمام الحكيم بشكل قاسٍ وشديد، وأجابه بعض الأشخاص وحصلت قضية من هذا القبيل، أو ما يُنسب لبعض الأشخاص الآخرين

الذين هم أقل من آية الله رضواني..

س: ماذا كان موقف الإمام الحكيم من نظام الشاه؟

ج: بحسب الظاهر لم يكن الموقف السياسي العام للإمام الحكيم تجاه نظام الشاه موقف المواجهة معه بالشكل المباشر الذي يؤدي إلى المقاطعة، وإنما كان موقف الحديث والنقد والتصدي لسياساته، كما هو الحال في موقفه السياسي تجاه النظام العراقي، حيث لم يكن الإمام الحكيم مقاطعاً له ـ أيضاً ـ، فكان رئيس الوزراء والوزير يأتيانه، ولكنه كان دائماً يتحدث بحديث النقد والانتقاد للنظام والمطالبة بالإصلاحات، وكان يتوقف عن استقبال رئيس الجمهورية؛ لأن له معنىً آخر غير استقبال الوزير.

هكذا كانت سياسته العامة مع نظام الشاه.

بعض هؤلاء الأشخاص كانوا ينتقدون بعض الأعمال، وحينئذ يصير هذا النوع من المواجهات.

وباستثناء بعض الأمور الجزئية التي كانت تقع فإن الوضع العام للإمام الخميني وحاشيته وجماعته الخاصة كان يقوم على أساس هذه الفكرة، أي: على أن لايكون هناك نوع من المواجهة مع الإمام الحكيم ولا بقية المراجع.

كان الإمام الحكيم هو المرجع البارز الذي يتصدى للشؤون العامة هناك. مثلاً: باعتبار أن الإمام الخميني كان موجوداً في العراق، وكانت لحكومة العراق مواجهة مع حكومة الشاه، وكان بعض الأشخاص المحسوبين في الحوزة يستفيدون من إمكانيات الحكومة العراقية في مقابل حكومة الشاه، فكان يُتوقع - مثلاً - أنْ الإمام عنده

قدرة على القيام بتقديم بعض الخدمات لطلاب الحوزة العلمية، من قبيل قضايا الإقامة، وما شابه ذلك. ولكنه لم يتصدَّ لذلك، بل جعل التصدي للإمام الحكيم باعتباره المرجع العام، وقد يتصدى لبعض الأشخاص في حالات خاصة، ولكنه لم يكن يتصدى تصدياً عاماً.

ونحن كنا نفهم أن سياسة الإمام قائمة على أساس أنه لايريد أن يحصل هذا النوع من الاحتكاك والاصطدام. ونتيجة لهذا الموقف في حوزة الإمام الحكيم، وذاك الموقف في حوزة الإمام الخميني نجّى الله سبحانه وتعالى المسلمين من قضية كان نظام الشاه يريدها أن تقع من مجيء الإمام إلى النجف.

الإمام الحكيم وتجربته مع العلماء في إيران

وإكمالا لهذا الموضوع أقول: إن الإمام الخميني زار الإمام الحكيم رداً لزيارته له، وأنا وإن لم أكن موجوداً في هذا المجلس، لكني سمعت بأن الإمام الخميني طرح على الإمام الحكيم: أن يكون هناك عمل يتصدى به في إيران، ولكن الإمام الحكيم كان تشخيصه بأن الناس سوف لايتجاوبون مع ذلك. وحسب ما كان الحديث، أن الإمام الخميني طرح موضوع تصدي الإمام الحسين عليه السلام وتضحيته، فقال الإمام الحكيم: إن في منهج أهل البيت عليهم السلام يوجد موقف الإمام الحسن عليه السلام، والإنسان يحتاج إلى أن يرى الظروف القائمة، وعلى أساس ذلك يكون التصدي.

هنا الإمام الخميني قال: أنا أول مَن يستجيب في هذا الموضوع. لكن

الإمام الحكيم كان عنده شك في أن الإمام وغيره من العلماء سيستجيبون لموقفه، خصوصاً أنه جرَّب مع الإمام الخميني قضية، وهي: أنه عندما وقعت الحوادث في إيران أرسل الإمام الحكيم رسالة إلى الإمام الخميني، وكل العلماء في إيران، طلب منهم فيها أن يأتوا إلى النجف الأشرف، من أجل أن يعقدوا اجتماعاً ومؤتمراً يتخذون فيه قراراً نهائياً فيما يتعلق بموضوع المواجهة مع الشاه. وعندما وصلت هذه الرسالة إلى إيران كان لها تأثير كبيرٌ جداً على الأجواء السياسية في إيران، واضطرب الشاه من هذه الرسالة. ولكن الإمام الخميني كان رأيه بأن لايسافر إلى النجف الأشرف، وأن لايسافر العلماء إليها؛ لأن ذلك فيه أضرار، كما هو في رسالته للإمام الحكيم. وهكذا كان رأي بقية العلماء.

فكانت رؤية الإمام الحكيم هي: أنه لو جاء هؤلاء العلماء إلى النجف الأشرف واجتمعوا واتخذوا قراراً واحداً لكان ذلك يؤدي - يقيناً - إلى إرغام الشاه على قبول ما يطلبونه منه، ويقترحونه عليه؛ لأن الشعب الإيراني سوف يتجاوب مع كل هؤلاء العلماء قطعاً.

هكذا كان رأي الإمام الحكيم باعتباره مرجعاً تصدى لهذا الأمر، ورأى: ان هؤلاء العلماء لم يقبلوا رأيه ويأخذوا بوجهة نظره.

وأنا لا أريد أن الحديث عن صحة هذا المبنى وعدم صحته؛ لأن حديثي ليس في ذلك. بل إني أريد أن أقول: إن الجماعة كانوا يعملون برأيهم لا برأيه. يعني: إن من يريد أن يقود عملية في مقطع من المقاطع لابد أن يرى بأن الآخرين يتجاوبون مع رأيه. فإذا اتخذ القائد في يوم

من الأيام قراراً بالمواجهة مثلا، فعلى الآخرين أن يتجاوبوا معه، سواء رأوا أن هناك مصلحة في ذلك أم لا، لا أنهم إذا رأوا مصلحة في ذلك يواجهون، وإذا لم يروا فلا.

فهؤلاء الجماعة لم يقبلوا برأي الإمام الحكيم ولم يأتوا إلى النجف الأشرف. لماذا؟.

قالوا: لأننا نرى بأنه يجب أن نبقى في إيران ونواجه.

فالإمام الحكيم يقول: صحيح أننا يجب علينا أن نواجه، ولكني أرى أن تأتوا إلى النجف، ونشترك جميعاً في مواجهة واحدة من النجف الأشرف.

فكون المواجهة في النجف أفضل منها في إيران، أو بالعكس، هذه مسألة ترجع إلى تشخيص القيادة. ويمكن للمواجهة من الخارج أن تحقق النصر، وليس ذلك أمراً مستحيلا، كما هو الحال في حركة الإمام الخميني التي بدأت من النجف وانتهت إلى باريس، ثم بعد ذلك تحقق النصر.

ولا أريد أن أقول: إنّ هذا الرأي الذي اتخذه الإمام الحكيم صائب أو غير صائب؛ لأن ذلك لا يعرفه إلاّ الله سبحانه وتعالى، فقد نرى أن وجهاً ما صحيحاً وقد يكون الواقع خلافه.

لكن أريد أن أقول: إنّ الإمام الحكيم عندما يقول لسان حاله: لا أعتقد بأنهم يتابعونني ـ لم يتكلم الإمام الحكيم بذلك، وإنما اكتفى بالتبسم تأدباً، وكأنه يشير إلى هذا المعنى ـ فعنده تجربة حسية وليس مجرد حدس!. مضافاً إلى تجربته في النجف الأشرف، حيث إنه تصدى

إلى المواجهة هناك، ولم ينصره أحد من العلماء! لافي زمن الإمام الخميني ولا في ما بعده.

فكان رأي الإمام الحكيم أن يجتمع العلماء ويبدأوا بمواجهة واحدة، كما هو موجود في كتابه: بأننا نتخذ موقفاً واحداً وندخل الميدان مرّة واحدة..

كان يرى أن الشعب يكون مهيئاً فيما إذا اجتمع العلماء مرة واحدة، ولذلك لم يكن هذا الشعب مهيئاً!.

إن الإمام الخميني بقي وحده، ولم يتحرك الشعب. ونُفي فلم يتحرك الشعب، وبقي في النجف الأشرف عدّة سنوات، ولم يتحرك الشعب. إلى أن توفي الإمام الحكيم، فانتشر اسمه. وتوفي السيد الشاهرودي[1] وغيره من العلماء، فأصبح الإمام الخميني هو العلم الرئيس والمركزي والشخص الأول في المرجعية، وعلى أقل التقادير في وسط أولئك الذين هم على استعداد أن يتحركوا ويعملوا؛ لأن الناس على قسمين، قسم: لا يتحركون في كل الأحوال، وهؤلاء لا نتكلم عنهم. والقسم الآخر: مستعدون أن يتحركوا، وهؤلاء بعضهم يتحرك بالسيف، وبعضهم بالكلام، وبعضهم بالدعاء.

وهؤلاء الناس المستعدّون للحركة كان الإمام الحكيم يرى بأنه

---

(١) السيد محمود بن السيد علي بن السيد مير عبد الله الحسيني (١٣٠٤ ــ ١٣٩٦). فقيه كبير ومجتهد متضلع، ومن كبار مراجع التقليد والفتيا، وأساتذة الفقه والأصول، والزعماء الدينيين. حضر على الشيخ محمد كاظم الخراساني، والشيخ ضياء الدين العراقي، والميرزا محمد حسين النائيني، بذل جهده في تطوير الحوزة والدراسة، وقام بمآثر خالدة في إيران والعراق.

يمكنهم أن يجتمعوا ويكونوا قوّة يقهروا بها الطاغوت، وذلك فيما إذا اجتمع العلماء، أو كان هناك مرجع مطلق يتمكن أن يقول كلمة والناس يقبلونها منه، ولذلك أراد أن يجمع هؤلاء العلماء حتى يقول هذه الكلمة، والإمام وغيره من العلماء لم يوافقوا.. أما تشخيص الحالة السياسية مع مَنْ؟ فأنا لا أريد أن أدخل في بحثها؛ لأني في الواقع لا أعرفها بشكل كامل؛ لأني لم أكن محيطاً بالظروف كلها.

أسباب تحقق النصر في إيران

إن الإمام الخميني - حسب تشخيصي - إنما تمكن أن يحقق النصر - وإن كان النصر هو من عند الله سبحانه وتعالى، لكننا نتحدث عن الأمور المادية - لأنه أصبح الشخص الأول بعد وفاة الإمام الحكيم، ووفاة العلماء (رضوان الله عليهم) كالسيد الشاهرودي وغيره من العلماء الذين كان لهم نفوذ إلى حد كبير في إيران ـ عند المتحركين من الناس ـ سواء من كان يرجع إليه أم يرجع إلى غيره.

أما غير المتحركين، فهؤلاء لايتحركون وقد يرجعون إلى علماء آخرين. فأصبح هؤلاء المتحركون من الناس في إيران يلتفون كلهم حول الإمام، وعندئذ تمكن الإمام أن يحقق بإذن الله سبحانه وتعالى هذا النصر. ولذلك عندما كان الإمام في إيران لم يتمكن أن يحقق هذا النصر، وإن كان الناس قد تحركوا وتعرضوا إلى الأذى، وكان لهذا الأذى تأثيرات بعد ذلك، كما نحن الآن نتحرك في العراق لكن لم يتحقق لنا النصر. وبعد ذلك عندما ذهب الإمام إلى النجف لم يتحرك

هؤلاء الناس أيضاً؛ لأن الإمام لم يكن الشخص الأول في أوضاع هؤلاء الناس، والعلماء كانت لهم آراء متعددة..

وهناك أسباب مادية أخرى لهذا النصر كالتحولات التي حصلت في المنطقة، من قبيل: سقوط جمال عبد الناصر الذي كان له تأثير - بلا شك - على الأوضاع داخل إيران. وكذلك وجود حزب البعث وظلمه واضطهاده للحوزة العلمية، ووضوح قضية المواجهة، ودخول الشاه في اتفاق مع حزب البعث، جعل الناس يتّضح لهم أن هذا الشاه ليس كما يدعي أنه يدافع عن التشيع، بل هو ضد هذه المفاهيم.

التجربة الثانية للإمام الحكيم

قلنا: إن الإمام الحكيم كانت له تجارب في عدم متابعة العلماء له، منها:

أولاً: تجربته مع العلماء في قم وفي النجف.

وثانياً: بعد الحركة التي حصلت في إيران لم يتابع العلماء الإمام الحكيم حتى في قضية العراق.

فمثلا: عندما تعرَّض الإمام الحكيم إلى المحاصرة في بغداد ثم هجم الأمن العراقي على بيته وفتشوه، واتهموا ولده باتهامات، وأرادوا أن يقبضوا عليه ويقتلوه[1]، فكان واضحاً أن هذه القضية مرتبطة بمسألة

---

(١) كان هذا الهجوم على بيت الإمام الحكيم في عام ١٣٨٩ هـ المصادف ١٩٦٩م. وأما ولده الذي حاولوا إلقاء القبض عليه، فهو: الحجة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم.

تصدي الإمام الحكيم، لكنه مع ذلك بقي موقف الحوزة والمرجعية على حاله، بينما كان موقف أنصار الإمام الخميني في إيران، موقفاً مخالفاً - إذا لم أقل (مضاداً) - للإمام الحكيم، وكان موجباً لإحباط هذه الحركة التي قام بها الإمام الحكيم.

مثلا: الشيخ المنتظري ـ الذي كان محسوباً على الإمام الخميني ـ كان يعارض أن يكتب علماء إيران احتجاجاً على حكومة البعث، مما ارتكبوه بحق الإمام الحكيم والحوزة العلمية. هذا الأمر الذي لم يصنعه علماء النجف، إذ إنهم - على الأقل - احتجُّوا على الشاه، أما الإمام الخميني فلم يحتج، وأكثر من هذا: نُسب له في الجرائد العراقية أنه أيد الحكم الصادر في الإمام الحكيم.

والمرحوم السيد مصطفى، طلبوا منه المجيء فذهب باختياره. فنحن حسب المعلومات الموجودة عندنا، أن ما ذكره السيد حميد الروحاني في كتابه[1] هو أمر خلاف الواقع، والواقع هو أنهم طلبوا من السيد مصطفى أن يأتي من أجل أن تكون هناك مقابلة، فذهب باختياره، وجلس بينهم، ورجع ﴿قدس سره﴾ يتحدث في المجالس حديث الشخص المرتاح في المقابلة. وأهدى له أحمد حسن البكر ساعةً ذهبية، فكان يخرجها ويُريها للناس بعنوان أنهم كرّموه. إلى غير ذلك مما جرى في هذه الأوضاع.

فكان الانطباع العام هو أنَّ حركة الإمام الحكيم غير صحيحة

---

(١) نهضة إمام خميني.

وباطلة، وقد كانوا يتكلمون ويوجهون كلامهم. فالشيخ المنتظري - مثلا - وجّه الموضوع بأنه إذا أردنا أن ننتقد حكومة البعث فهذا سوف يؤثر على قضية فلسطين، باعتبار أن حكومة البعث هي ضد إسرائيل، فعندما ننتقد أي حكومة هي ضد إسرائيل فهذا تضعيف لقضية فلسطين. فيجب علينا إذن أن ننتقد هذه الحكومة بطريقة بحيث لا تمس قضية فلسطين.

وذكر شرطاً آخر في هذا الموضوع، فقال: وفي الوقت نفسه ينبغي أن لا نقوم بحركة، بحيث يستفيد نظام الشاه منها.

قال هذا الكلام في مجلس اجتمع فيه العلماء؛ من أجل أن يتخذوا قراراً بإرسال احتجاج مثلا.

والناس الذين كانوا يتحركون من المحسوبين على الإمام الخميني كانت رؤيتهم العامة هي أنهم لم يقبلوا بحركة الإمام الحكيم.

فالإمام الحكيم كان يرى أنَّ الجماعة والعلماء لايقبلون أن يتحركوا. مثلا: الإمام الخوئي ﷺكان موقفه أقرب إلى موقف الإمام الحكيم في هذا الموضوع، لكنَّه في الوقت نفسه كان يضغط على الإمام الحكيم بكل جهازه، لكي يتنازل ويتصالح مع حكومة البعث، والإمام الخميني لم يصنع ذلك، حيث إنه عندما زار الإمام الحكيم كان يصبِّرُه ويثبِّته، ولذلك عندما تحركت الحوزة العلمية في النجف الأشرف من أجل إسناد موقف الإمام الحكيم والمجيء إلى الكوفة والتظاهرات، وما أشبه ذلك، كان موقف المراجع له طريقتان:

الأولى: طريقة اللامبالاة، بمعنى أنهم لايدخلون في هذا الموضوع،

ولا يهتمون به، فالذي يريد أن يخرج أو لا يخرج هذا شأنه، وأما هم فليس لهم شأن في ذلك.

الثانية: طريقة السيد الخوئي (وهي الإصلاح)، بأن يتحدث الإمام الحكيم مع الحكومة، ويُصلح الوضع، ويهدِّئ الطلبة ويفض النزاع والصراع.

فكان تشخيص الإمام الحكيم للموقف هو تشخيص واقعي وصحيح، وكان يرى هذا، ولذلك كان يتحرك بالمقدار الذي تسمح به حركة الناس، وما يمكن أن يعطوه؛ ولذلك خرج إلى بغداد وتصدّى للعمل وواجهه، ولكن الناس - إلّا عدداً محدوداً - لم يواجهوا. وكان يعرف ذلك.

رأي الإمام الخميني في حركة الإمام الحكيم

وقد نقل لي السيد الشيرازي هذه الحكاية، قائلا: بعد وفاة الإمام الحكيم كانت تقع حوادث مع الحوزة كتسفير طلابها وما أشبهه. وقد زرت النجف في مثل هذه الظروف، وزرت الإمام الخميني، وجرى حديث بيني وبينه فيما يتعلق بالأوضاع التي جرت في العراق، وأوضاع العراقيين والإمام الحكيم، فكان الإمام الخميني يقول: **كان في نفسي شيء على الإمام الحكيم، أنه لماذا لايتحرك مع وجود هذا المقدار الكبير من الجماهير والمؤمنين الذين يتحركون معه، وهم مستعدون أن يلتفوا حوله**؟! لأن الإمام الحكيم عندما ذهب إلى الحج كان له توديع عجيب من كثرة الناس. وهكذا عندما جاء من الحج، كان له هذا الاستقبال. وهكذا في مناسبات أخر كان يجمع عدد كبير من الناس.

وكان يبدو أن الناس معه مستعدون للحركة ـ يقول الإمام الخميني: **حتى وقعت هذه الواقعة الأخيرة التي حدثت في بغداد – وهي التي أشرت إليها قبل قليل – ومجيء الإمام الحكيم إلى الكوفة، وما أشبه ذلك ورأيت أنّ الناس لم يتحركوا، عندئذ عرفت أنه معذور.** ويضيف الإمام: **فحتى هذا (الكبابجي)[1] الذي هو بجنب داري – يعني: جنب العلماء – لم يتحرك.**

وأنا سمعت من الإمام الخميني قدس سره في حديث بيني وبينه كنا نتحدث فيه عن قضايا العراق، وكنا في خدمته. يقول: **كنت أتوقع في زمن الإمام الحكيم أن تقوم الحكومة الإسلامية في العراق قبل إيران.**

فكان يرى أن الجو الموجود في العراق والمبارزة الموجودة فيه والحركة العامة الموجودة في مضمونها، كانت حركة يتوقعها أن تنتصر قبل انتصار الثورة في إيران. وإنْ كنا نحن نرى أن الوضع بشكل آخر، باعتبار أننا نعرف ما يجري في العراق بشكل دقيق، وما يجري في إيران بشكل دقيق أيضاً، فيمكننا أن نفرق بين الحالتين.هذه خلاصة هذا الأمر.

س: بم يفسر موقف السيد الحكيم عند جوابه للإمام الخميني حول سؤاله عن القيام ضد السلطة آنذاك بأنه يقتدي بجده الإمام الحسن عليه السلام؟ وهل كانت ظروفه تشابه ظروف الإمام الحسن عليه السلام، خصوصاً لو أخذنا بنظر الاعتبار شعبية المغفور له – كما ذكرتم –

(١) صانع الكباب.

وبالخصوص في الأوساط السنية؟.

ج: قلت: إن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث، ولكني أشير بشكل إجمالي للجواب.

أولاً: إن ما نشر لم يكن صحيحاً ودقيقاً؛ لأنه نُقل عن لسان أحد أعداء السيد الحكيم، ولا أقصد أن صاحب الكتاب عدو للسيد الحكيم، وإنما يرويه عن شخص عدو للسيد الحكيم، ولذلك لا يذكر صاحب الكتاب من أين جاء بهذا الكلام.

والظاهر أن صاحب الكلام هو السيد موسى الإصفهاني(١) حفيد المرحوم السيد أبي الحسن الإصفهاني، ومثل هذا الشخص لاينبغي الاعتماد على روايته.

وثانياً: إن السيد الحكيم لم يقل إن موقفي موقف جدي الإمام الحسنعليه السلام - إذا أخذنا بصحة ما ذُكر - وإنما قال: إنه لا ينبغي -

---

(١) عرف السيد الدكتور موسى الموسوي بمواقفه العلنية المناوئة للمذهب عموماً، ومراجع التقليد على وجه الخصوص، وألف في ذلك مجموعة من الكتب، منها: يا شيعة العالم استيقظوا، والشيعة والتصحيح، وقد حمل في كتبه حملة شعواء على عقائد الإمامية في التقية والخمس والإمام المهدي، كما حمل بشكل خاص على إمام الأمة بكلام هزيل جارح. ومما يلاحظ أن الوهابية تبنت نشر كتبه بين أوساط الشيعة، ومنها مخيم إيواء اللاجئين العراقيين في رفحاء السعودية. كما يلاحظ أن الشخص المذكور كان مؤيداً لصدام في حربه العدوانية ضد الجمهورية الإسلامية، وقد حضر ما يسمى بالمؤتمر الشعبي الإسلامي المنعقد في بغداد عام ١٩٨٥ الذي أصدر بياناً ختامياً اعتبر فيه القيادة الإسلامية في إيران (الفئة الباغية التي يجب على المسلمين قتالها حتى تفيء إلى أمر الله)!.

دائماً - أن نقول في تحركنا السياسي: إن الإمام الحسين عليه السلام صنع كذا وكذا، وإنما ينبغي أن ننظر لمواقف كل الأئمة عليهم السلام.

وقد ننظر إلى موقف الإمام الحسن عليه السلام لاموقف الإمام الحسين عليه السلام، ولم يشخص الإمام الحكيم موقفه، ثم ذكر - بناءً على صحة هذه الرواية - تفسيره لذلك، وكان يعتقد أن الشعب الإيراني المسلم سوف لا ينهض إذا أصدر أمره وقام في وجه السلطة.

هكذا كان يعتقد، ويبدو أن اعتقاده ليس بعيداً عن الواقع؛ لأنه بقي هذا الحال مدة أربع عشرة سنة حتى نهض الشعب الإيراني المسلم، ولو نهض في ذلك اليوم لما كان يؤدي إلى هذه النتيجة، وينتهي بهذه النهاية.

استقبال الإمام الحكيم للشخصيات الحكومية الإيرانية

س: كيف تفسرون استقبال الإمام الحكيم لأشخاص محسوبين على نظام الشاه؟

ج: عندما كان السفير الإيراني يأتي ويذهب، وهكذا عندما كانت تأتي شخصية حكومية من إيران لزيارة النجف كانوا عادة يزورون العلماء، وكان الإمام الحكيم يستقبلهم - أيضاً - ويتحدث معهم، وينصحهم، ويثير القضايا، فكان بمجرد أن يستقبلهم لا يسكت، وإنما كان دائماً يتحدث في هذا الأمر. لكن على مستوى الشخص الأول وهو الشاه كان الإمام الحكيم عنده توقف في هذه الرابطة. مثلاً: كانت هناك خطة بأن يأتي شاه إيران إلى النجف الأشرف بعد عودته من العمرة التي ينوي الذهاب إليها، ويلتقي بالعلماء والمراجع ومنهم

الإمام الحكيم، وعندئذ تُحل مشكلة الشاه في إيران؛ لأن الإمام الحكيم هو المرجع العام الذي يمكن من خلاله حل هذه المشكلة، فطُلب منه أن يكون هذا اللقاء، ولكنه لم يوافق عليه. وكان الشاه يشترط في المجيء إلى العراق موافقة الإمام الحكيم بهذا اللقاء؛ لأنه عندما يأتي إلى العراق ولا يتصل بالمراجع يكون لذلك مدلول سلبي وينقلب الأمر ضده.

احترام الإمام الخميني الخاص للإمام الحكيم

س: ما هو موقف الإمام الخميني من مرجعية الإمام الحكيم؟.

ج: بالنسبة إلى موقف الإمام الخميني تجاه مرجعية الإمام الحكيم فكان - كما ذكرت - يتعامل معه على أنه المرجع العام، ولذلك كان يوكل الأمور العامة إليه. وكان ذلك واضحاً من سلوك الإمام. وأنا سمعت أيضاً بعد ذلك من بعض الأخوة الأعزاء من حاشية الإمام، كالشيخ حسن الصانعي (حفظه الله تعالى) وغيره: أن الإمام قدس سره كان يولي أهمية خاصة لمرجعية الإمام الحكيم، وكان يحترمه. وأنَّ أصل احترامه له وأكثره كان ناشئاً من موقف الإمام الحكيم تجاه قضية إيران، وقضيته بشكل خاص.

وكان يبدو من الإمام - وهذا الشيء لم يبينه وإنما أنا أقوله - أنه كان يتخوَّف إذا جاء إلى العراق أن تكون هناك حركة مضادّة لحركته في النجف، ووجد الأمور على العكس، حيث كان الإمام الحكيم يعامله باحترام. وأيضاً كما ذكر أتباع الإمام، أنّ هذا كان له تأثير كبير

من الناحية النفسية في رؤية الإمام الخميني للإمام الحكيم واهتمامه به.

سياسة الإمام الخميني في الحوزة بعد الإمام الحكيم

إنَّ الإمام الخميني اتخذ بعد الإمام الحكيم سياسة - على ما يبدو، ولم أسمع ذلك منه ولا من أصحابه، وإنما أذكر ذلك من باب تفسير السلوك العام للإمام - تتمثل بالنقاط التالية:

١) عدم التصدي للمرجعية بالطريقة المعهودة

بأن لايتصدى للمرجعية بالطريقة التي يتصدى لها الآخرون، أي: طريقة التبليغات والدعاية ونشر الكتب والرسائل وإرسال المبلّغين وما أشبه ذلك، وإنما يترك الحالة تأخذ وضعها الطبيعي التدريجي دون إعطاء أهمية خاصة لهذا الموضوع. كان هذا واضحاً من خلال سلوكه. من قبيل مسألة طبع الرسالة العملية، حيث كان الكثير من الأشخاص الذين يريدون أن يرجعوا إليه يتقيدون في هذا الموضوع، وكانت تصدر من الإمام كلمات مفادها أنه: **إبقوا على تقليد الإمام السيد الحكيم، ولا حاجة إلى الرجوع إليّ.**

٢) عدم التدخل في الشؤون العامة للحوزة

بأن لايتدخل في الشؤون العامة للحوزة، وإنما أوكلها بشكل من الأشكال إلى الإمام الخوئي ليتصدى لها، فالإمام اتخذ سياسة: السعيد من اكتفى بغيره، يعني: هو يقوم بهذا العمل، وإذا كان يوجد غيره يقوم به فلماذا يتصدى هو له؟! ولذلك عندما سافر الإمام الخوئي إلى

لندن بسبب مرضه، وكانت هناك أزمة التسفير العام للطلبة، قبل اتفاقية سنة ١٩٧٥ م التي جرت بين النظام العراقي ونظام الشاه، والتي كُتبت مسودتها الأولية في الاجتماع الذي جرى بين صدام والشاه في الجزائر، فقبل الإعلان عن هذه الاتفاقية بدأ النظام العراقي يصفي الحوزة بسرعة، وكان الشاه يستقبلها. وكان الشاه يريد من ذلك أن يضعف حوزة النجف، خصوصاً بعد أن أصبح الإمام شخصاً مهماً في النجف الأشرف، حيث كان يخاف أن تبقى حوزة النجف على قوتها والإمام موجود فيها، وعندئذ تكون له قدرة على المواجهة.

فكانت سياسة الشاه هي التشجيع على سفر طلاب العلوم الدينية من النجف إلى إيران. ولذلك أحتمل - وإن كان لا يوجد عندي دليل عليه، لكن من خلال وثائق وزارة الخارجية يتبين صحة هذا الاحتمال - أن هناك اتفاقية سريّة بين الشاه وحكومة البعث على موضوع التسفير؛ لأن حكومة الشاه لم تحتج على ذلك ولم تنتقده، وكان هذا التسفير في الفترة التي وقع الاتفاق فيما بين هاتين الحكومتين.

هنا بعد غياب السيد الخوئي ووقوع هذه الحادثة، نجد أن الإمام هو الذي يدخل في هذا الموضوع دخولا قوياً، ويتخذ موقفاً هو أقوى من كل المواقف التي اتخذها العلماء الذين كانوا في النجف الأشرف، والذين كانوا يتصدون لهذه الأمور، وهو أنه قطع البحث وهدد بأن يسافر إذا لم تُحل هذه المشكلة، وبعد ذلك استجابت حكومة البعث لموقف الإمام وأوقفت عملية التسفير.

مباحثات بين نظام الشاه ونظام البعث

أما أنه كيف تم التوافق بين الحكومتين على هذا الموضوع؟

فقلت: إن مباحثات جرت بين نظام الشاه والنظام البعثي لحل المشكلات فيما بينهم، كحل مشكلة الشمال ومشكلة شط العرب، وغير ذلك، وهذه المشكلة لم تُطرح فيما بينهم أصلاً، بدليل أن النظام البعثي قام بهذه العملية، وسفّر العلماء، ولو كان الشاه قد طرح هذه القضية، وطلب إبقاء الطلبة فلا أعتقد أن النظام البعثي كان يرفض ذلك، بدليل أن الإمام عندما اتخذ موقفاً أوقف البعثيون عملية التسفير.

وهذا الموضوع فيه دلالة على أن الإمام الخميني ما كان يهتم كثيراً للتصدي لقضايا المرجعية كمرجعية، ولكن عندما كان يرى ضرورة وفراغاً يدخل في ذلك الموضوع ويهتم به.

وهكذا فيما يتعلق بقضايا المواجهة التي كانت تقوم في العراق، من النضال والجهاد. فكان الإمام الخميني يهتم بذلك، فأنا أتذكر أنه اهتم كثيراً في قضية إعدام الشهداء الخمسة[1]..

وهكذا عندما حدثت قضية السابع عشر من صفر[2] كان الإمام يهتم بها كثيراً، وأبرز عدم ارتياحه منها. ثم بعد ذلك أنا أشعر بأن

---

(١) الشهداء المعروفون بـــ (قبضة الهدى) وهم: ١. الشيخ عارف البصري. ٢. السيد عماد الدين الطباطبائي التبريزي. ٣. السيد عز الدين القبانجي. ٤. نوري طعمة. ٥. عبد الأمير چلوخان.

(٢) انتفاضة ١٧ صفر ١٣٩٧ (١٩٧٧م).

العلاقة الخاصة التي حصلت بيني وبين الإمام الخميني كانت لهذا السبب. والحمد لله رب العالمين.

س: هل لديكم إضافة أخرى على ما ذكرتموه؟

ج: لا يوجد شيء آخر غير الذي ذكرته. فالشيء الذي أعرفه يتمثل في هذين الأمرين اللذين ذكرتهما:

الأول: لم يكن الإمام يهتم للتصدي، لكنه في الوقت نفسه كان يتصدى للمرجعية، ويطرح نفسه كمرجع، كما في موضوع إعطاء الحقوق الشرعية والرواتب، فكان يهتم بأن يكون راتبه هو الراتب الأعلى وكان يتحرك في هذا الموضوع، ولكن لم يكن يرى أن ذلك شيئاً من ألوان الدعاية والتبليغ، كان الإمام يتحرك بهذه الطريقة، وهي أن لا يهتم بموضوع الدعاية والتبليغات وما أشبه ذلك.

والثاني: عدم التصدي لمثل هذه الأمور التي عادة ما تعتبر قضايا متعارفة في المرجعية، كما في موضوع البراني، ولم يكن الإمام يهتم في عقد مجالس الفاتحة، وهي طريقة من طرق الدعاية والإعلام، حيث إنه عادة يُذكر على المأذنة: يقوم آية الله العظمى فلان بعقد مجلس الفاتحة.

فكان الإمام ﷺ يأبى هذه الأمور؛ لأنها تدخل في الأمر الأول.

س: هل يمكنكم تزويدنا بوثائق حول هذه الموضوعات؟

ج: توجد بعض الوثائق مثل صور بعض البرقيات التي تأتي للعراق، أو رسائل الإمام الحكيم التي أرسلها للعلماء في إيران، ونحن عندنا بعضها.

الفهارس العامة

- ❖ فهرس الآيات القرآنية
- ❖ الاحاديث الشريفة والروايات
- ❖ المصادر
- ❖ المحتويات

فهرس الآيات القرآنية

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ...﴾	٢٣٨
﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾	١٥٨،١٦٩
﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى....﴾	٢٢
﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾	١٦٩
﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير...﴾	٥٦
﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا...﴾	١١٨
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ...﴾	٢١٩
﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ...﴾	٥٩
﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ...﴾	٢٩٩
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾	١٧٨
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ...﴾	١٦٩
﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ...﴾	١٧٢
﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ...﴾	١٦١
﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً...﴾	١٢٥،١٨٤
﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ...﴾	١٨٥
﴿يَا أَيُّهَا الْأَنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً...﴾	٥٥
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ...﴾	٥٣
﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا﴾	٤٩

فهرس الاحاديث الشريفة والروايات

((إذا خرج اثنان إلى غزوة...)) ١٥٨

((من تزوج فقد احرز نصف دينه...)) ٥٠

((من حام حول الحمى يوشك أن يقع...)) ٥٠

((من رأى منكم منكراً فيلغيره بيده، فان...)) ٢٩٩

((من مات ولم يعرف إمام زمانه...)) ١٧٠

((وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا...)) ٩٥،١١١

المصـــادر

١. القرآن الكريم
٢. معارف الرجال: محمد حرز الدين.
٣. شرح الازهار: أحمد المرتضى.
٤. الامالي: للشيخ الطوسي.
٥. كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، محرم ١٤٠٥هـ ق.
٦. النجف في عصرها الحاضر: للشيخ محمد تقي الفقيه.
٧. مع علماء النجف: للشيخ محمد جواد مغنية.
٨. الاختصاص: الشيخ الصدوق.
٩. الايضاح: ابن شاذان الازدي.
١٠. بحار الانوار: الشيخ محمد باقر المجلسي، طبع ونشر مؤسسة الوفـــاء، بيروت،الطبعة الثانية.
١١. ميزان الحكمة: الشيخ محمد ري شهري.
١٢. نهضة إمام خميني: السيد حميد روحاني.

المحتويات

المقدمة ٩

الفصل الأول

السيرة الذاتية ومعالم الشخصية ١٣

المنشأ والمولد ١٥

أثر اليتم في شخصية الإمام الحكيم ٢٣

الأول: الحرص على القيام بأعماله بنفسه ٢٤

الثاني: قوة الإرادة ٢٦

الثالث: تربية الأولاد والأبناء ٣٦

معالم التربية عند الإمام الحكيم ٣٧

منهج التربية ٤٦

الرابع: الاستقلال في التفكير والقرار والحركة الاجتماعية ٥٢

أثر الفقر في شخصية الإمام الحكيم ٥٣

الزهد ٥٧

الاقتصاد في الإنفاق ٥٩

الاهتمام بالفقراء والضعفاء ٦٣
اثر المعرفة الأخلاقية في شخصية الإمام الحكيم ٦٥
المدارس الأخلاقية ٦٦
١) التقوى والورع ٦٩
٢) العبادة ٧٢
المنهج العبادي ٧٣
٣) التواضع ٧٥
حسن العشرة مع المراجع الآخرين ٨١
٤) الإتقان والنصيحة في العمل ٨٣
٥) الشجاعة والتضحية ٨٥

الفصل الثاني

الجانب العلمي والمميزات الخاصة ٨٨
الفقه والأصول ٩٣
الدقة والفقاهة ٩٤
الاستنباط من موقع المعايشة الاجتماعية ٩٥
الشجاعة العلمية ٩٧
تيسير الفقه الاستدلالي ١٠١

المنهج العلمي.. ١٠١

الفصل الثالث

المرجعية الدينية وملامحها العامة ١٠٦

تمهيد ١٠٨

الظروف السياسية التي عاشتها المرجعية ١٠٨

قدسية المرجعية عند الأمة.................................... ١٠٨

مرجعية الإمام مرجعية معاصرة، ومرتبطة بالأحداث ١٠٩

علماؤنا يتقدمون المسيرة ١٠٩

أساليب المواجهة ١١٠

القيادة الإسلامية ١١٠

نظرة عامة للمرجعية.. ١١١

رؤية الإمام الحكيم للمرجعية ١١٥

المرجع وجهازه ١١٦

معالم في الموقع القيادي للمرجعية ١١٨

العلاقة مع المرجعية... ١١٩

البعد الجهادي في المرجعية.. ١١٩
إعطاء جنبة التشكيلات للمرجعية ١١٩
الحوزة العلمية ١٢٥
الأمــة... ١٣٩
بناء العلاقات مع الأمة.................................. ١٤١
إحياء الشعائر الإسلامية ١٤٤
إيجاد المؤسسات العامة.................................. ١٤٨
الموارد المالية المنظمة ١٥٠
ثقافة الجهاد في سبيل الله................................. ١٥٤

الفصل الرابع

الجهاد السياسي للإمام الحكيم ١٥٦
نظريته السياسية ١٥٨
النظرية الإسلامية في القيادة.................................. ١٥٨
قيادة المرجعية للأمة ١٥٩
وحدة القيادة ١٦٠
النظرية السياسية للإمام الحكيم ١٦١

١. القيادة للمرجعية الدينية ١٦٣
٢. عدم فصل السياسة عن الدين............................ ١٦٣
٣. الحوزة العلمية وتربية العلماء ١٦٥
٤. توطيد العلاقة بين المرجعية والأمة ١٦٦
٥. دعم الوحدة الإسلامية ١٦٧
مميزات النظرية ١٦٩
الولاء السياسي............................١٦٩
عدم مجهولية القيادة لدى القاعدة ١٧١
نظرية الإمامة شبيهة بالإيقاع ١٧٢
التصدي التدريجي ١٧٣
حركته الاجتماعية والسياسية ١٧٥
الجانب السياسي في حركة الإمام الحكيم ١٧٧
الجانب التثقيفي في حركة الإمام الحكيم ١٨٥
أهمية التبليغ ١٨٧
التكامل بين العمل الثقافي والعمل السياسي ١٨٨
مواقف ومعالم من الجهاد السياسي للإمام الحكيم ١٩١
مواقفه أيام الحكم الملكي ١٩١

مواقفه أيام الحكم الجمهوري ١٩٣
مواقف جهادية أخرى ١٩٨
تصدّي الإمام الحكيم للعفالقة البعثيين ٢٠٠
الجانب الديني.. ٢٠١
جانب الرؤية السياسية................................. ٢٠٢
الإمام الحكيم يرفض التعامل مع البعثيين ٢٠٦
البكر في منزل الإمام الحكيم ٢٠٦
المخطط البعثي في مواجهة المرجعية ٢٠٧
أساليب البعث لضرب المرجعية ٢٠٨
موقف المرجعية وتطور الأحداث........................... ٢٠٩
الاجتماع الجماهيري الذي دعا له الإمام الحكيم ٢١٠
النقاط الهامة في بيان الإمام الحكيم.......................... ٢١١
المواجهة المكشوفة.................................... ٢١٢
هل كان موقف الإمام الحكيم حسنياً أم حسينياً؟!............... ٢١٤
وصول الإمام الحكيم إلى بغداد ٢١٧
أسباب التقاعس...................................... ٢٢١
إصرار الإمام الحكيم على المواجهة..........................٢٢٢

تصدي الإمام الحكيم للقضية الطائفية ٢٢٤
الصيغة الصحيحة للمطالبة بحقوق الشيعة ٢٢٨
هوية المواطنة ٢٢٨
الحضور السياسي للأمة ٢٣٠
قضية الشعائر الحسينية ٢٣١
بين حقوق الشيعة والوحدة الإسلامية ٢٣٢
نتائج الحركة السياسية للإمام الحكيم ٢٤١
جذور النهضة الإسلامية المعاصرة ٢٤٩

الفصل الخامس

حـوارات حـول الإمـام الحكيـم ٢٥٨
نشأة الإمام وشخصيته ٢٦٠
موقف الإمام الحكيم من ثورة العشرين وتداعياتها ٢٦٤
بداية المرجعية ٢٦٨
الإمام الحكيم وقضايا العالم الإسلامي ٢٧١
موقفه من قضية فلسطين ٢٧٢
دوره في دعم مسلمي الهند وباكستان ٢٧٥

مواجهة التيارات الإلحادية ٢٧٦
موقفه من الاشتراكية ٢٧٧
الترويج للمذهب ٢٧٨
تعريف التشيع للعالم السني ٢٨٠
التحرك السياسي للإمام الحكيم.......................... ٢٨٤
موقفه من المشروطة ٢٨٦
نظريته في الحكم ٢٨٦
آلية التحرك عند الإمام الحكيم.......................... ٢٨٩
إخراج الأمة من عزلتها................................. ٢٩٠
مؤامرة المجيء بحزب البعث ٢٩٣
موقف الإمام الحكيم من البعثيين والاشتراكية............ ٢٩٥
المواجهة ٢٩٨
استمرار المواجهة مع العفالقة من بعد رحيل الإمام الحكيم ٢٩٩
مرجعيّة الإمام الحكيم...والإمام الخميني ٣٠٥
موقف الإمام الحكيم ٣١٠

موقف الإمام الخميني ٣١٢

الإمام الحكيم وتجربته مع العلماء في إيران ٣١٤

أسباب تحقق النصر في إيران ٣١٨

التجربة الثانية للإمام الحكيم.............................. ٣١٩

رأي الإمام الخميني في حركة الإمام الحكيم.................. ٣٢٢

استقبال الإمام الحكيم للشخصيات الحكومية الإيرانية........... ٣٢٥

احترام الإمام الخميني الخاص للإمام الحكيم ٣٢٦

سياسة الإمام الخميني في الحوزة بعد الإمام الحكيم................٣٢٧

١) عدم التصدي للمرجعية بالطريقة المعهودة ٣٢٧

٢) عدم التدخل في الشؤون العامة للحوزة ٣٢٧

مباحثات بين نظام الشاه ونظام البعث ٣٢٩

الفهارس العامة ٣٣٢